

مبادئ إنسانية

نعيم عاطف

طبائعنا البشرية وأشكالها

إعداد
سمير سوانى

تقديم
د. آمال توفيق

مبـــادئ إنسانيـــة — الجزء الثانى

نعيم عاطف

طبائعنا البشرية ..

وأشكالها

تقديم

الدكتورة آمال توفيق

✍ إعداد

سمير سوانى

اسم الكتاب : مبادئ إنسانية

الجزء الثانى : طبائعنا البشرية .. وأشكالها

المؤلف : نعيم عاطف - القاهرة

إعداد : سمير سوانى - القاهرة

الناشر : سمير سوانى - القاهرة

تصميم الغلاف : معتصم مخلوف

الجمع والتنفيذ : مؤسسة بيتر للطباعة والتوريدات

١ ش جمعية الشباب – عين شمس الشرقية (ت : ٢٤٩٠١٠٦٥)

www.peterprintes.com

E-mail : mail@print1979.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٩ / ٧٩٣٨

جميع الحقوق محفوظة للناشر

تليفون : ٢٥٧٧٦٩٦٩

محمول : ٠١٢٨٨٢٠٠٨٧

E-mail : samir.sawany@yahoo.com

تقديم

للدكتورة آمال توفيق

فى منتصف سبعينيات القرن الماضى ، تركتُ عملى بالتليفزيون ، كرئيسة تحرير بقطاع الأخبار ، للمشاركة فى تأسيس مجلة ثقافية للشباب العربى " **مجلة هو وهى** " . وحققت تلك المجلة - التى رأست تحريرها قرابة خمسة وعشرين عاماً - إنتشاراً واسعاً على إمتداد العالم العربى .

ولما كانت المجلة ذات طابع روحى ، فقد سعت منذ مولدها إلى ترسيخ القيم الثقافية والأخلاقية والحياتية فى قلوب الناشئة ، دون الدخول فى الأطر السياسية ، أو التوجهات الطائفية . فقدمت المجلة فناً راقياً ، وأدباً نظيفاً ، وترفعت عن المعالجات السطحية ، وإبتعدت عن التوجيه المباشر ، مما حقق لها جمهوراً من المحبين والمريدين ، الذين تتلمذوا فى مدرستها ، وتعلموا منهجها ، فترسخت فى أعماقهم القيم والمبادئ السامية ، فكانت سبباً فى تحولات واضحة فى مسار حياتهم العملية .

وكان باب " **مبادئ إنسانية** " واحداً من أقرب الأبواب لقلوب القراء ، الذين طالما كتبوا لنا معبرين عن إستفادتهم بمحتواه ، فإستمر باباً ثابتاً ينتظره ويتابعه آلاف القراء .فلم يكن يتناول المبادئ من مداخل وعظية متعالية أو توجيهية مترفعة ، بل يتناولها فى روح التأمل والخشوع ، ومن منطلقات إنسانية حية وصادقة وعملية . وبالرغم من تباين الموضوعات وإختلافاتها ، فقد ظلت ذات نسق واضح ، يتمازج فيه الواقع المادى مع التوجه الروحى . وينتهى إلى ترديد صرخة إنسانية يتوجه بها الكاتب والقارئ معاً لإستلهام المعونة الإلهية والقدرة العلوية لتحقيق حياة إنسانية متناسقة ومتصالحة مع ما حولها من معطيات .

وكثيراً ما تلقينا رغبات من القراء والناشرين فى تجميع هذه المقالات وتصنيفها للإحتفاظ بها والإستفادة منها ، غير أن ذلك تعذر على مدى السنوات الماضية - لظروف خارجة عن إرادتنا . وها قد جاء اليوم لنشرها .

ونود أن نذكر أن كاتب هذه المقالات لم يأخذ عنها أجراً مادياً ، بل ظل يكتب متطوعاً على مدى ربع قرن من الزمان . وهو اليوم أيضاً يتنازل للناشر عن أية حقوق مادية أو أدبية ، وكل ما يرجوه أن تساهم هذه الكلمات فى تشجيع القارئ وتوجيهه لما فيه خيره ومستقبله .

د . آمال توفيق

تمهيد

فى مرات كثيرة نسمع من يقول : " **فلان شخص صاحب مبادئ !** " ، أو " **فلان شخص ليس له مبدأ !** " . وهذه الكلمات قد يوصف بها شخص متعلم أو جاهل ، فقير أو غنى ، متدين أو ملحد ، عبقرى أو متخلف .

- ✍ **فما هو المبدأ ؟**
- ✍ **هل المبادئ هى المثاليات والقيم العليا والإفتراضات المستحيلة ؟**
- ✍ **هل هى قائمة بالوصايا القديمة المستخلصة من كتب الحكمة ؟**
- ✍ **وكيف تتشكل فى داخلنا المبادئ الحياتية ؟**
- ✍ **ومن هو صاحب المبادئ ؟**
- ✍ **وهل يتحتم أن تكون لنا مبادئ نتمسك بها ولا نفرّط فيها ؟**
- ✍ **وهل تؤثر مبادئى فى حياتى وعلاقاتى ومستقبلى ومصيرى ؟**
- ✍ **هل الإلتزام بالمبدأ أمر صعب أم مستحيل أم ممكن ؟**
- ✍ **أليس التمسك بالمبادئ قيداً يقلل فرص التقدم الحر فى شارع الحياة ؟**
- ✍ **ألا يقودنا التمسك بالمبدأ إلى التعصب وضيق الأفق أحياناً ؟**
- ✍ **كيف أكون صاحب مبدأ ملتزماً وناجحاً ؟**

هذا الكتاب لا يجيب على هذه الأسئلة . ولا يدعى الكاتب أنه قادر على إجابتها . وكل ما يستطيع أن يقوله من واقع خبرته الشخصية هو أن **المبادئ ليست شيئاً يشترى بالمال ، أو يقتنى بالعلم والمعرفة . لكنها توجّهات حياتية ، تتشكل فى داخل الفرد كحصيلة لخبراته الإنسانية والروحية ، مروراً بمعاناته وصراعاته ووعيه ونضجه وحساسيته وقدرته على التأمل ! .**

وإذا كان للكاتب أن يطلب شيئاً من قرائه ، فإنه يلتمس منهم أولاً العفو عن أخطائه ، ثم يشاركهم ببعض خبراته التى يلخصها فى النقاط التالية :

- إتخذ لنفسك مبادئ صادقة نابعة من قناعتك ، فهى وحدها التى تبقى ! .
- لا تتخذ مبدأ لإرضاء أحد ، أو لإرضاء كبريائك ، أو لتنال إستحسان الناس . وتذكر أن المبادئ أشياء نحيا بها ، وليست مقتنيات نفخر بحصولنا عليها ! .
- لا تتعمد أن تتبنى المبادئ الشاذة لمجرد مخالفة الآخرين ، فليس ذلك سوى محاولة لتمجيد الذات على حساب الأمانة والحق ! .
- المبادئ قيم روحية ، فلا تتحول عن جوهرها الخفى إلى شكلها الظاهر ! .
- إذا تمسكت بمبادئك فأحذر أن يقودك ذلك للكبرياء والترفع ! .
- لا تجعل التمسك بمبادئك مبرراً للتعصب والعناد وركوب الرأس والقسوة والصلف وإدانة الآخرين أو حتى تجنبهم ! .
- المبادئ قوى حية متجددة ، فأفحص مبادئك القديمة فى ضوء النور المتجدد الذى تحصل عليه ، فإذا لمست خطأ فارجع إلى الصواب ! .
- يقول الفلاسفة : إن المبدأ المطلق الذى ليس قبله مبدأ هو الله ! فإذا أردت أن تبدأ من منطلق سليم ، فليكن الله مبدأك ! .

وإلى القارئ العزيز خالص محبتى

نون عين

١ - مبادئ إنسانية ..

الرخاوة لا تمسك صيداً ،
أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الاجتهاد

هذه الكلمات التى نقدمها اليوم كأحد المبادئ الإنسانية كتبها الحكيم سليمان منذ حوالى ثلاثة آلاف سنة ، ونحن نعيد إلقاء الضوء عليها اليوم باعتبارها تشكل مبدأ صريحاً يدعو بحزم للجدية فى العمل ، والصلابة فى العزم .

قالوا عن العمل :

- هولاند : " البطالة ليست حق من حقوق الإنسان ولو كان قارون زمانه فى الغنى " .
- من أمثال سليمان الحكيم : " العامل بيد رخوة يفتقر أما يد المجتهدين فتغنى " .
- جورج صاند (روائية فرنسية ١٨٠٤ - ١٨٧٦) : " إذا لم أجد طريقى فى الأرض المعبدة - فسأقتحم القمم الصخرية الشاهقة دون تذمر ؛ لأننى أعلم أن كل جهد يتضمن فى ذاته الجزاء الكافى عنه ، وأن الآفاق الواسعة تنتظرنى فى آخر الطريق ! " .

فى ساعة مبكرة من صباح يوم بارد بولاية " كنساس " الأمريكية - خرج طفلان من منزلهما يسرعان السير إلى مدرسة القرية .. وكان عليهما أن يصلا إليها قبل جميع التلاميذ ؛ فقد كانا مكلفين بإشعال النار فى المدفأة التى تزود المدرسة بالحرارة .

وقد تعود الطفلان أن يقوما بهذا الدور بسعادة بالغة : فبالإضافة لما كانا يحسان به من أهمية هذا العمل - كان يدر عليهما قليلاً من النقود التى تسعد حياتهما الرقيقة ! .

وكانت بعض السيدات قد إجتمعن فى الليلة السابقة فى المدرسة ، وإستعملن البنزين فى إشعال المصابيح ؛ ثم ألقين ما تبقى فى خزان المدفأة .

لذلك فعندما أتجه الصغيران فى براءة الأطفال إلى المدفأة وضغطا - كما تعودا - على صمام الخزان ليقذف الكيروسين فى حجرة النار - فإن الكيروسين لم ينطلق ، بل أنطلقت ألسنة النار المشتعلة من إنفجار خزان البنزين ، وفى لحظات خاطفة تحول الطفلان البريئان إلى قطعتين ملتهبتين ! .

ومع أن الطفلين عرفا طريقهما إلى خارج الغرفة فإن النار الحارقة أودت بحياة أحدهما . أما الطفل الآخر فقد إلتهب جسده بالحروق ، وأصيبت ساقاه إصابات شديدة .

قال الطبيب : إن حالة الطفل سيئة للغاية ، وإنه سيضطر آسفاً لبتر ساقيه إذا ساءت حالته أكثر ، وخاصة أنه من المستبعد أن يتمكن الطفل من المشى فى المستقبل ، هذا لو قدر له أن يعيش ! .

أستمر الطبيب يتردد ويعالج الصغير إلى أن تحسنت حالته نسبياً ، وأراد الطبيب أن يُدخل السرور إلى قلبه ، فقال له :

"عندما يتحسن الطقس - سأضعك على كرسى هزاز وأجلسك فى الشرفة " ، لكن الطفل إستاء جداً وقال : " لن أجلس أو أحمل على كرسى هزاز ، بل سأمشى على قدميَّ ، بل أركض أيضاً ! " .

وتألم الطبيب وأشاح بوجهه بعيداً ؛ فقد كان يعلم أنه لن يستطيع المشى مدى الحياة ! .

غير أن الذى حدث بعد ذلك صار ملحمة من ملاحم الكفاح ! . فقد إستطاع هذا المكافح الصغير بالجهد والعرق والمران المستمر وتدليك العضلات المصابة فى أناة وصبر شديد - إستطاع أن يبث الحياة فى الساقين اليابستين ! .

وعندما زاره الطبيب بعد ستة أشهر من الحادث المشئوم - دهش وهو يراه متجهاً نحوه سائراً على قدميه ! . والحق أنه لم يكن يمشى بالمعنى المفهوم ، بل كان يشبه الى حد بعيد أرنباً يقفز على رجل واحدة مع قليل من العرج . وقهقه الصغير ضاحكاً من دهشة الطبيب ، وقال له بإعجاب :

" أما قلت لك : أننى سأمشى - وهأنتذا ترى ؟ لكنك فى المرة القادمة سترانى أركض أمامك ! " . وقال الطبيب فى نفسه : هذا أمر بعيد الإحتمال ! .

بعد سنتين إثنتين - شاهد الطبيب والجيران الصغير " جلين " يركض فى الشوارع ! . والواقع أنه كان يركض أينما ذهب وكيفما توجه ، إذ إن عرجه كان يجعله يسرع دون أن يقصد .

ومع أن ما حققه هذا البطل الصغير يعتبر انتصاراً ساحقاً على اليأس والإستسلام ، ورفضاً للهزيمة أو الإستكانة - فإن الذى حدث بعد ذلك يعتبر أنموذجاً خارقاً للإجتهاد الذى يفوق التصور ! .

لقد إستطاع جلين الذى كان كومة مشوهة أن يصبح - بعد ٢٢ سنة من الكفاح - الدكتور جلين كونجهام الأستاذ بجامعة كورنيل برغم ما تعرض له فى طريق حياته من مصاعب مادية طاحنة أضطر بسببها أن يعمل فى الحقول المجاورة ليجمع ما يمسك رمقه ، ويوفر له مصروفات الدراسة ! .

وكان نجاحه المثير فى عام ١٩٣٨ حينما إستطاع هذا القعيد لا أن يسير فقط ، ولا أن يجرى بل أن يصبح نجماً رياضيّاً مرموقاً ويسجل رقماً قياسيّاً عالميّاً فى الركض فى سباقات جامعة دارت ماوث ! . وأصبح إسمه على كل لسان كمثال للإنسان المعَوق الذى عرف كيف يتغلب بإجتهاد على كل الصعاب . وأصبح العاجز القعيد أستاذاً للتربية البدنية ! .

وقصة دكتور " جلين كونجهام " ليست النموذج الوحيد للإجتهاد ، وليس إصراره وصلابته أمراً شاذاً ، بل يمكن القول بأن الشذوذ الفعلى هو الإستكانة والإستسلام أو كما يسميه سليمان الحكيم **(الرخاوة) .**

والحقيقة أننا نفقد الكثير حينما نتوانى فى العمل ونضيع الوقت أو نبدد الطاقة ، ونحن بذلك نشبه إنساناً ثرياً ينفق ماله بإسراف وإستهانة إلى أن يفتقر ! .

إن أكثر الناس اليوم راغبون فى إتخاذ الطريق الذى يخلو من المقاومة ، وأن يبذلوا فى الحياة أقل الجهد وينتظروا أكبر الجزاء ! . وهذه ظاهرة غريبة نراها فى هذا العصر : فالعامل أو الموظف يريد أن يحصل على أكبر قدر من المال - مقابل أقل كمية من العمل ! . ونحن بذلك نتجه إلى الرخاوة (أى الحد الأدنى من الجهد والإبتكار !) .

إن الخطأ الكبير الذى يقع فيه إنسان هذا العصر هو أن يظن أن العالم مدين له بتوفير العيش ، مع أن الواقع هو أننا مدينون للمجتمع البشرى بالجهد والاجتهاد !

ولعل من اللائق بنا كشباب ناضجين أن نضع أمامنا بعض أسس النجاح :

- قم بواجبك - دون مناقشة دور الآخرين من حولك .
- تمم عملك - حتى آخر خطوة فيه أو فيك .
- أحسن صنيعك - وأخرجه فى أفضل صورة يمكن أن تصل إليها بكل طاقاتك ومواهبك .
- قاوم ضعفاتك - وأصنع منها منطلقاً لنجاحك .

- وقبل كل ذلك :

- إعتمد على الله - ليحقق قصده فى حياتك .

إن الحياة التى نحياها إنما هى بجملتها " دعوة من الله " لعمل معين ، قد سبق أن أعده لك ؛ كما أعد غيره للشمس والقمر والأفلاك : فلكل إنسان مهمة يكملها ودورٌ يقوم به وخدمة يؤديها ، وأنت عندما تتراخى فى أداء دورك فإنك تفسد القصد من وجودك .

فالرخاوة ليست سوى أثر من آثار الضعف الذى أصاب الإنسان منذ سقوطه - ومنذ حاول أن يشق طريقه منفصلاً عن الله .

إن الفرق بين أداء العمل كمجرد عمل ، وبين أدائه كتتميم لقصد الله فى حياتك - كالفرق بين من يرفع حجراً ثقيلاً بيديه ، ومن يرفعه بآلة رافعة ! . فلماذا تثقل كاهلك ، وتخاطر بنجاحك ؟ .

أقبل ما بين يديك من عمل فى روح الشكر لله ، ولتؤده لا كمنْ يُرضى الناس ، بل كمَنْ يُرضى الله الذى يستطيع أن يتوج حياتك بالنجاح الذى ترجوه - وأكثر من ذلك كثيراً .

٢ - مبادئ إنسانية ..

محبة المال أصل لكل الشرور

فى إحدى القرى الهادئة تزوجت الفتاة الصغيرة ، وإنتقلت إلى بيتها الجديد ، لتعيش مع أسرة زوجها ؛ وكان هذا الزوج - كغيره من رجال القرية - محدود الدخل قليل المورد ، لا يملك سوى أربعة قراريط من الأرض يقوم على زراعتها مع أخ له يشاركه فى قسوة العيش .

ورزق الزوج والزوجة إبنتهما الأولى ، فسعدت بها الأم كثيراً ؛ إذ كانت تخشى ألا تنجب ذرية من زوجها الكهل ، فيظفر شقيق الزوج بنصيب كبير من القراريط الأربعة إذا ما توفى الزوج ، ولما رزقت الطفلة الأخرى إطمأن قلبها ، فقد حصلت على وريثتين ورفيقتين تؤنس كل منهما الأخرى دون حاجة لشراء " العرائس " التى يلعب بها الأطفال فى المدن .

ومرت الأيام والشهور ، والأم هانئة هادئة البال سعيدة فى دنياها التى تمثلت فى الطفلتَين والقراريط الأربعة . ولم يكن واضحاً حتى تلك اللحظة ولم يعلم أحد : أيهما كان أكثر قرباً إلى قلبها : الأطفال أو الأرض ؟ ولكن حرصها على كليهما كان واضحاً للجميع ! .

وإنتقل الزوج إلى رحاب ربه تاركاً قراريطه القليلة وحصاد جهده الذى كان قد إجتناه لتوه : خمسة أرادب من الحنطة ! .

وحزنت المرأة لمصابها كما تحزن كل النساء ، ولكنها سرعان ما إنصرفت بكل كيانها نحو الأرض التى أصبحت ملكاً خالصاً لها تتأملها على ضيقها ، فينشرح لها صدرها ، وتدور حول حدودها ، فيهنأ بالها وتستريح .

غير أن سعادتها سرعان ما شابها الخوف والتوجس حين جاء شقيق زوجها يطلب نصيبه من الأرض ؛ فقد كان على حياة زوجها يشاركه فى بعض العيش .

وتوجست الزوجة الشر فى أخى زوجها ، وإنخلع قلبها خوفاً من أن يظفر بجزء من القراريط الأربعة - فماذا عساها تفعل ؟ .

لو أن أكثر الكتاب خيالاً أراد أن يضع نهاية لهذه القصة ما خطر بباله قط أن

تنتهى بتلك الخاتمة الواقعية التى نشرتها جريدة الأهرام القاهرية من واقع سجل الحوادث " اليومية " :

فقد ذكرت الجريدة أن السيدة أستيقظت ذات صباح وكانت البنتان البريئتان راقدتين فى أرض الحجرة ، فحملت الأم فأس أبيهما ورفعتها فى الهواء وهوت بها على رأس إحداهما فلما رأت الهلع والإسترحام والعجز المقدس فى وجه إبنتها الصغرى عاجلتها هى الأخرى بضربة الفأس القاتلة ، ثم خرجت إلى الطريق مولولة تصرخ مدعية أن شقيق زوجها قتل البنتين ليرث الأرض .

ولقد عجبت أشد العجب حقاً لهذا العمل الشائن ؛ فما كنت أظن أن يصل حرص المرأة على إمتلاك الأرض وتعلقها بالقراريط الأربعة إلى حد قتل أولادها وهى الأم مصدر الأمن ومنبع الحب والحنان ! .

كنت أعلم أن بعض الناس يمكن أن يمدوا أيديهم إلى ما لا يملكون ، فيتلذذوا بالمال الحرام ، وتتسخ أيديهم بالسرقة ! . وربما تعذرت السرقة فى هدوء ، فتتصاعد الجريمة إلى القتل من أجل المال ، وهذا شئ سيئ للغاية .

أما أن تبلغ شهوة الإمتلاك ومحبة المال حد قتل فلذات الأكباد - فهذا غاية الشر والجرم ! . لذلك أوحيت لنفسى أن هذه السيدة نموذج شاذ لا يتكرر ، وإسترحت لذلك ، إلى أن قرأت بعد ذلك بأيام قليلة قصة الأب الذى سكب الكيروسين على إبنته وهى نائمة وأشعل النار فى فراشها تهديداً وإنتقاماً من زوجته التى رفضت أن تعطيه بعض المال الذى إدخرته لحاجة البيت ؛ ليلعب به الميسر أو ينفقه على ملذاته ! . وتذكرت قول الحكيم : **محبة المال أصل لكل الشرور ! .**

محبة تورث القلق

تحدث رجل من أصحاب الملايين هو **" أندرو كارنيجى "** (١٨٣٥ - ١٩١٩) فقال : **يظن بعض الناس وبخاصة الفقراء أن المال مفتاح السعادة ، لكنهم فى الواقع يرون جانباً واحداً فقط ، أما أنا وقد عشت حياة الفقر وحياة الثراء فإننى أؤكد أن أصحاب الملايين نادراً ما يبتسمون ! لقد ولدت فى الفقر ، ولا أتنكر لذكرياته المقدسة ، وخبرتى تقول : إن الإشتغال بالمال يحطم الإبتسامات على شفاه الموثرين ! .**

من القصص الطريفة ما يروونه من أن رجلاً كان يملك جوهرة ثمينة يحتفظ بها ببيته ، يسهر الليل على حراستها ، ويحملها نهاراً بين يديه ونصب عينيه أينما سار ! وكان هناك رجل فقير يسكن على ناصية الطريق الذى إعتاد صاحب الجوهرة المرور فيه ، فكان كلما رآه قادماً إنحنى أمامه وحياه كثيراً ، وقدم له الشكر الجزيل . فتعجب الرجل صاحب الجوهرة لذلك وقال : يارجل ، لماذا تشكرنى هكذا وأنا لم أقدم لك درهماً واحداً ؟ ، فقال له : إنك تفضلنى على نفسك ففى كل صباح تمتعنى بمشاهدة جوهرتك الرائعة دون أن أتعب مثلك فى حملها ودون أن أسهر مثلك فى حراستها ! ، وقد وفرت علىَّ القلق خوفاً من ضياعها ، على حين إرتضيت لنفسك الخوف والقلق ! .

قال جون روكفلر : إن الثراء الفاحش عبء ثقيل يحطم البهجة الصادقة فى الحياة ويطرد السلام من القلب ! .

وعاء مثقوب

قال أحد أصحاب الملايين قبل وفاته : **ماذا لى من خير فى هذه الأموال الكثيرة ؟ إننى لا أستطيع أن آكلها أو أشربها أو أنفقها ! ، ولم أمسكها فى يدى لحظة واحدة ، بل إننى لم أرها قط ؛ فهى دائماً فى يد غيرى يستخدمها من دونى ! ، وأنا لا أرتدى خيراً من سكرتيرى الخاص ، ولا أستطيع أن آكل مثل سائقى ! .**

إنها شهادة رجل ، وضع ماله فى وعاء مثقوب ! .

نوع غريب من الفقر

وصف كاتب سويدى أحد الفلاحين فقال :

كانت أفكاره صوراً مجسمة من الفضة والذهب والعملات والمصارف والودائع وأكوام الحنطة ومراعى البقر ومزارع الخيول حتى أصبحت هذه الصور كسحابة تغطى كل شئ ، وتعمى عينيه عن جمال الطبيعة وبهجتها ! ، فكان إذا حاول أن يقرأ سطراً فى جريدة ما إندفعت الصور إلى عقله كأسراب النحل تغطى وجه الجريدة ، فلا يقرأ إلا أسعار السوق ! . لقد كان الرجل فقيراً بروحه أكثر مما هو فقير بماله ! . فمن يردّ أن يملك المال دون أن يمتلكه المال فعليه أن يكون غنياً

بروحه أولاً . وإلا وجد نفسه فجأة ضحية نوع غريب من الفقر ! .

أو كما قال أحدهم : **إن الدرس الأعظم الذى تعلمته من الحياة هو أن من يضع قلبه ويركز فكره فى المال يحس دائماً بخيبة الأمل سواء حصل على المال أو لم يحصل عليه ولذلك فالشبه كبيراً جداً بين الفقير الذى يتشوق إلى المال ، والغنى الذى يحب المال ويجعله إلهاً له ! . فكلاهما يقضى حياته الجائعة فى التطلع الدائم والشوق واللهفة الشديدين ! .**

محبة المال تضيع الحياة

من بين ما كشفت عنه الحفائر فى أطلال بومبي - هيكل عظمىٍّ لسيدة دهمها البركان المدمر وهى تحاول أن تجمع جواهرها فلا هى نجت بحياتها ولا هى أنقذت كنزها من الضياع ! .

ولعل هذا ما تفعله محبة المال دائماً ، لذلك قال حكيم يدعى وليم برايان : **" من كان همه جمع المال يصرف النصف الأول من حياته فى جمعه والنصف الآخر فى حراسته "** . وقال فننج : **" الأموال أشواك ! " تلمس ، ولا يجلس عليها طلباً للراحة ! .**

هل جمع المال يؤمن المستقبل ؟

من القصص الرائعة فى تراثنا العربى قصة اللقاء بين هارون الرشيد وهو فى أوج مجده والبهلول وهو فقير معدم : فعندما أمر الرشيد له بجائزة ردها إليه وهو فى حاجة لها ! . فقال الرشيد : إذن فنجرى عليك رزقاً يقوم بك . فرفع البهلول طرفه إلى السماء وقال : يا أمير ، أنا وأنت عيال الله ؛ فمن المحال أن يذكرك وينسانى ! .

لا تضع ثقتك فى غير الله واحذَر من محبة المال . لا تصنع لك كنزاً فى الأرض ، لأنه حيث كنزك يكون قلبك أيضاً ! .

٣ - مبادئ إنسانية ..

الشرير كالبحر المضطرب
لأنه لا يستطيع أن يهدأ

الشجرة المغروسة عند مجارى الماء لا تذبل ، أوراقها شامخة عزيزة تبقى . تضطرب من حولها الأمواج وتتقلب ، وتظل هى راسخة فى كبرياء .

لكن الأوراق الذابلة الصفراء تسبح فوق الماء ، تعلو إذا علت الأمواج ، وتهبط إن هبطت ، ولا تملك من أمرها شأناً .

والجرار الفارغة على سطح الماء تتصادم وتتكسر ، لكن أشجار الخير تحفظها جذورها الضاربة فى العمق .

وقلب الأشرار جرار خاوية ، لا يملؤها سوى الهواء الفاسد ، لذلك يضطرب الشرير ، ولا يستطيع أن يهدأ . تتصادم آنية الشر ، ترفعها أمواج الغضب ، وتيارات الخصام ، وتلقيها فتتصدع ، لكن صناديق الذهب وكنوز التاريخ تبقى راسية فى الأعماق بعيدة عن أمواج السطح الهوجاء .

فإذا كنا نرى فى كل ساعة من ساعات النهار صورة جديدة من صور الصراع الدامى بين أفراد البشر ونقرأ على صفحات الصحف قصصاً آدمية أكثر ضراوة من قصص الغاب . على حين لا نكاد نسمع للخير صوتاً - فإنما ذلك يرجع إلى أن الأشرار فى الأرض يعيشون حياة مضطربة فيعلو ضجيجهم وتتصادم قواتهم وتتكسر ، ولا يستقر لهم أمر ؛ لأن جوفهم فارغ من قيم الخير .

والقتل والسلب والنهب والجشع والقسوة والفجور ، والخلاعة والإستهتار والعصيان والتمرد إلى غير ذلك ألوان الشرور - ليست جميعها سوى أصوات جرار فارغة تتكسر فوق تيارات الحياة اليومية .

قلب الشرير فارغ من الحب

تمثل موجات القلق التى يتعرض لها الأشرار سبباً رئيساً لما يحسونه من

إضطراب ، لذلك نجد أن الشرير لا يبنى لنفسه قاعدة من العلاقات الطيبة ، الروابط الراسخة ، بل على العكس من ذلك تماماً فإنه يختار لنفسه مواقع منعزلة ! .

إنه لا يبنى المعابر (الكبارى) لكنه يبنى الحواجز ويقيم الجسور ، ويعلى الأسوار ويشيد القلاع والحصون ! .

إنه يحس بالإضطراب قبل أن يأتى الموج ، إنه بحر هائج حتى لو هدأت كل الأمواج ! . إن قلبه مخزن للبارود ، فيظل تواقاً للعداء نزّاعاً للخصام ، ويبقى مضطرباً ما بقى قلبه خاوياً من الحب إلى أن يلقى حتفه ببارود نفسه ! .

من المشاهد المؤثرة أن ترى فى بعض المناطق الصحراوية هيكلين عظميين لرئمين (نوع من الغزلان) تشابكت قرونهما . وقصتهما معروفة ومتكررة : فهذا الحيوان الرشيق الجسم يحمل فوق رأسه شبكة من القرون المتفرعة بما يشبه الشجرة الجرداء ، وهو كثيراً ما يستخدم هذه القرون الكثيرة فى إيذاء أعدائه ، فإذا حدث أن لاقى واحداً من أبناء فصيلته فإنهما يتعاركان ويتناطحان إلى أن تتشابك قرونهما بصورة يتعذر عليهما فصلها ، فلا يصبح أمامهما - وهما الخصمان - إلا أن يلقيا مصيراً واحداً هو الموت جوعاً ! .

ومن البشر من يحمل فوق رأسه قرون الرئم ! . فهو تواق لإستخدام العنف ومعاداة الناس ، وتستطيع أخف موجة من موجات الغضب أن تدفعه للإحتكاك بالآخرين ولو أدى به ذلك للضرر المحقق .

وما أتعس تلك الرءوس التى تحمل قروناً أكبر مما تحمله من المخاخ والعقول ، إنهم يضطربون كالبحر الهائج ، لأنهم جرار فارغة من الحب ! .

قلوب الأشرار أشجار جافة خالية من الثمر

فوق قمم بعض الجبال تعيش قطعان الماشية ذات القرون الغليظة الضخمة ، ولا تكاد تقترب منها حتى تسمع قرقعة القرون ، فهذه القطعان تقضى غالبية الوقت فى التناطح والتقاتل ، وهذه الماشية نحيلة هزيلة ضعيفة ، لا فائدة ترجى منها أو لها ، على حين تحيا فى الوديان هذه الفصائل نفسها من الماشية بفارق واحد هو خلوها من القرون تقريباً ، وهى على النقيض من نظائرها المقرونة . ماشية ذات لحم وصوف ولبن ! ، فقد احتفظت أجسامها بالخير فى حين أضاعت الأخرى خيرها فى الصدام والصراع ! .

إن حياة الأشرار أشجار جافة بلا ثمر - ولا غطاء أو وقاء . إنها عرضة للفحات الشمس أو تيارات الهواء .

إنهم كالعصافة التى تذريها الريح ، فتعلو وتهبط مع كل العواصف .

والشرير كالبحر المضطرب ؛ لأنه فارغ من الثمر ! .

فى إحدى القرى مجموعة كبيرة من أبراج الحمام ظلت عامرة لسنين طويلة ، لكن خلافاً دب بين عائلتين فى القرية ، دفع بهما إلى الشجار المستمر وتبادل إطلاق النار للتهديد والتخويف ، فإنزعجت الطيور الوادعة ، ورحلت عن أبراجها ، وإختفت أسرابها بعد أن وجدت لها مقراً هادئاً .

فأبراج الأشرار خاوية فارغة ، إنهم جرار فارغة من الوداعة والتسامح ، تسوقها تيارات الحقد ، فتعلو وتهبط كالبحر المضطرب ولا تستطيع أن تهدأ ! .

وتجارة الشرير خاسرة

هناك مثل برتغالى يقول " : من يذهب إلى المحكمة يربح قطة ويخسر بقرة ! " .

وهو مثل يقصد به أن العائد المادى من وراء المشاحنات لا يساوى شيئاً إذا قيس بما يلازمها من تأثيرات نفسية ضارة .

ومع أن هذا المثل قد لا يكون صحيحاً فى كل الأحوال فإنه ينطبق على حياة الأشرار تماماً : فالذى يظن أنه بشره ومكره قد حقق كسباً كبيراً مخطئ فى ظنه : **فتجارة الشرير خاسرة حتى لو بدت رابحة ، إنه يربح القليل من ماديات الحياة ؛ ليخسر الكثير من سلام القلب وهدوء النفس . فيظل تعساً مهما جمعت يداه ! .**

وتجارة الشرير خاسرة ؛ لأنه لا يحمد الله على كسبه ، إذ إنه يرجع ذلك لحنكته وفهمه ، وهو لا يغفر لنفسه أو لمنافسيه إذا خسر . بل تدفعه أحقاده لمزيد من الإضطراب وتحمله تيارات نفسه الهائجة ، فتقذف مياهه حمماً وطيناً .

الشرير يحارب نفسه

كما تتلاطم أمواج البحر وتتصادم هكذا يفعل الأشرار : فهم يمزقون أنفسهم من

الداخل إنهم يفتتون الجسور التى تحميهم إنهم يضحون بأشيائهم الثمينة فى سبيل نزواتهم النجسة ، فالشرير فى حماقته كمن يحرق بيته ليقتل فأر ! .

المعروف عن العصفور الهندى أنه يحارب حتى أبناء جنسه ، ولا يكف عن ذلك أبداً وقيل : إن أحد هذه العصافير رأى صورته فى مرآه فاقترب منها ، وظل ينقر الزجاج حتى المساء وهو لا يعلم أنه يحارب نفسه ! . وقد نجد للعصفور عذراً ، لأن له عقل عصفور وإدراك وأحلام العصافير ! . **لكننا نأسف للإنسان الشرير عندما يحارب نفسه ، ويفعل الشر الذى يحطمه .**

إن الشرير كالجرار الفارغه من الحكمة الشاردة فوق مياه بحر مضطرب لا يستطيع أن يهدأ ! .

حياة الأشرار جوفاء خالية من التواضع

كما تفعل شوكة رفيعة ببالون كبير منتفخ بالهواء - كذلك تفعل الخلافات البسيطة بنفس الشرير ، فقلبه ممتلئ بالكبرياء ، منتفخ بالغرور ، لذلك فهو كرجل دائم الغليان ، يكفى أن ينفتح من أى جانب حتى ينفث النار والدخان ثم يتمزق إرباً ! .

الشرير يضطرب لأنه كالجرار الفارغة من التواضع ، لا تستطيع أن تهدأ حتى تمزقها الأمواج .

ما خفى كان أعظم

عندما يضطرب البحر وينقلب هدوءه إلى ضجيج ، وتعلو أمواجه وتتصادم - فإننا لا نرى بذلك سوى ظاهر الأشياء . لكن ما خفى أعظم من ذلك كثيراً .

إنه الإضطراب الداخلى فى عمق البحر ، الثورة التى لا تراها العين حين تضطرب أحشاء البحر ، فيتمخض عن غضبة مروعة مدمرة لا نرى منها سوى بعض الظواهر السطحية .

وهذا يفسر ما يحيط بحياة الأشرار من الإضطراب الحقيقى الذى لا يستطيعون إيقافه أو التحكم فيه ، ذلك لأن ما يبدو على سطح حياتهم من أعمال وأقوال وليد هيجان طبيعة الشر فى أعماقهم ! .

فالأشرار مشحونون خصاماً ومكراً وسوءاً وهذه الشحنات تلد أعمالاً تناسبها ، ونحن حين نرى الشرير مضطرباً هائجاً فإنما نراه يحمل إبناً شرعياً لطبيعته الفاسدة ! .

كيف تهدأ الحياة المضطربة ؟

لو أردنا أن نلخص حياة الشرير - أمكننا أن نقول :

إنها حياة تذمر وخصام ، تذمر على الله الخالق وخصام مع البشر ، ولأن الإنسان لا يقدر أن يحارب كل الناس أو يتطاول على خالقه - فهو لذلك يظل كالبحر المضطرب تقذف مياهه حمأة وطيناً ! .

ولكى تتغير الصورة الظاهرة فى سلوك الإنسان وتختفى إضطراباته وهيجانه المرنى لابد أن تتغير أعماقه ، وتتبدل طبيعته ، فيتحول تذمره إلى رضا وخصامه إلى حب . وليس من يستطيع أن يقول للبحر الهائج اهدأ فيهدأ سوى الله الخالق الذى صنع السماء والأرض ، ولا يستطيع أن يجعل القلب المظلم منيراً سوى الله الذى يغير القلوب والطبائع .

فإذا كنا نريد أن يهدأ البحر المضطرب ، وتختفى عن سطح حياتنا ما فيها من شر وظلم وقتل وسلب وفجور وطمع وحقد وضغينة وأنانية - إذا كنا نريد أن ندفع عن وجوهنا كتل الطين والحمم التى يقذفها البحر الهائج - فلنطلب من الله - عظمت قدرته - أن يطهر قلوبنا ، ويغير طبائعنا حتى يتحول إضطرابنا إلى هدوء وسلام .

ربنا

يا من يطيعك الموج والريح والبحر ،

مولاى العالم بمكنون القلب وخفايا

الأعماق ،

غير قلوبنا وأعماقنا ، فيهدأ

وجه الحياة المضطرب .

آمين .

٤ - مبادئ إنسانية ..

لا تكن بين شربي الخمر والمتلفين أجسادهم

لم يكن الرجل الطيب يعلم ما تخبئه الأيام حين وافق على زواج إبنته المحبوبة من أحد مشاهير المحامين الشبان فى شمالى أوروبا .

والحقيقة أن ما أحاط حياة الأسرة الناشئة من مظاهر الترف كان يبشر بحياة سعيدة . وقد ظلت هكذا لبضع سنوات ، إلى أن جاءت تلك الليلة المشئومة التى دخل فيها الزوج إلى بيته فى ساعة متأخرة من الليل - وكان الجو داخل البيت قارس البرودة على حين إشتدت العواصف ، وغطت الثلوج شوارع المدينة .

وفى تلك الساعة كانت الزوجة الشابة جالسة أمام المدفأة تحمل طفليها محاولة أن تقيها خطر البرد القارس ، ودخل الزوج وألقى معطفه ، ثم نظر إلى زوجته قائلاً :

" إطمئنى سأحل هذه المشكلة سريعاً ، أقسم بشرفى أن أجعل البيت دافئاً جداً فى خلال لحظات قليلة ! " .

ولا يعلم أحد كيف إستطاع الرجل فى دقائق محدودة أن يحيل البيت كله إلى كتلة من النار التى أمتدت السنتها لتلتهم كل شئ فى المنزل . وإنطلقت الزوجة مذعورة وهى تحمل ولديها على ذراعيها خارج البيت .

وفى ليله كتلك يصعب أن يلقى المرء إنقاذاً سريعاً وخاصة فى بقعة نائية تحيطها المرتفعات وتتباعد المنازل كثيراً . ولا غرابة أيضاً أن تسقط الزوجة الشاردة بحملها الثقيل فوق الجليد المتراكم على بُعد ربع ميل فقط من المنزل فى ظلام الليل الدامس .

ومع أن يد الموت الباردة إمتدت إلى الأم وطفليها جميعهم . فإن الألم الذى كان واضحاً على وجه الأم يؤكد أنها شهدت اللحظات الأخيرة فى حياة طفليها ، ورأتهما ينازعان الموت ، ويلتمسان النجدة والعون من يديها العاجزتين ! .

وما أتعس الزوج واقفاً فى الصباح يرى زوجته الحبيبة جثة هامدة يغطيها الثلج

وما أضيع الأب وهو يرى فلذات كبده بوجوه باردة بيضاء ، وشفاه صامته زرقاء ، وعيون جامدة شاكية ! .

وما أخيب هذا الزوج التعس وهو يرى بيته الذى كان عامراً وقد بات خرباً لا يملؤه سوى الرماد ! .

وبأى لسان يستطيع هذا المحامى الناجح أن يدافع عن فعلته الشنعاء وهو يتذكر ما فعلت به كئوس الخمر التى تناولها قبل دقائق من عودته للبيت .

ومع أنه كان يستطيع أن يلقى باللائمة على أصدقائه الذين أخذوه إلى الحانه ، فإن ذلك لم يكن لبعيد ما كان ! .

كان لابد أن يدفع ثمناً لنزواته لا تعوضه الأيام ! .

الذين ينزلون عن عقولهم !

منذ حوالى ٢٨٠٠ سنة كتب الشاعر الإغريقى الشهير " **هوميروس** " قولته الشهيرة عن الكحول : " الخمر يبلد العقل الذكى " وهى عبارة فيها إجتهاد كثير ، وربما كان من الصعب عليه فى ذلك الوقت أن يدلل عليها علميّاً ، لكن هذا الفكر أصبح اليوم يقيناً بما أضافته الدراسات العلمية ، والإختبارات المعملية .

فقد أصبح من اليقين اليوم أن للخمر تأثيراً خطيراً على المراكز العصبية فى المخ ، حيث تنبهها إلى حين ، ثم لا تلبث أن ينعكس فعلها ! فيحدث خمول فى هذه الأعصاب ينتهى بتخديرها ويعطل عملها .

ويقع تأثير الكحول على مراكز المخ الراقية العليا مثل ما يختص بالخجل ، والخوف والحكم على الأشياء ، فترى شارب الخمر قد إنعدمت عنده فضيلة الحياة والمروءة فينطلق لسانه بألفاظ ما كان يمكن أن يتفوه بها لو كان حافظاً لقواه العقلية ، وتصدر عنه حركات مضحكة ما كان يأتيها لو كان فى وعيه ! .

إنه عندئذ حيوان مهينٌ مستهترٌ بالكرامة والخلق ، معرضٌ للوقوع فى الرزيلة والفساد ، فاقد الإحساس مختل العقل .

ولا عجب إذن أن الإختلاط العقلى الناشئ عن شرب الخمر يعرفه الأطباء بإسم " الجنون الكحولى " .

فى مقـال كتبه العالمان الإنجليزيــان " مارنيسكو وبوليان " - ذكرت الجريدة الطبية البريطانية أنهما وجدا الكحول فى النخاع الشوكى لبعض شاربى الخمر بعد ثمانية أيام من تعاطيها . وأمكنهما فصل الكحول من جثة أحد السكارى بعد تعفنها . **وإستدلت الصحيفة من ذلك على عظم تغلغل الخمر فى جسم الإنسان وهذا يؤثر بطبيعة الحال على علم المرء وإدراكه ، وفى شعوره وإحساسه وعمله : فشارب المسكرات لابد أن تتأثر معارفه ولو كان عالماً ، فلا يعود يدرك حقيقة الأشياء القائمة ، وقد يسمع أصواتاً غير موجودة أو يتخيل أشخاصاً وهميين ، أو يفقد الذاكرة تماماً كما يحدث فى الهستيريا .**

أما مشاعر السكير فهى أيضاً تتأثر إلى حد خطير ، وقد تصل بصاحبها إلى حد القتل أو الإنتحار ! .

وهناك مرض أخر يسببه شرب الخمر يسمى مرض " كورساكو " ومن أعراضة فقدان الذاكرة فى الحوادث القريبة مع إضطراب فكرى ، فيتخيل المريض أنه يعيش فى عالم آخر ، ويذكر أشياء لم تحدث ويختلق القصص الوهمية حول مغامراته ! .

وقد يصل تأثير الخمر على العقل لدرجة الجنون الخطر مما يسلبه صفاته الإنسانية وذلك عندما يفقد المخ وظيفته ، ولا تكون النتيجة إلا الإختلاط العقلى أو الموت .

بينما كان أحد الأثرياء يحتفل مع أصدقائه فى إحدى المناسبات الخاصة تسلل إلى غرفة الطعام قردان كان صاحب الدار يحتفظ بهما فى الحديقة المجاورة .

وكان المدعوون قد تركوا بعض الخمر فى كئوسهم فوق المائدة ، فأسرع القردان نحوها ، وأفرغوها فى جوفهما على نحو ما رأيا الضيوف يفعلون ! . ولم يمض وقت طويل حتى لاحظ الجميع أن القردين يصخبان ويقلدان صاحبهما وضيوفه ! . وما أسرع ما سكرا ! .

وبدأ هذا يثب إلى هنا ، وذلك إلى هناك وأخيراً إلتحما فى عراك شديد ، وبدأ كل منهما يقطع شعر الآخر منذهلاً ؛ إذ لم يعهد فى قرديه العاقلين مثل هذه الأعمال

الشيطانية الطائشة لكن الخمر أتلفت عقليهما .

وكم من الجرائم يرتكبها شاربوا الخمر الذين ينزلون عن عقولهم ! .

هنـاك مثل يوغسلافى يقول : " صباح الخير أيها الويسكى ، مع السلامة أيها العقل " .

إتلاف العقل

إذا كان شارب الخمر يودّع العقل إلى حين ـ فليس عجيباً أن يمزق ثيابه ، أو يتلف جسده ، لأنه إذا كان الرأس مريضاً فإن الجسد كله يناله الأذى .

وشارب الخمر يعلم مسبقاً أن الكحول يغيب العقل ، وقد عرف ذلك من خبراته المتتالية لكن الكثيرين يجهلون ، أو لا يدركون تماماً ما تفعله الخمر بباقى الجسد .

ولعل المعدة والأمعاء والكبد أكثر الأعضاء عرضة للإتلاف : فحين يتناول المرء مسكراً تتمدد جدران المعدة وترتخى ، وتقل إفرازتها ومقدرتها على الهضم ، وتحدث ضموراً فى غددها ، مما يسبب سوء الهضم المزمن ، كما يزيد الكحول من الإفرازات الحمضية فى المعدة ؛ مما قد يسبب حرقان القلب والحموضة والقرحة المعدية .

أما الكبد فقد يتلف ويتضخم ويتشحم ، فيقل إفرازه ومقدرته على القيام بوظائفه المتعددة ؛ مما يقلل الهضم ويدهور الصحة ويسبب هزال الجسم .

وإلى جانب ذلك هناك الإضطراب فى التمثيل الغذائى ، وإضطراب إستهلاك الفيتاميتات ونقصها .

وثمة خطر آخر على أجساد المدمنين ـ هو ضعف المقاومة بصورة تجعل الجسم عرضة للجراثيم والعدوى .

والخمر لا تتلف الأجساد فقط ، بل قد تؤدى إلى الموت إذا حدث تسمم حاد ، وهو ما يحدث بعد تعاطى الخمر بكميات كبيرة ؛ إذ يصيب الشارب إعياء وإغماء مع خمول وطراوة وبرودة فى الجلد ، ويصحب هذا أيضاً إنخفاض فى درجة الحرارة وبطء فى التنفس وإتساع فى حدقة العين ثم زيادة فى ضربات القلب . وهذه الأعراض إذا إستمرت أكثر من ١٠ ساعات فقد يعقبها إلتهاب رئوى ، وإرتفاع فى

الضغط الداخلى بالمخ ، وهذه الحالة قد تؤدى إلى الوفاة .

والوفاة بسبب تعاطى الخمرليست نادرة إذا عرفنا أن الكحول يمكن أن يعطل مراكز التنفس والدورة الدموية جميعاً .

تعددت الأسباب والموت واحد

لعلنا نتساءل قائلين : لماذا يشرب الناس الخمر ما دامت تؤذى العقل و الجسد و النفس ؟ .

هناك إجابات عديدة أو حجج فالبعض يدعى أنها تدفئ ، والبعض يدعى أنها تساعد على الهضم .

ويرى فريق أنها تساعد على النوم ويزعم فريق رابع أنها تقوى الدم ، إلى غير ذلك من الإدعاءات التى يكذبها العلم ويفندها ، لكن السبب الحق أن تعاطى الخمر لون من الهروب من المواجهة ، إنها ملاذ الضعفاء الفاشلين الذين يدفعهم الشعور بالنقص إلى الإحتماء فى غيبة العقل وخمود الفكر ! .

وما يحسه الشارب للخمر من نشوة أو شهية للطعام أو دفء أو إسترخاء ليس سوى نتيجة لنقص السيطرة على الذات وتخدير لشعور الوعى ، ونقص فى النقد الذاتى والإهتمام بآراء الآخرين ، وتراجع نشاطات المخ التى هى أكثر أهمية وسمواً أمام النشاطات الدنيئة .

إن ما يسعى إليه شارب الخمر هو رفع الضوابط والكوابح والروادع التى يضعها العقل ، فتنطلق شهواته حين لا يدرى جوعاً أو شبعاً ، ولا يفرق بين خطأ أو صواب .

الطريق إلى الخلاص

إذا كانت هذه أسباب الإدمان على تعاطى المسكرات - فكيف الخلاص إذن ؟

لعلنا هنا نواجه أهم الأسئلة وأصعبها ، وقد حاول البعض وضع دساتير لسلوك الشاربين ، وقواعد علمية للإقلاع عن تناول المسكرات .

وهناك طريقة د . بيبوى وتتلخص فى :

١ - التحليل العقلى لشارب المسكرات وإنتزاع مخاوفه وشكوكه الدفين ، ومراجعة ماضيه مع خبير موثوق به .

٢ - إزالة التوتر نهائياً بالإسترخاء بدلاً من إزالته مؤقتاً بتأثير الخمر .

٣ - التأثير على العقل الباطن عن طريق الإيحاء ليعاون العقل الواعى فى خطة حكيمة للإقلاع عن السكر .

٤ - العناية بالصحة وممارسة الرياضة البدنية .

٥ - تدريب قوة الإرادة ، ووضع روتين يومى للعمل .

٦ - تجنب الأشراك غير المتوقعة - وعدم الإستسلام دائماً .

٧ - تدبير وسيلة للتعبير عن الذات : كأن يأخذ الفرد على عاتقه مسئولية العمل لأجل الآخرين .

ويختتم " بيبوى " برنامجه بالقول : تيقن أن القوة التى أدت إلى تحطيمك يمكن إذا توفر الصحو والتعقل أن تسير إلى ما هو أبعد من النجاح المتوسط : أى فى مقدورك أن تكون قوياً حيث كنت فى الماضى منهزماً ضعيفاً .

وهناك طريقة " المدمنين المجهولين " وهم جماعة من الذين تحرروا من تأثير المسكرات ، وأخذوا على عاتقهم مسئولية مساعدة المدمنين ، وقد أستطاعت هذه الجماعة أن تساعد الكثيرين . ووضعت خطة لذلك ، وهم يدعون المغلوب على أمره أمام الكحول أن يفعل الآتى :

١ - أعترف بعجزك عن ترك الخمر وأن حياتك أصبحت عسرة القيادة .

٢ - ثق أن هناك قوة أعظم منك تقدر أن تعيد إليك سلامة عقلك .

٣ - ضع إرادتك وحياتك رهن عناية الله .

٤ - قم بعملية فحص أو جرد أدبى لنفسك .

٥ - أعترف لله وللآخرين بطبيعة أخطائك على نحو دقيق .

٦ - كن على إستعداد على أن الله بفضله يزيل كل شوائبك الخليقة .

٧ - أطلب من الله أن يزيل نقائصك وتقصيرك .

٨ - ثق أن الله يشفى .

الله يشفى

هذا أيضاً مبدأ عظيم للإيمان فليس بين الحلول التى يضعها المنطق البشرى ما يمكن أن يشفى كل المدمنين ، لكن الله قادر أن يشفى الجميع .

قال الطبيب الفرنسى " **جورج برويل** " : إنه يستطيع أن يشفى المدمنين على الخمر فى ٣٦ ساعة فقط ، وأن يشفيهم شفاء تاماً بحيث يكرهون أن يذوقوا قطرة واحدة من الخمر طول حياتهم . وهو يستعمل فى ذلك مستخرجاً من الكحول يحقن به المريض فى الوريد حقناً متواصلاً مدة ٣٦ ساعة ، فيتشبع الجسم بمادة تجعله لا يطيق رائحة الخمر ، ولا يقبل مذاقها طول حياته .

وقد أعترفت كلية الطب فى باريس بهذا العلاج وسجلته فى بحوثها العلمية الممتازة .

أما الله فيشفى من الخمور والمخدرات وكل المكيفات فى الحال ، وبدون أن يدخل فى أجسادنا مادة غريبة قد تضرنا فى بعض النواحى الأخرى ، كما أن شفاءه كامل وبالمجان .

صرخة إنسانية

يا رب ،

يا من تستطيع أن تحرر الناس

- كل الناس -

حررنى من العادة المستحكمة

فأنا لا أستطيع أن أقلع عنها .

ولكنى أضع نفسى بين يديك ،

لتنقذنى ،

فأنهض قوياً بقوتك ،

فأطرح عنى حملى الثقيل ،
إنك على كل شئ قدير.
يا رب.

٥ - مبادئ إنسانية ..

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان

قالت " خضرة " فى عيد ميلادها الثلاثين بعد المائة :

أود لو أعيش مائة سنة أخرى ! .

وخضرة هذه سيدة معمرة تعيش فى إحدى القرى المصرية .. وهى تطالعك دائماً بإبتسامة شابة ، بينما تجلس سعيدة وسط أبنائها الإثنى عشر ، وأحفادها الكثيرين .

وتتمتع خضرة بحواسها كاملة ، لم تتساقط أسنانها ، وهى مازالت قادرة على ممارسة بعض نشاط فتيات الريف .

قال الأطباء إن سبب إحتفاظها بحيويتها كل السنين هو أنها نحيفة ، أما التجاعيد التى تعلو وجهها فإنها يمكن أن تكون فى وجه سيدة فى سن السبعين .

وتقول " خضرة " إن السر فى إحتفاظها بحيويتها وطول عمرها إنها تنام مبكراً وتستيقظ فى الفجر ولم " تشرب الدخان " طوال حياتها ، ولا تأكل النشويات كثيراً.

وأضافت خضرة أنها فى فترة شبابها الذى بلغ ٦٠ عاماً كانت تعتمد على أكل الخبز الجاف .

تقول خضرة أنها لم تمرض فى حياتها سوى ثلاث مرات ، كانت تعتمد على النعناع كالدواء الوحيد لها .

وعلى نفس هذا المبدأ عاش على أرضنا رجل من أقطاب الإنسانية الخالدين ، هو المهاتما موهنداس غاندى ، الزعيم الهندى العظيم ..

كان الرجل يقتات بالخضر الطازجة والمطهوة ، والفاكهة والبلح ، وعصيدة اللبن . ولم يأكل قط بيضاً أو لحماً ، أو سمكاً ، أو يشرب القهوة أو الشاى أو الخمور .

ولقد عاش غاندى هذه الحياة المتقشفة ، حتى بلغ الثامنة والسبعين . وهى سن موغلة فى الشيخوخة فى بلاد تقول الإحصاءات الرسمية إن متوسط العمر فيها ٢٧ عاماً ... وحتى فى ذلك السن ، فإن غاندى لم يمت لأسباب طبيعية ، فقد كان

الرجل يأمل أن يعيش حتى الخامسة والعشرين بعد المائة .. لولا أن أطلق عليه الرصاص وهو فى طريقه إلى إجتماع للصلاة ....

ومات غاندى ..

لكن المبدأ ظل حياً ،

فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

٦ - مبادئ إنسانية ..

مالك نفسه
خير ممَّن يملك مدينة

فى مدينة شارلستون بكارولينا الجنوبية عاش " الزعيم الشيخ " ، هكذا كانوا يدعونه دائماً - فقد عُرف عنه فى أثناء الحرب الأهلية هناك قدرته الخارقة فى التأثير على رجاله ، والسيطرة عليهم ، إذ كان الجميع يطيعونه طاعة عمياء ، وينفذون التعليمات التى يصدرها إليهم فى سرور وبطيب خاطر .

وهكذا عاش الرجل كريماً مهيباً ، مسموعاً ومطاعاً . فلما أنتهت الحرب ، أحتجب الرجل فى بيته بعد أن أتم دوره القيادى بنجاح ملحوظ ، وترك فى وجدان الناس بإختلاف عناصرهم أثراً محموداً .

وحدث يوماً ما أن قامت فى المدينة فتنة عنصرية جامحة ، تبعتها أحداث شغب عنيفة ، وفشلت السلطات تماماً فى السيطرة عليها . ومن وسط هذا الهياج الصاخب ، صرخ أحدهم قائلاً : " فلنستعن بالزعيم الشيخ ، إنه وحده القادر على ضبط الجماهير الثائرة " .

وبعد فترة قصيرة كان " الزعيم الشيخ " يقتحم الجماهير الثائرة على ظهر جواده ، وقد أرتدى ملابسه العسكرية القديمة ، وأخذ يلقى إليهم بتعليماته وأوامره ، فما لبثت الجماعات المتطاحنة أن إنصرفت فى هدوء ، وساد السكون المدينة . لقد كان الزعيم ذا مقدرة خارقة على السيطرة على الجماعات الهائجة .

ولكن الأمر المؤسف حقاً فى قصة الزعيم - أنه بعد أيام ليست كثيرة ، وُجد ميتاً فى إحدى الحانات بعد أن أسرف فى شرب الخمر التى كان قد أدمنها لسنين طويلة .

لقد نجح الرجل نجاحاً باهراً فى السيطرة على الناس ، لكنه فشل فشلاً مريراً فى السيطرة على نزواته - لقد ملك قياد الآخرين ولم يملك قياد نفسه ! .

ومن الكلمات المأثورة للشاعر والروائى الإنجليزى " روديارد كبلنج " (١٨٦٥ - ١٩٣٦) الحائز على جائزة نوبل للأدب سنة ١٩٠٧م قوله :

" إن جوهر الرجوله فيك يظهر حين تضبط رأسك فى وقت يفقد الآخرون رءوسهم ، ويلقون اللوم عليك " .

فالفشل فى كبح جماح النفس علامة على الضعف الأدبى أو العاطفى أو كليهما ، والإنهزام أمام الضغط العاطفى يدل على القلق والخيبة وعدم النضج .

وفقدان السلطان على الذات يجر وراءه الهزائم والنكبات .

وكثيراً ما نسمع الناس يلتمسون الأعذار لأنفسهم إذا طارت من أفواههم كلمة نابية ، أو إنفجار عاطفى مدمر ، فيقولون إنهم كانوا تحت فورة طائشة لا قِبل لهم على دفعها ، وإن صبرهم قد نفد ، أو أن اليأس الأسود قد تحكمً على نفوسهم ! . وهذا فى تصورهم قد يقلل من الجرم والذنب ، لأن هذا هو تركيبهم الجسمانى والعصبى كما يزعمون ! .

والحق أنه يجب ألا نكون هكذا ، إنما الواجب على العاقل أن يربى فى نفسه ملكة ضبط عواطفه . ومحك الأخلاق لا نجده فى الظروف المواتيه الهادئة ، إنما نكشفه فى أوقات التوتر والشدائد ، حين تهجم علينا المشاكل ، وينفد صبرنا إلى منتهاه . هنا يجب أن نحرص على رؤوسنا حتى لا تفلت منا .

ومنذ آلاف السنين قال سليمان الحكيم : " مالك روحه خير ممَّن يملك مدينة " .

وقال أيضاً :

" الرجل الذى ليس له سلطان على نفسه يشبه مدينة متهدمة بلا سور " .

٧ - مبادئ إنسانية ..

الذى يسلك فى طريقين ، يسقط فى إحداهما

قالوا عن الطريق :

- من أمثال سليمان الحكيم ٩٩٠ - ٩٣٢ ق . م : **" السالك بالكمال يخلص ، والملتوى فى طريقين يسقط " .**
- **" توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت " .**
- **" طريق الجاهل مستقيم فى عينيه ، أما سامع المشورة فهو حكيم " .**
- من مزامير داود النبى ١٠٤٢ - ٩٧٢ ق . م : **" إختبرنى يا الله وإعرف قلبى ، إمتحنى وإعرف أفكارى ، وأنظر إن كان فىَّ طريق باطل ، وأهدنى طريقاً سوياً أبدياً " .**
- **" علمنى يا رب طريقك ، وأهدنى سبيلاً مستقيماً ، عرفنى الطريق التى أسلكها .. علمنى أن أعمل رضاك . روحك الصالح يهدينى إلى أرض مستوية " .**
- كنفوشيوس ٥٥١ - ٤٧٩ ق . م : **" إذا عرف الإنسان فى الصباح الطريق المستقيم ، لا يأسف إذا مات فى المساء " .**

فى بعض المصحات النفسية ، يُجرَى إختبار طريف لذوى الأمراض العقلية لمعرفة مدى تقدم العلاج ، وهذا الإختبار يقصد به قياس حسن تصرف المريض ؛ إذ يُنقل إلى غرفه خالية ليس بها سوى مكنسة وحنفية مياه على حين يتوسط الغرفة بالوعة لتصريف الماء .

وقبل دخول المريض تُفتح الحنفية ، لتملأ المياه أرض الغرفة ، ويطلب من المريض إخلاء الغرفة من الماء تماماً .

ويلاحظ الأطباء أن بعض المرضى يبدءون فوراً بهمة ونشاط ملحوظين فى نزح الماء بالمكنسة فى إتجاه البالوعة ! ، ولأن الماء يتدفق من الحنفية بسرعة فإنهم من

ثم ينزحون الماء بسرعة أكثر ، ولكن الماء لا ينضب والعمل لا ينتهي ، فالحنفية لا تزال مفتوحة ، والمياه تتجدد ! .

لكن الأمر اليقين هو أن الشخص السويّ الذى شفى تماماً من مرضه العقلى هذا الشخص يتجه فى اللحظة الأولى إلى صنبور المياه ليغلقه ، ثم يتولى بعد ذلك نزح المياه على مهل .

أغلق منافذ الشر

والغريب .. أننا نحن العقلاء - نستحسن تصرف زملائنا من الأصحاء ، لكننا فى الوقت نفسه ، قد نسلك الطريق العكسى ، فنحاول نزح المياه قبل أن نغلق الصنابير المفتوحة ! . أو بعبارة أخرى :

نحن نسعى للغاية قبل أن نلتمس أسبابها ، ونندفع نحو الهدف قبل أن نزيل العوائق . وقد لا يحدث هذا كثيراً فى حياتنا وعلاقاتنا المادية ، لكنه يحدث يقينا فى حياتنا وعلاقتنا الروحية .

ومن ذلك أننا كثيراً ما نتجه بأنظارنا إلى السماء ، وهذا فى ذاته أمر طيب ، لكننا ونحن نطرق باب الله - لا نغلق منافذ الشر ، فتختلط فى داخلنا تيارات الحق والباطل - ويلتقى دفء الحب الإلهى وثلوجة التيارات العكسية ، وتجتمع نوايا التوبة وغوايا المعصية ! .

ولهذا - لا نصل إلى أهدافنا ، ولا تتحقق لنا أمانينا ؛

فنحن لا نستطيع أن ندرك باب الله قبل أن نترك طريق الشر .

والحقيقة أن تحت أقدامنا الكثير من طرق الشر ، ولعل واحداً من أهم هذه الطرق إحساسنا أننا أناس طيبون نحيا حياة الفضيلة والصلاح ، وهذه فى الحقيقة خدعة وغواية شيطانية مصدرها كبرياء القلب وغرور النفس ! .

فنحن وإن اختلفنا فى كمية الشر ونوعه وكيفيته -

كل إنسان منا نحن بنى البشر له فى أعماقه جذورٌ ضاربة فى الشر . ويحمل فى مكنون نفسه ميولاً جارفة للخطيئة والإثم .

والخطيئة كالشوكة فى جسد الإنسان لا تعالج بالضمادات والأربطة ، بل بإنتزاعها وتطهير موقعها . ومن يحاول أن يعالج ميول الشر فى داخله بتغليفها بالغلافات البراقة من الأعمال الصالحة - يشبه الريفى الساذج الذى أحس بآلام إلتهاب الزائدة الدودية ، فتحامل على نفسه وسافر إلى قرية أخرى (لتغيير الهواء !) ظناً منه أن فى ذلك الكفاية والوقاية من مرضه ، وهو لا يعلم أن العلاج الحقيقى هو إستئصال أصل الداء وقطع جذوره .

ولعلنا نذكر قصة الرسام الأمريكى هالين هوارد واتكينز الذى أعترف أمام قاضى محكمة سان جوزى بولاية كاليفورنيا أنه زور (شيكات) قيمتها ١٦٠٠ دولار ، وأعلن ندمه على جريمته وتوبته عن خطيئته ، وأندهش الحاضرون عندما رأوه يخرج سكيناً ضخماً من النوع الذى يستخدمه القصابون ، ويقطع إبهامه الذى كتب " الشيكات " ، ليقنع القاضى بعزمه أن يحيا حياة مستقيمة ! .

وقد نسى واتكينز أن التوبة الحقيقية ليست فى بتر إبهامه لكنها فى بتر دواعى الخطيئة الكامنة فى قلبه ، والتى تضرم فيه حب المال ، والحقد على الموثرين ! . فإذا كان قد قطع إصبعه فى لحظة إندفاع تحت تأثير عاطفى شديد - فإن عواطفه ستهدأ يوماً ما وتستيقظ بدلاً منها الرغبة والشهوة والجموح فالإنفعال العاطفى شئ والتوبة شئ آخر .

للخلف در

التوبة إتجاه عقلى ، وخطوة أولى لتغيير قصد الإنسان وإتجاهه فى الحياة ، إنها ليست مجرد شعور لكنها إرادة وعزم . التوبة ليست إحساساً بالأسف فقط أو تبديلاً للرأى ، بل هى تغيير للإتجاه والقصد والرغبة والعاطفة والنظرة الشاملة لكل ما فى هذه الحياة .

ولعل أفضل تعريف للتوبة : أنها الدوران للخلف : أى يدير الإنسان ظهره لدنياه وحياته الأولى ويتجه بقلب جديد نحو السماء .

إنها ترك للحياة الأولى بكل ما فيها من الشر وأسباب الشر .

إنها ترك لهذا الصديق القديم وتلك العادة المرغوبة وذلك المكان المألوف ؛ فالتوبة إن لم تكن تغييراً شاملاً فهى تعذيب لا فائدة منه ، بل هى أوخم عاقبة وشرّ من الشر ذاته ! . وهى تشبه فى ذلك ما يحدث للمريض الذى ينسى الجراح فى بطنه قطعـــة من القطن أو الشاش أو أدوات الجراحة : فمثل هذا المريض يتعرض لآلام لا تحتمل ، ولا يحقق راحة لجسده قبل أن يستخرج منه كل مخلفات الداء ! .

أذكر من أين سقطت وتب ؟

التائب الحقيقى يحرص ويحترس حتى لا يعثر مرة أخرى ، وهذا الحرص والإحتراس يوجب عليه أن يستعيد ماضى حياته ليكشف : كيف وصل إلى الخطيئة ؟ . فيتجنب العلة المسببة لها :

هل جاءت إليه بسبب صداقة ما ؟ ،

إذن ليقطع حبالها ولو كانت خيوطاً لحياته ! .

هل كانت بسبب تسلية ما ؟ ،

إذن لينقطع إلى الأبد عن هذا المكان ، وتلك المشاهد ، وهذه المعاشرات .

هل كانت بسبب وسيلة رابحة من وسائل جمع المال ؟ ،

إذن ليعيش على كسرة خبز يابسة ولا يستخدم هذه الوسيلة مرة أخرى .

هل كانت خطيئته بسبب دراسة من الدراسات أو كتاب من الكتب ؟ ،

إذن ليفضل أن يفقد نور عينيه على أن يخسر رضا الله الواهب له الحياة .

إذا كنت لا تستطيع المشى على الثلج دون أن تزل قدماك فالأفضل ألا تسير عليه إطلاقاً . وإذا كان من الصعب عليك أن تهضم نوعاً معيناً من الطعام فالأجدى بك ألا تضعه فى فمك . فلتترك طريقك .

درس من حياة سائق

كان " دافيد فانت " سائقاً مسناً ، إذ بلغ من العمر ٨٤ عاماً ، وقد أمضى إثنين وخمسين عاماً يسوق قاطرة جبلية زنتها ٢٥٠ طناً ، ويقطع فى خط سيره اليومى

حوالى ٥٢٠ كيلو متر ! . فيكون قد قطع فى مدة خدمته بالسكك الحديدية حوالى نصف مليون كيلو متر ! وهى ما تساوى الدوران حول الكرة الأرضية ١٢ مرة ! . لذلك فإن الشيخ " فانت " كان يعرف الطرق جيداً ؛ إذ ظلت عيناه تحدقان فى الطريق طوال عمره المديد . وفى اللحظات الأخيرة من حياته نظر الشيخ " فانت " إلى أصدقائه وإبتسم قائلاً :

" إنى أدير ظهرى الآن لليل ، أما وجهى فيستقبل الشمس المشرقة ، وسأقابلكم جميعاً مرة أخرى فى المحطة النهائية فى فجر الأبدية ! " .

وكانت هذه آخر كلمات رجل يعرف الطريق وكان طريقه دائماً مستقيماً ومسلكه واضحاً .

فهل وجدت طريقك الصحيح إلى باب الله ؟ ..

إنها التوبة .

ليترك الشرير طريقه ،

وليتب عن معاصيه

وليأت إلى الله فيرحمه .

٨ - مبادئ إنسانية ..

لا ينسلّط عليك شئ

هناك حكمة طريفة تقول : إن الذى يفرط فى تدخين التبغ متى تقدم فى الأيام فلن يعضه كلب ، ولن يسرق متاعه لص ، ولا يبيّض له شعر .

فالكلاب لن تقترب منه لأنه سيكون محتاجاً إلى عصا ليتوكأ عليها فتخشى الكلاب أن تقترب منه ! .

ولن يدخل اللصوص إلى بيته ، لأنه سيقضى معظم الليل يسعل ، فيظنه اللص مستيقظاً ! .

ولن يبيض له شعر ، لأنه متى تسلطت عليه الأمراض أدركه الفناء قبل المشيب ! .

وهى حكمة طريفة لما فيها من إسراف ومغالاة فى التصوير ، لكنها من الجانب الآخر لا تخلو من الصحة ، بل تكاد تلامس الحقيقة فى جوهرها وعمقها العلمى .

فحتى فترة قريبة من الزمان كان أجدادنا - وربما آباؤنا - يدخنون السيجارة والسيجار ومختلف أنواع التبغ ، يدخنونها فى أمان الله ! ، ويستمتعون بها دون أن يعكر صفوهم شئ ! ، إلى أن أطلقت صفارات الإنذار حين حامت الشبهات حول علاقة السيجارة بالسرطان اللعين ! . عندئذ فقط أُخذت قضية التدخين مأخذ الجد ، وبخاصة من طرفين هما : العلماء وشركات التأمين على الحياة . وبدأ كلاهما يدرس الأمر فى حذر شديد .

أما الطرف الحائر فهو الجمهور - جمهور البشر المدخنين : فهم أشبه ما يكون بمن ينتظر صدور قانون جديد يحدد العلاقة بينهم وبين السجائر ، وإلى أن يصدر القانون الجديد فهم على حالهم من الإدمان أو الإسراف أو الحذر ! .

وكمن يتعجل النتائج قبل إعلانها ، فيقف بباب (حجرة المراجعة) يستشف الأخبار ويجمع أطراف الشائعات ! . هكذا يفعل بعض الكتاب والصحافيين ؛ إذ هم ينقلون لنا بعض التقارير الأولية ، فنقرأ عن علاقة التدخين بسرطان الرئة أو سرطان الفم ، وعلاقته بقِصر العمـر أو ضغط الدم ، وتأثيره على وظائف الأعضاء

أو قروح المعدة .... إلخ .

لكن أعجب ما يصل إلينا هو الإحصائيات ولعل من المفيد لنا أن نطلع معاً على إثنتين من تلك الإحصائيات الكثيرة :

إحداهما لأستاذ أمريكى فى جامعة كاليفورنيا توصل فيها لحقائق مثيرة ، إذ يقول :

- إن ٦٠ % من الأطفال الذين يولدون من أمهات يدمن التدخين يموتون قبل أن يصلوا إلى السنة الثالثة من عمرهم .
- ٧٠ % من مرضى الذبحة الصدرية من المدخنين .
- متوسط عمر الشخص الذى لا يدخن ٦٧,٧ من العام .

ومتوسط عمر الشخص الذى يدخن فى إعتدال ٦٥,٧ من العام .

أما متوسط عمر الشخص الذى يدخن بإسراف ٥٧,٧ من العام .

وهكذا يؤكد الأستاذ الأمريكى مدى خطورة التدخين .

أما الإحصائية الأخرى فهى لشركة تأمين على الحياة ، وهى لذلك صاحبة مصلحة كبيرة فى معرفة كل ما يؤثر في أعمار الناس ؛ لذلك قامت الشركة بعمل دراسة على ١٨٠ ألف شخص ، وخلصت منها إلى أن المدخنين بالقطع أقصر عمراً من غير المدخنين ، وأن العمليات الجراحية التى يشفى فيها غير المدخنين ؛ كثيراً ما تسبب الوفاة للمدخنين .

فلماذا يدخن الناس ؟

بالرغم من معرفة الكثيرين لأضرار التدخين - فالناس يدخنون ملايين السجائر يومياً . ومن بين المدخنين أطباء وعلماء وأدباء وفنانون ، ومنهم الشيوخ والنساء والأولاد الصغار والمراهقون فلماذا يدخنون ؟ .

المعروف أن الصغار يقلدون الكبار كوسيلة من وسائل إثبات الذات ، وتدعيم الشعور بالإستقلال الذاتى ؛ والمراهق يدخن فى بادئ الأمر دون إستمتاع بالتدخين ، لكنه يفعل ذلك لدافع معنوى . ثم بعد ذلك تحدث عملية التكيف الفسيولوجى وتتكون العادة .

العادات الضارة

إن مصدر كلمة " عادة " فى اللغة الانكليزية مأخوذ عن كلمة لاتينية تعنى " الشئ الذى يمتلكك بدلاً من أن تمتلكه " ،

فالعادة إذن هى السيد الذى يحكم الإنسان ويستعبده بعد أن كان رهن أمره وطوع إشارته . وهذا ما يتحقق تماماً فى موضوع التدخين .

عظة من حياة نسرين

بينما كان أحد الناس يجول فى الريف - رأى نسراً ذهبياً ضخماً يحلق فى السماء مندفعاً فيها كالسهم ، يشق الأجواء نحو الشمس فى قوة وكبرياء . ونظر الرجل بإعجاب شديد إلى ملك الطيور وهو يرتفع رأسياً حتى كاد يغيب عن بصره ، لكن شيئاً غريباً حدث له ، إذ لاحظ الرجل أن النسر قد توقف ، وبدا واضحاً أنه يواجه صعوبة ما . وبعد قليل رأى الرجل وإذا النسر يهوى سريعاً إلى الأرض ، ثم يصطدم هو والأرض بشدة جثة بلا حياة ! .

وذُهش الرجل ؛ فالنسر الصاعد لم تمتد إليه يد بأذى ، ولم يطلق عليه أحد النار! . لكن الرجل حين بلغ موقع النسر عرف السر :

فقد كان الطائر الجبار يحمل بين مخالبه عرسية خبيثة (إبن عُرس) ، كان قد إلتقطها من الأرض ، ولكنه عندما حلق فى الجو ضم قدميه إلى صدره ، فإقترب فم الحيوان من صدر الطير ، فأعمل فيه لعبته القديمة ؛ إذ مص دماء الحياة الساخنة من صدر ملك الطيور ! .

ولعل هذه المأساة الأليمة ، والمفارقة بين جلال الضحية وضآلة الجانى تبين بوضوح ما تفعله العادة بالإنسان ؛ فلقد يظن أنه سيستمتع بها ، لكنها عندما تقترب من قلبه تمتص منه رحيق الحياة ، فإياك أن تقترب العادة من قلبك .

فلنطرح الأثقال حتى ننطلق

أما قصة النسر الآخر فهى عبرة حقيقية لمن يعتبر . وقد رواها صياد محترف قضى حياته بين الجوارح :

كان الصياد قد أصاب نسراً كبيرا من النسور الصلع بلغ طول جناحيه ٧ أقدام وبوصتين (٢١٥ سم) . وعندما ذهب الصياد ليفحص فريسته لاحظ شيئاً غريباً ، فقد وجد فخاً حديدياً مطبقاً بقسوة على أحد مخالب النسر ، وقد تدلت من الفخ سلسلة كبيرة طولها خمس أقدام . ولاحظ الصياد أن هناك علامات كثيرة لضربات عنيفة طبعها النسر بمنقاره القوى على حديد الفخ فى محاولات مريرة للتخلص منه . ولابد أن ذلك قد كلف الطائر البائس المسكين جهداً كبيراً على مدى سنين طويلة . لكنه فى النهاية سقط قبل أن يفلح فى التخلص منها .

ويقول الصياد : إن الفخ والسلسلة لم يكونا عبئاً خطيراً يمنع النسر من التحليق ، لكنهما كانا بلا شك عاملاً مساعداً فى سقوطه فى نهاية المطاف .

ولعل هذه أيضاً عظة صامتة لنا جميعاً يا عزيزى القارئ فقد لا تكون العادة (فى نظرنا) مانعاً عن التحليق فى آفاق المستقبل المادى أو الروحى ، لكنها فى نهاية المطاف لابد أن تترك أثراً سلبياً خطيراً على هذا المستقبل ! .

إذن فلا ندع للعادة سلطاناً على حياتنا حتى لا يتسلط علينا شئ ! .

٩ – مبادئ إنسانية ..

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء

محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه " لامرتين "

الإنسان تاج الخليقة

> **" الإنسان " .. محدود الإمكانات ، قليل الشأن إذا هو قيس بغيره من بدائع المخلوقات التى أوجدها الخالق العظيم .**
>
> **لكن الإنسان ظل بالرغم من ذلك تاج الخليقة ، لأن فيه قبساً من نور الله الذى أنعم عليه بعقل عجيب ، ليدرك ما حوله ، وأعطاه إرادة حرة مطلقة ، ليصنع لنفسه طريقاً مستقيماً .**

أنا جالس الآن على كرسى صغير يشغل من أرض الحجرة مساحة ٢/١ متر مربع ، وأنت أيضاً يا عزيزى القارئ تشغل المساحة نفسها إذا كنت جالساً أو واقفاً ، وتشغل أربعة أمثالها إذا كنت مُستلقياً . هذا ما نشغله من أرض هذه الدنيا ، أما أرضنا نفسها فتمتد أمامنا وخلفنا وعن يميننا ويسارنا إلى مساحة تزيد على ٥٠٠ مليون كيلو متر مربع ! .

ونحن نولد ونعيش على سطح هذه الأرض الممتدة ، نروح ونجئ ، ونقف ونجلس ، ونستيقظ وننام ، فلا نشغل من هذا الكون أكثر مما تسمح به أبعاد أجسادنا الصغيرة ، فإذا دارت الأيام أخلينا أماكننا لأجيال لاحقة ، كما أخلاها لنا أسلافنا ، فتختلط أجسادنا بتراب أرضنا ، وتبقى الأرض حضناً واسعاً لكل بنى البشر على تعاقب أجيالهم ، تحتضن الأيام أطفالاً ورجالاً ونساءً ، شباباً وشيوخاً . تستقبلنا حين نولد ، ولا تودعنا حين نرحل ، فأجسادنا منها ولها . ويتعاقب البشر وتبقى أمنا الأرض الطيبة واسعة للجميع .

لكن هذه الأرض - على إتساع قلبها - صغيرة جداً . ضئيلة وضائعة فى خريطة الكون المتسع . فما هى سوى كوكب صغير يدور فى فلك نجم كبير مسيطر إسمه الشمس . يجذب إليه الأرض مع إخوة لها تتفاوت أحجامهم وأبعادهم . لكنهم يدورون

كما تدور خاضعين لسلطان الشمس التى تكبر عن الأرض مليوناً و ٣٠٠ ألف مرة !

ولكن هذه الشمس الضخمة الجبارة - على ما لها من عظمة ورهبة وجلال - ليست سوى نجم متواضع بين عدة ملايين من النجوم داخل نطاق " المجرة " وهو الإسم الذى أطلق على مجموعة النجوم المنتشرة فى فضاء الكون صانعة ما يشبه المجرى المائى ، وما الشمس إلا نقطة فى هذا المجرى الذى يلمع فيه ما يزيد على ثلاثين ألف مليون نجم على أقل تقدير ! .

ومن النجوم ما يزيد حجمه قليلاً عن حجم الشمس ، ومنها ما يكبر عنها ٢٥ مليون مرة ! كالنجم المعروف " بالجبار " . ألم نقل : إن الشمس نجم متواضع بين نجوم السماء التى تزيد على حبات الرمل فى صحراء الأرض .

وجميع هذه النجوم تسبح فى فضاء الكون السحيق تفصل الواحد عن الآخر مسافات شاسعة حتى يخيل إليك أن الفضاء خالٍ من النجوم ، أو كما شبهها أحد الأدباء بقوله : " إن ثلاث نحلات تائهه فى سماء أوربا أكثر إزدحاماً من النجوم فى فضاء الكون ! " .

وعندما نتطلع إلى الفضاء الفسيح لا نرى كل هذه النجوم لطول الوقت الذى يستغرقه ضوءها فى الوصول إلينا ، إذ يحتاج بعضها إلى ١٤٠ مليون سنة ضوئية : أى أنها على بعد ١٤٠٠ مليون مليون كيلومتر ! .

وقد أدهشت المجرة ونجومها البشر كافة على مر العصور ، وعرف العلماء أن الشمس مجرد قشة فى طريق طويلة إنتثرت فيها عصافة التبن ، فأطلقوا على إسم المجرة (طريق التبانة) ، لكن المجرة بكل هذا الإمتداد ليست سوى واحدة من المجرات التى تزيد على مائة المليون من المدن النجمية السابحة . كالجزر فى محيط مظلم سحيق لا يُعرف مداه ، ويبلغ البعد بين واحدة وأخرى مليونى سنة ضوئية . ومادة هذا الكون الواسع الذى لا نراه تقدر بمقدار ١١ ألف مليون مليون مليون شمس (١١ أمامها ٢١ صفراً) ، وهذا الكم الهائل من المادة يتناثر ويتمدد ويتباعد فى الفضاء السحيق ! .

أنا مازلت جالساً على نصف متر من أرضنا الصغيرة المتواضعة ، أتأمل تلك الأرقام العجيبة وأحس بضآلتى وهوان شأنى أمام جبابرة الخلائق من جلاميد الصخر وكرات النار واللهب .

ولكنى - وإن عجبت من ضآلة الإنسان حجماً - أعجب أكثر جداً مما له من كرامة ومجد بين خلائق الله ! . فقد إمتاز عنها جميعاً بعقله وإدراكه ، فلم يقعده حجمه الصغير عن التطلع إلى الآفاق البعيدة ، وهو - وإن كان محدوداً فى طبيعته - غير محدود فى رغائبه ، وهذا ما يجعل من الإنسان موضوعاً شائقاً للتأمل والبحث .

ما الإنسان ؟

قال أحد فلاسفة الإغريق : " أن الإنسان مخلوق له رجلان إثنتان ، ولكنه بدون أجنحة " ، وهو تعريف يميز الإنسان من باقى المخلوقات ذوات الأربع أو الزواحف أو الطيور . ولكنه تعريف محدود يتصل بالشكل الخارجى فقط .

وقيل : إن الإنسان حيوان فريد ؛ لأنه إنفرد بمزايا كثيرة ليست لجميع الحيوانات : كإنتصاب قامته وتحريك إبهامه وكبر حجم رأسه بالنسبة لجسمه ، وقدرته على الكلام وعلى إستعمال النار والالآت .

وأضاف البعض إليها قدرات وميزات أخرى لكن هل تتعلق عظمة الإنسان بقدراته البدنية ومواصفات جسمه ، أو هناك سر آخر ؟ .

الإنسان : الضعيف القوى

لو قارنا بين الإنسان والكثير من حيوانات الأرض وطيورها لوجدناه أقل كفاية من غالبية الأحياء ، حتى تلك التى تصغره حجماً :

فالغزال بسيقانه الرقيقة يفوق فى سرعته أعظم العدّائين فى تاريخ الرياضة ، ولا يقدر إنسان أن يقفز كما يقفز النمر ، ولا يطير كما تفعل أصغر الفراشات ! ، وليس للإنسان فراء يدفئه أو مخالب يحمى بها نفسه ، وليس له أنياب أو قرون ! .

ولو تجرد الإنسان من عتاده وأدواته لبدا ضعيفاً أمام معظم حيوانات الأرض وطيور السماء ! .

ولكن هذا الإنسان الضعيف إستطاع أن يروض دواب الأرض ، ويقضى على وحوش الغاب ويسخر جبابرة الحيوانات ويحبس طيور السماء ! .

وهذا الإنســـان الضعيف إستطاع أن يفلح الأرض ، ويزرع الحقول وينبت البقول

وينشئ البساتين ، ويقيم المصانع ، ويبنى السفن ، ويصنع الطيارات والصواريخ ، ويرصد النجوم ، ويرتب الأزمنة والأوقات ، ويغرس أصابعه فى جوف الأرض ، ويضع أقدامه على سطح القمر ! .

إن للإنسان - كغيره من حيوانات الدنيا - غرائز طبيعية ، لكن غرائز الحيوان هى دليله ومرشده الوحيد ، وبها يتحدد سلوكه وبرنامج حياته : فتخزن السناجيب طعاماً صيفاً ، وتلجأ الدببة إلى بياتها شتاء ، لكن الإنسان عظيم حين لا تقوده غرائزه ، بل أهدافه .

إنه يضع الهدف ، ويستعمل الوسائط ، ويتعاون هو والشركاء ، ويستبدل الخطط ، ويتخطى العقبات ! .

المجد للإنسان

إن عظمة الإنسان ليست فى ملكاته الجسمانية وقوامه ، لكنها فى نعمة الله عليه إذا أعطاه عقلاً عجيباً ، ليدرك ما حوله ، ويسيطر عليه ، ويسبر أغواره .

إن الإنسان عظيم ؛ لأن فيه قبساً من نور الله الخالق رب كل معرفة وعلم .

وقديماً جلس أحد رعاة الغنم مستنداً على جذع شجرة متأملاً فى فضاء الكون الفسيح فقال :

" يا رب ،

ما أعظم إسمك فى الأرض !

فوق السماوات جلالك . سماؤك

التى ترى وهى من صنع يديك ،

والقمر والنجوم التى ثبتها ،

أين منها هذا الإنسان حتى تذكره ،

ما إبن آدم حتى تعنى به ؟

خلقته إلى الإلهية أدنى

وتوجته جلالاً وبهاءً ،

يا ربنا ما أعظمك ! " .

لكن هذا الإنسان الممجد الذى خلقه الله وله صورة الإله ، هذا الإنسان صاحب العقل والإرادة الحرة إستطاع بعقله وإرادته أيضاً أن يجلب على نفسه الخراب والدمار ، فأصبح إلهاً ساقطاً أقدامه فى الأرض وعينه فى السماء ! .

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء

محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه " لامرتين "

الإنسان الذى سقط

مع أن " الإنسان " .. هو تاج الخليقة ، لأن فيه قبساً من نور الله الذى أنعم عليه بعقل عجيب ، ليدرك ما حوله ، وأعطاه إرادة حرة مطلقة ، ليصنع لنفسه طريقاً مستقيماً ..

لكن هذا الإنسان صاحب العقل والإرادة الحرة جلب لنفسه السقوط والإنهيار والدمار ! .

خلق الله هذا الكون الواسع بما فيه من نجوم و أفلاك ، وما به من كواكب وأقمار ، ونظر الله سبحانه إلى (لوحة) الكون فإذا هى غاية فى الروعة والكمال :

ففى سكونها رهبة وجلال وفى حركتها دقة وجمال وتوافق يفوق الخيال ، فالأيام تمضى والفصول تتتابع ، تجئ وتذهب فى دقة ونظام ، والنجوم والكواكب فى أماكنها أو فى مدارها لا تحيد عنها ولا تخرج عليها ؛ فقد صنع الله الكون مطيعاً ملتزماً ، هو عالم نظام ووئام تحكمه قوانين إلهية دقيقة ؛ ومعادلات ثابتة ! .

لكن تاج الخليقة - الإنسان - صاحب الحياة والعقل والإرادة الذى خلقه الله لذاته وأعطاه حرية الفكر والعمل والحركة ، هذا الإنسان وحده من بين خلائق الله - لم يشأ بإرادته أن يحفظ للصورة جمالها ؛ فقد زاغ ومال ، فشوه الجمال وأفسد الكمال ! .

إستعمل الإنسان عقله فحقق الكثير من التقدم العلمى والتقنى ، وتبدل وجه الحياة على الأرض من الصورة البدائية البسيطة إلى الصورة المركبة المعقدة ، وتضاعفت معارف إنسان القرن العشرين على مر العصور آلاف المرات ! .

لكن هذا الإنسان الذى نجح بعقله - سقط بفكره وقلبه ، وساءت علاقة الإنسان بربه وبإخوته وبنفسه ، ففقد السلام والأمان وراحة القلب والبال ! .

الإنسان ومعركة الوجود

تحول العالم فى فترة قصيرة من الزمن من بيت العائلة إلى ميدان صراع ، فلم تعد أرضنا كسفينة نوح التى تتعايش بداخلها مخلوقات الدنيا كافة ، بل صارت كجوف البحر حيث يبتلع القوى الضعيف ، ويفتنُّ الصغير المغلوب لينجو من بطش الكبير المسيطر ! ، فقد تعلم الكبار كيف يبطشون ؟ وتعلم الصغار كيف يراوغون ؟ . هذه دنيانا ! .

ويرجع ذلك إلى أن للإنسان جسداً ، وهذا الجسد مخلوق من لحم ودم وعظام ومواد أخرى كثيرة هى بذاتها تركيبة أجساد جميع الحيوانات نفسها على سطح الأرض ، وهذه الأجساد جميعها تحتاج إلى الطعام والماء والحرارة وغيرها لإستمرار بقائها وما لم توجد هذه الأشياء يموت الإنسان ؛ كما يموت الحيوان أيضاً ، لذلك فالإنسان مشغول بمعركة الوجود : إنه يصارع غيره من الأحياء ؛ ليوفر لنفسه ما يكفيه : فهو يقتل ؛ ليأكل ! ، ويقتل ؛ ليحمى نفسه من أن يؤكل ! ، إنه يحطم الجبال ، وينقب الأرض فتحطمه الزلازل ، وتطمره البراكين ! .

ولقد تعلم الإنسان كيف يستغل كل شئ ويسخِر كل من يستطيع ! ، لذلك ساءت علاقة الإنسان بالعالم الطبيعى ، وسقط فى منزلق الرغبات المتعارضة مع بقية الأحياء ! ، فكان هذا السقوط الأول للإنسان ، سقوطه فى علاقته بالعالم الطبيعى ! .

الإنسان يذبح الحب

عندما سال دم هابيل على أرض هذا الكون - لم يكن ذلك سوى إعلان عن ذبح الحب الذى كان قائماً فى قلب الإنسان حين خلقه الله .

لكن الخلافات الفكرية والمشاحنات العقائدية والرغبات الذاتية والأطماع المادية - إستطاعت جميعها أن تغتال الحب فى قلوب البشر : فتنكر أخ لأخيه ، وأبٌ لإبنه ، وابن لأمه ! ، وإشتعلت نيران حروب ، وخضبت الدماءُ البريئة سطح الأرض الخضراء ! ، فنعق البوم حيث كانت تغرد البلابل ! .

نشرت إحدى الصحف العربية قصة المهندس الزراعى الذى تملكه جشع شديد ، ففكر فى الإستيلاء على قطعة أرض يملكها هو وبعض أقاربه ، فلم يهده عقله وهو

الرجل المتعلم ، ولم يهده قلبه وعواطفه ولم يلهمه ضميره موقفاً أفضل من ذلك الذى فعله : فقد أخذ مسدساً ، وذهب ، ليقتل أقاربه واحداً وراء الآخر ، لكن المفارقة العجيبة حدثت حين صوب النار نحو رأس صبى صغير برئ ! ، عند ذاك أصاب المسدس عطلٌ مفاجئٌ ! . وكأن الحديد الأصم قد أبكمته خسة الرجل الجشع ، فأبدى موقفاً أكثر إنسانية من إنسان القرن العشرين ! .

ونظرة واحدة إلى أى صحيفة (يومية) فى أى مدينة من بلاد العالم ترينا كيف سقط الإنسان فى إختبار الحب ؟ . وكيف أسودت اللالئ البيضاء التى كانت ترصع جبين الإنسان تاج الخليقة ؟ .

فكان مصرع الحب هو السقوط الثانى للإنسان ، سقوطه فى علاقته بإخوته من البشر .

الإنسان ينهار من الداخل أيضاً !

وكما تبدو علامات الشيخوخة على وجه الإنسان - كذلك تظهر الشقوق على جدران البيت ، فتنذر بقرب سقوطه ! .

ولقد أصبح الجنس البشرى آيلاً للسقوط حين تصدعت جدرانه من الداخل بعد أن كان فى يوم من الأيام صرحاً شامخاً متماسك الأركان ! .

فإنسان اليوم ينقصه الترابط ، وتتصارع فى داخله الرغبات والقيم ، وتتلاطم الحاجات والنوايا الحسنة ، فيضيع رصانته وإستقراره فى الطريق بين غرائزه وعقله ، وتضعف إرادته الصادقة أمام أعماله الشائنة حين يفعل ما لا يريد ، أو يعجز عن فعل ما يشتهى ! .

وهنا أيضاً يسقط الإنسان فى علاقته بذاته ، ينهدم من الداخل ! .

الإنسان الذى أخطأ فهم الحرية

لكن أخطر منزلق سقط فيه الإنسان هو منزلق الحرية : فقد خلق الله الإنسان حراً لكن هذه الحرية ليست حرية الفوضى ؛ فليس فى خليقة الله ما يتحرك فى فوضى كبيراً كان أم صغيراً ، والدليل على ذلك - كما ذكرنا سابقاً - الدقة المتناهية

فى قوانين الكون الواسع الفسيح ! .

والحقيقة أن الإنسان مخلوق مميز ، ليس ككل المخلوقات على سطح كوكبنا الأرضى وربما كان هناك إمكان لوجود أحياء فى عوالم أخرى غير عالمنا ، وربما وضع الله فى بعض الكواكب مخلوقات حية لها طبائع وأشكال وقوانين أخرى تختلف هى وما لنا ! . وقد تكون تلك المخلوقات طيعة دائماً ، أو غير قادرة على الخطأ ، لكن المؤكد أن الله أعطى الإنسان قسطاً من الحرية لكى يستعملها بحكمة فى التقرب الإختيارى لله ، لكنه إستخدمها فى الخروج والمروق عن طاعة الله وسلطانه : ومثله فى ذلك كمثل لاعب كرة القدم - أو أى لعبة أخرى : فهو يتحرك فى حرية كاملة ؛ ليُظهر إمكاناته ومواهبه وليحرز الفوز لذاته ولفريقه ، لكنه يتحرك بحرية داخل قوانين محدودة لا يمكنه الخروج عليها وإلا تعرض للعقاب والإستهجان .

فقد أراد الإنسان بحريته أن تكون حرية العصيان لا حرية الطاعة ، لذلك سقط فى علاقته بخالقه ، فكان سقوطه وبالاً عليه ! .

لقد خلق الله للإنسان جسداً من لحم ودم ؛ ليتصل عن طريقه بالعالم من حوله لكنه سقط وتحطم فى هوة العداوة مع العالم الطبيعى ! .

وأعطى الله الإنسان عقلاً ؛ لتصبح له علاقة بالبشر الذين يتحدث إليهم ويشاركهم فى أفكارهم ، فأختلف هو وهم ، فسقط فى بالوعة الحقد والكراهية .

وأعطاه الله نفساً ثمينة فاحرقها بالصراع الداخلى ! .

وأعطاه روحاً خالداً ليرتبط بخالقه الأبدى الأزلى ، لكنه إنشغل بتأليه نفسه عن تمجيد خالقه ، فسقط فى دوامة الفشل ! .

لكن الله أحب الإنسان الساقط ، ولم تزل رحمته تحيط به ، وتحاصره كأحضان الأب الحنون ! .

وسيظل روح الله يعمل فى داخل الإنسان الساقط حتى يعيده إلى ما يليق به كسيد الخليقة وموضع حب الخالق .

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء

محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه " لامرتين "

الإنسان : عين فى السماء

مع أن " الإنسان " .. هو تاج خليقة الله الذى ميزه فيها بالعقل والإدراك ، وجعله متسلطاً على جميع المخلوقات . هذا الإنسان العاقل لم يعرف الله بالعقل والحكمة بل حاد عن طريق الصواب ، فسقط فى علاقاته هو ونفسه وهو وغيره ، بل هو والعالم الطبيعى والروحى أيضاً .

مسكين هذا الإنسان ! .

لم يعد له فى دنياه صديق ! .

فقد ضاقت به الدنيا - على اتساعها - فلم يجد راحته فى شئ مما يحيط به ! .

ومسكين هذا الإنسان لأنه خسر معركته على جميع الجبهات برغم سعيه المستمر ودأبه المتواصل .

فقد إختلف هو والعالم الطبيعى فأصبح يصارع قوى الطبيعة ، فصرعته قوانينها الظاهرة بعض الوقت ، وخدعته قوانينها الخفية كل الوقت ، فظل الإنسان برغم خبرة السنين طفلاً ضائعاً فى متاهات الكون الفسيح .

وإختلف الإنسان وإخوته من بنى البشر ، وهم شركاؤه فى اللحم والدم والعقل والإرادة والسلطان فصاروا عبيد الأرض ، مع أنهم خلقوا ليكونوا سادة الأرض وأصحابها ! .

وخسر الإنسان فى علاقته بنفسه ، فتشتت عقله فى دوائر الصراع المتباينة ، وتمزق من الداخل .

لكن خسارة الإنسان الجسيمة ظهرت بوضوح فى حياتة الروحية وعلاقتة بخالقه : فقد أراد أن يستقل تماماً عن مصدر وجوده ، فخرج عن طاعة الله ، وعصى إرادته

وهو لا يدرى أنه ينعزل بذلك عن مصدر قوته ، ونبع كيانه الإنسانى ! .

فماذا حدث للإنسان ؟ .

وكيف أصبح الإنسان بابتعاده عن الله ؟ .

نستعرض هنا أربعة مظاهر نتجت عن محاولة الإنسان أن يجد سعادته فيما يحيط به من ماديات :

١ - أصبح الإنسان متذمراً

لعل ظاهرة الشكوى الدائمة ، والتذمر المستمر اللذين يردان على ألسنة البشر فى كل زمان ومكان - لعلهما لا يخرجان فى جملتهما عن كونهما دليلاً على حالة عدم الرضا بالواقع والقناعة بما تيسر ! ، مع أن ذلك قد يكون أكثر من الحاجة ، وأوفى من المطلوب ! .

ونحن نرى معظم الناس غير قانعين بما فى أيديهم برغم كفايته .

فهناك دائماً شئ مفقود يتطلعون إليه ويودون إنتزاعه من أيدى الآخرين .

وهل يُعذر الإنسان ؛ لأن رغباته غير محدودة ؟ إن كل ما فى هذا الكون قد خلق من أجل الإنسان ، لكن الإنسان نفسه قد خلق ليكون بجملته لله الخالق الذى وضع فيه وعياً وإدراكاً وإرادة حرة ، وتطلعاً لما وراء المحدود .

لقد خلق الله الإنسان لذاته ، وجعل فيه شوقاً له سبحانه .

ولأن الله غير محدود - فإن رغبات الإنسان غير محدودة أيضاً ، ولا تستطيع الأشياء المادية المحدودة أن تشبعه مهما أكثر منها لذلك فهو جائع دائماً ، متذمر دائماً ! .

٢ - إنتشار الشهوة والإنغماس والبهيمية

وإذا كانت الشكوى والتذمر صورة سلبية للجوع فإن هناك صورة أبشع منها تتمثل فى محاولة الإشباع بالماديات المحدودة .

وهذه المحاولة لا تقود مع الأسف إلا إلى حالة سلبية أكثر ضحالة مما كان الإنسان عليه قبلاً :

فالذى يشبع رغباته بألوان الطعام يصير شرها دون أن يشبع .

والذى يحاول إشباع رغباته عن طريق الجنس يصير شهوانياً دون أن يشبع ! .

والذين يطفئون ظمأهم بكأس الخمر وأصناف المخدرات يصبحون مدمنين وسكيرين دون أن تشبع رغباتهم ! .

والذين يكنزون المال لا يشبعون به ، بل ينقلبون إلى بخلاء مقترين لا يستفيدون من خزائنهم المكدسة أكثر مما يفيد الفقراء من دخولهم المحدودة ! . إنهم يظلون عطاشاً والماء فى أيديهم ! .

ولعل هذا هو أحد الفروق الكبيرة بين الإنسان الجائع دائماً المتطلع دائماً ، والحيوان الذى يشبع بما يجده ؛ فالحيوان رغائبه محدودة : فإذا أعطيناه طعاماً مناسباً ومكاناً كافياً لحركته وفرصة للتوالد - فإنه يكون سعيداً راضياً ! . على عكس الإنسان ذى الجوهر الروحى ، المخلوق على صورة الله فإن جميع الأشياء المخلوقة لا تستطيع أن تسعده وترضيه ! ، فكثيرها مثل قليلها : إذا أشبع جسده فإنه لا يطفئ ظمأه الروحى بل بالعكس يقوده إلى الشهوة والإنغماس والبهيمية ! .

٣ - ومن المتدينين من يعبدون الأوثان

فإذا كانت محاولة الإشباع من الموائد المادية لا تصل بالإنسان إلى شئ سوى الشهوة - فإنه يجدر بنا أن نتأمل قليلا فيما تعنيه هذه الكلمة الشائعة :

إن المشتهى إنسان يضع عينيه على شئ ما أو على شخص ما محاولا أن يملأ بهذا المخلوق المكان الذى لا يستطيع أن يملأه إلا الله ، وهذه بعينها عبادة الأوثان .

وقد نظن أننا أرفع من أن نسقط فى هذا الدرك ..

لكننا لا شك فاعلون إذا نحن أخطأنا الطريق إلى الشبع الحقيقى فى الله الذى يملأ القلب ويشبعه .

وما أبشع أن يصير الإنسان من عبدة الأوثان دون أن يدرى ! .

٤ - ويحتقر الإنسان نفسه

وهذه إحدى الصور الأليمة فى حياة البشر : فالإنسان قد يحاول العودة إلى الحياة التى يرضاها لنفسه ، ويحس أنها تتجاوب هى وقيمته الإنسانية ، لكن محاولاته تفشل واحدة وراء الأخرى ، ويحسّ كما لو كانت هناك قوة شيطانية خفية ترده إلى الخلف وتدفعة إلى ما لا يريد ! .

ويحاول الإنسان ما إستطاع - إلى أن يدرك فى يأس شديد - أن لا قوة لإرادته الواهنة أمام سلطان الشر الطاغى .

وقد يؤدى هذا الإحساس إلى الإستسلام الذليل ، فيفعل الإنسان بيده ما يرفضه بعقله وإرادته ! ، وقد يدفعه هذا إلى أن يبغض نفسه ويحتقر ذاته .

فهل يبقى فى الإنسان بعد كل ذلك شئ يؤمّل ! .

نعم :

فللإنسان عين فى السماء .

الإنسان : وعينه التى فى السماء

قال صديقى وهو يخرج من الطائرة : " لا أنكر أننى أحس بمتعة وأنا أحلق فى الجو ، لكن هذه المتعة لا تقارن بالراحة الحقيقية التى أحس بها وأنا أدبّ بقدميَّ على سطح الأرض المنبسطة " .

وقلت فى نفسى : لست وحدك يا صديقى : فأنا وأنت والإنسان أينما كان مرتبط بالأرض لحماً ودماً : فمن ترابها خلقه الله ، وعلى سطحها يحيا ويموت ، وأينما إرتفعت أجسادنا عن سطح الأرض فإنها لا تلبث أن تعود ؛ فحتى الذين ذهبوا إلى القمر عادوا سريعاً إلينا ، بل كانوا وهم على سطح القمر منجذبين معه إلى الأرض أيضاً .

نحن كسائر دواب الأرض : أقدامنا فيها ، وأجسادنا منها ومآلنا إليها ، لكننا فى الوقت نفسه نختلف نحن وكل حيوان الأرض بأن لنا عيناً فى السماء ، عيناً تتطلع إلى شئ بعيد يختلف هو وما بين أيدينا ، وتظل أنظارنا عالقة ومشاعرنا متلهفة ،

وتبقى أفئدتنا خالية خاوية ، وقلوبنا جائعة ورغباتنا متشعبة - إلى أن ندرك هذا الذى يشبع القلب ويملأ الفؤاد ! .

وهنا نستعير قولاً مشهوراً لرجل مختبر كان قد أفنى خير سنوات عمره فى إرتشاف ملاذ هذا العالم ، فلم يبلغ الرضا والشبع الحقيقى إلا حينما هجر الشر ، وجثا على ركبتيه فى إنكسار شديد ، ورفع عينيه إلى السماء مسلماً حياته وإرادته لله ، وعندئذ قال قولته الشهيرة التى صارت مثلاً ودستوراً للسلوك الإنسانى :

" اللهم .. لقد خلقتنا لذاتك ، ولن تجد قلوبنا راحة إلا إذا استراحت فيك ! "

هذا هو سر البعث الحقيقى للإنسان الساقط

هذا هو الشبع الحقيقى للإنسان الجائع ، للعيون المتطلعة للقلوب الظامئة :

فقلب الإنسان المخلوق على صورة الله لا يشبع بغير الله .

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء

محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه " لامرتين "

الإنسان الجديد

مع أن " الإنسان " .. مخلوقاً مميزاً بين خلائق الله ، لكنه فشل فى تحقيق الإنسجام بين إمكاناته المحدودة ونفسه المتطلعة الراغبة بغير حدود . ولكن أدرك الإنسان بعد طول عناء أن له روحاً لا يشبع بشئ من دون جوهرها الروحى ، ولو ملكت أطراف الدنيا ، وقلباً لا يملؤه سوى صانعه الذى وهب له الحياة والخلود ، وهيأه ليحيا فى سلام وإنسجام مع ربه وإلهه .

واليوم نكمل جولتنا فى حياة الإنسان الذى رأيناه من قبل ساقطاً تائهاً متطلعاً ، لنراه اليوم فى مكانه الصحيح .

منذ بضعة أشهر ، قرأت فى إحدى الصحف حادثاً مثيراً ، وليس سبب الإثارة غرابة الحادث ، فهو فى ذاته كثير الوقوع ، لكن الغريب هو الدافع إليه ! .

وخلاصة الحادث أن رجلاً ذهب إلى بيت صديقه فى ساعة متأخرة من المساء ودعاه ، ليقضى معه جانباً من الليل للترويح والتسامر ، وبعد أن قضيا بعض الوقت فى أحد المقاهى العامة تركاه عائدين إلى منزليهما تقلهما دراجة بخارية ، وقبل أن يصلا إلى أى من البيتين استأذن الداعى صاحبه ؛ ليميل إلى جانب الطريق لأمر ما ، وبينما الآخر ينتظر إذا بصديقه يطلق عليه الرصاصات من الخلف ، ثم يحمله فى ستار الليل ؛ ليلقى به فى مكان مهجور ! ، ويعود إلى منزله " مرتاح الضمير " .

وإلى هنا والقصة تبدو كغيرها من قصص الجريمة التى لم تعد نادرة فى عصرنا ، لكن المثير هو تعليل القاتل لجريمته ، فقد قال للشرطة : نعم لقد قتلت صديقى ! .

والسبب أن كلينا لص إحتراف أعمال السرقة من زمن بعيد ، لكنى أريد أن

أتوب ، وأستقيم على حين يحرضنى زميلى على الإستمرار فى حياة الضلال ! ، لذلك فقد سافرت إلى بلدتى وإشتريت سلاحى ، وقررت أن أبدأ توبتى بقتل صديقى ، حتى لا يردنى عن عزمى ونيتى فى حياة الصلاح ! .

هذه قصة إنسان يريد أن يصحح طريقه ولو تأملناه لوجدنا الكثير مما يستحق التفكير : فهو يعرف ويعترف أنه لص شرير ، وهو لا يرضى عن حياة الشر ، ويريد أن يحيا حياةً شريفة ، بل هو أيضاً يعزم عزماً أكيداً على التوبة ، ويتخذ خطوات فى إتجاهها ويريد أن يقطع مسبقاً كل ما يمكن أن يرده عنها حتى لو كان صديقه ورفيق حرفته ! .

لذلك نستطيع أن نقول : إنه - بحسب جهة نظره - إنسان مخلص ! ، لكن الخطأ الذى سقط فيه أنه يريد أن يصنع التوبة على هواه ! . إنه يستجيب لحاسته وضميره ، لكنه لا يستلهم صوت السماء ، ولا يسترشد بروح الله ! ، فتجئ توبته نشاذاً فى إبتهالات الخاشعين إنه يندفع كالفراش نحو النور ، فلا يلقى سوى حتفه بين ألسنة الوهج ! .

مقاييسنا الخشنة

وقد يتبادر إلى الذهن أن اللصوص والقتله وغيرهم من فاعلى الكبائر هم أكثر بعداً من سواهم فى الصورة المثلى للحياة الإنسانية كما أرادها الله أن تكون .

وهذه النظرة - وإن كانت منطقية ومقنعة من جانب ما - غير دقيقة ، والأخذ بها يعرضنا لنتائج وخيمة تنعكس على حياتنا بجملتها : فإذا كانت أشياؤنا المادية تقاس بمقاييسنا المادية فلا غبار على ذلك ، أما إذا إستعملنا المقاييس والموازين المادية نفسها فى تقويم الأسس الروحية للعلاقة بيننا وبين الله فإننا نخطئ كثيراً ؛ لأن موازيننا قاصرة ومقاييسنا خشنة ! .

وهل يوزن الذهب بميزان القبان ؟ أو هل تقاس السماء بالشبر ؟ .

الكل فى الجرم سواء

إذا نظرنا إلى الناس بعين الشرطة فإننا نرى بين البشر من يمكن أن نسميه بالمجرم المحترف والمجرم المؤقت ، والمجرم تحت التمرين ! ، وهكذا فليس

الأشرار فى الجرم سواء ! ، هذا من وجهة نظر رجل القانون أو الشرطة .

ولكن أسس التقويم تختلف وتتغير على حسب مستوى الناس فى مجتمع معين ، فكلما إرتقى الناس ، وسمت أخلاقهم - تطلبنا منهم إحراز مستوى أرفع من القيم : فإذا كان القتل مثلاً دليلاً على الإجرام فى مجتمع متحضر - فإن مجرد القذف والسب قد يعتبران غاية الإجرام فى مجتمع أكثر سمواً من الأول .

وهكذا كلما سمت المبادئ إتسعت دائرة الإتهام ، وإمتدت أصابع الإدانة ؛ لتشير إلى أعداد أكبر من البشر ، فماذا يكون الأمر فى عين الله القدوس والملائكة الأطهار ؟ ، ألا يكون مجرد التفكير فى الشر جريمة سوداء ؟ ، ألا يكون مجرد فكر الحماقة خطيئة تستحق الإدانة والموت ؟ .

لقد أخطأ الناس كثيراً عندما جعلوا القانون الجنائى مقياساً لصلاح الناس أو شرهم ، فقد إجتاز الكثيرون هذا الإختبار بنجاح كبير ، فظن أغلب الناس أنهم أبرار والحقيقة أنهم أبرياء أمام القانون الجنائى وصالحون بمقاييس الدستور البشرى ، لكنهم جميعاً مجرمون ضالعون فى الإجرام أمام قوانين السماء ، وأمام قداسة الله وطهارة عينيه ، وعداله أحكامه ! .

فأمام تلك المقاييس لا فرق بين من تلوثت يداه بالدماء ومن تلوث لسانه بالكذب وأفكاره بالسوء ، فجميعهم لا يثبتون أمام النار الإلهية الفاحصة ! .

ولعل أحدهم يقول : أليس هناك فرق بين من يخطئ أحياناً ومن يقترف الشرور كافة بألوانها وأنواعها ؟ .

أليس أولهما أقل شراً من الأخير ، أو أكثر صلاحاً منه ؟ .

ولعل الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن توضع فى صيغة سؤال آخر هو : وهل هناك فرق بين مسافر فاته القطار قبل أن يصل إليه بدقيقة واحدة ، وآخر وصل بعد ساعة من قيامه ؟ ، وهل هناك فرق بينهما إذا كان أحدهما وجيهاً متأنقاً على حين الآخر حافٍ رث الثياب ؟ ، أليس الهدف المنشود هنا هو إدراك القطار وقد فاتهما كليهما ؟ .

والقطار هنا هو الرضا الإلهى عن حياة الإنسان . وهيهات أن تكون حياتنا موضع الرضا الإلهى بعد أن تلوثنا بألوان الشر كافة - على درجات متفاوته - أقل ما فيها يحجب عنا أبواب السماء ! .

الإنسان لا يستطيع أن يصلح ذاته

وليس معنى ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يسمو بنفسه ويهذب سلوكه ، ويضع له مُثلاً سامية وأهدافاً أعلى ، فقد رأينا على مر التاريخ أناساً مهذبون إستطاعوا أن يبلغوا مستوى رفيعاً من الرقى الأخلاقى والسلوكى ، وشُهد لهم بالإستقامة والخلق الحميد ، ولا شك أن كل إنسان مسئول عن تحقيق ذلك أيضاً فى حياته .

لكنّ هناك خطراً كبيراً فى أن نخلط بين هذا وبين ما يتطلبه الرضا الإلهى عنا فالصلاح الذى يطلبه الناس منا ميسور مقدور عليه بكثير من التدريب وقهر الذات ، لكن الصلاح الذى يطلبه الله منا هو النقاء والطهارة الكاملة والقدسية الشاملة التى تسمح لنا أن نتراءى أمام محضره القدوس ، وهذه لا طاقة للإنسان - أى إنسان فى الوجود - أن يصل إليها بسعيه وتدريبه وحيدانه عن الشر أو ممارسته للخير مهما فعل فى حياته - طالت أو قصرت .

لماذا ؟

لأن إرادته ساقطة ورغباته ملوثة ، وأفكاره دنيوية هابطة ، لذلك نحن نحتاج إلى تغيير طبيعتنا المشتهية وإرادتنا الساقطة .

الله وحده يستطيع

عندما يرى الجراح الماهر أن القلب قد تهرأ ، وأن إصلاح صمامه أو إستبداله بآخر لن يحل المشكلة - فإنه يستبدل القلب العليل بجملته بقلب آخر جديد ! ، وهذه هى نقطة البداية الحتمية التى لا يمكن الإستعاضة عنها بعمل آخر ، ونحن لا نحتاج إلى أصلاح القلب ، بل إلى تغيير القلب بجملته . ولأننا لا نستطيع تغيير قلوبنا بأنفسنا فلابد إذن من أن نعهد بذلك إلى الجراح الماهر القادر ! .

ومع الفارق الكبير بين هذه الماديات المحدودة وبين العمل الإلهى العظيم - فإننا نحمد الله ، لأنه الطبيب الذى يستطيع أن يغير قلوبنا كلية فيهب لنا حياة جديدة ، وينقذنا من موت أكيد ! .

إنها عملية خلق جديد لإنسان جديد ! .

فلنطرح العقاقير المسكنة جانباً

إن صاحب القلب السليم لا يفكر فى حياته كثيراً ، وصاحب القلب العليل يتناول العقاقير أما صاحب القلب المتهرئ الذى يدرك جسامة مصيره وموته المحقق فإنه يتمنى بل يسعى جاهداً لإستبدال قلبه الفاسد بآخر جديد ! ، وهذا هو الفارق بين من يظن أنه بخير ، ومن يعلم أنه على أبواب الخطر ، ومن يدرك فداحة المصير المحتوم .

لذلك لا يدهشنا أن نرى كثيرين من أصحاب المثل العليا - بحسب مقاييسنا البشرية - أبعد الناس عن إدراك الله والتماس عفوه ورضاه ؛ لأنهم يظنون بأنفسهم الخير ، أما الأشرار على حسب تصورنا - فهم أقرب إلى التوبة ؛ لأنهم يطلبونها - إن فعلوا - بدموع صادقة ! .

والحكيم من بنى البشر من لا يقيس صلاحه بمقاييس الناس ، فيستكين إلى ما هو عليه من حال غير مدرك لما فى القلب من داء ، بل يطرح المسكنات والعقاقير والإيحاءات الخادعة جانباً ، ويسرع إلى طبيب النفوس الأعظم الذى خلق الإنسان بنسمة حياة من فيه ، إذ هو سبحانه القادر على أن يخلق من الإنسان الساقط إنساناً جديداً بنفحة روحه القدوس .

الإنسان الجديد

فإذا كان الإنسان تاج الخليقة ، لأنه صاحب عقل وإرادة حرة - فهو فى الوقت نفسه صاحب تجربة فاشلة بسبب سقوطه وضلاله ومحاولاته البشرية للإقتراب إلى الله بطبيعته الساقطة الملوثة وقلبه الخادع الأثيم ، لكنه يستطيع الآن أن يحقق مستقبلاً مشرقاً إذا هو جثا على ركبتيه فى خشوع ودموع معترفاً بجرمه ، وإتساع الهوة بين صلاحه النسبى وقداسة الله المطلقة الشاملة .

عندئذ يكشف الله له طريق الخلاص ويدخله سبحانه فى " حجرة العمليات " ، ليجرى له عملية خلق جديد ، ويعطيه قلباً جديداً ، وفكراً جديداً ، وروحاً جديداً مغتسلاً مطهراً بروح الله القدوس ، فتنفتح أمامه أبواب الرضا الإلهى ، ويصبح إنساناً جديداً عينه فى السماء ورجاؤه فى السماء ومستقبله فى السماء ! .

إن الحية لا تكون إقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة

(حكمة هندية)

مجرمون خارج قفص الإتهام

إن المعنى وراء الحكمة الهندية القديمة التى تقول : إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .. أننا جميعاً على قدر من الشر ، وشركاء فى جرائم متنوعة حتى لو لم تصدر ضدنا أحكام تديننا أو تفضحنا ، والتبرئة التى يمنحها المجتمع لنا ليست دليلاً على بر أو صلاح حقيقى ! .

دهم القطار السريع سيارة الأتوبيس وهى تعبر " المزلقان " فقتل عشرات الركاب ، وجرح المئات ، فكانت واحدة من المآسى الدامية ! .

وحينما تقع هذه الحوادث فأنها تشغل بال الناس ، ويجتمع حولها إهتمام العامة والخاصة وتحتل الصور صدر الصحف ، ثم لا تلبث أن تهدأ مشاعر الناس ، فيقل إهتمامهم ، وينتقل إلى حدث آخر جديد ، أو قل يلهيهم عن المهم ما هو أهم ، ويصبح الأمر كله مجرد (ملف) جديد فى قاعة أحدى المحاكم .

وأمام القضاء يتبارى المتحدثون فيصولون ويجولون ، وتنتهى الرواية بإرسال واحد أو أكثر إلى غرفة من زنزانات السجن ، ثم يغلق الباب ، فقد إنتهت القضية .

لكن هذا الواحد السجين كثيراً ما يكون مجرد فرد من جملة المسئولين عن الحادث ، وهو فى الغالب شخص بسيط قليل الشأن " كغفير المزلقان " أو " عامل البلوك " أو حارس أو شرطى .. إلخ .

وهو ليس بالقطع أكثر المسئولين جرماً ، لكنه أقربهم إلى إصبع الإتهام وأسوؤهم طالعاً فمواد القانون إنطبقت أو أطبقت عليه دون سواه ، فكان نصيبه السجن ! ، ويبقى خارج قفص الإتهام كثيرون لا تستطيع العدالة أن تصل إليهم ، ولا يعلم بأمرهم إلا علام الغيوب : فهناك مهندسو وعمال المصنع الذى صنع القطار ،

ومهندسو وعمال المصنع الذى صنع السيارة ، وهناك عشرات المسئولين الذين ثبتوا القضبان الحديدية والذين صمموا البوابات أو وضعوا الأسلاك أو نفذوا التركيبات الهندسية أو (الميكانيكية) أو اللاسلكية . وهناك عمال الصيانة وموظفو التفتيش ، وغيرهم كثيرون كان لهم جانب فى المسئولية الجنائية ، لكن دورهم كان مستتراً ! .

والقضايا كثيرة ، والحوادث متعددة والجرائم منوعة . وخلف كل حدث من أحداث الحياة يقف منهم واحد فى العلن ، ويبقى عشرات فى الخفاء ! .

فهناك إلى جانب الفاعل الأصيل من شارك أو شجع أو أوحى بفكرة الجريمة أو هيأ الظروف المواتية لها .

فكثيراً ما كانت بعض الكلمات القليلة التى ألقى بها أحد المارة جزافاً على مسمع من شخص ما سبباً فى شحن ذهنه بأفكار معتمة تقوده إلى جريمة ما ، أو قد يكون ما تركه بعض المعلمين أو الآباء في ذهن صبى أو طفل صغير من آثار قديمة سبباً فيما أصاب حياته وحياة المحيطين به من تعس وشقاء ! ، بل ربما قاده ذلك إلى الشر والجريمة ، فهم بذلك شركاء فى الشر لا تصل إليهم إصبع الإتهام .

وكم من مجرم خارج قفص الإتهام ، بل ويحظى بإحترام الجماهير والمجتمع كله ! ، فقد يكون وراء الجريمة قلم كاتب صحفى أو أديب أو مؤلف ! . وقد يكون المجرم الأصيل ممثلاً أو مخرجاً أو مصوراً لأحد الأفلام ؛ فهو الذى أوحى بالجريمة ، وألقى بذرتها الأولى فى عقل إنسان ما في موقع بعيد ، فحمل البذرة وأنماها ، فأثمرت جريمة كاملة وقف بسببها المسكين وحده فى قفص الإتهام .

وليس مرادنا هنا أن نضع الإتهام على رءوس الناس ، فنحملهم إلى أقفاص الإتهام فهذه ليست مهمتنا ، بل هى موكولة للعدالة الإلهية ، ففى سجلات السماء العلوية تسجيل حقيقى لكل ما صنعته أيدينا من خير أو شر ، لكننا نسعى لكشف الستار عن ميولنا المنحرفة ؛ حتى نتفادى من السقوط فى تلك الجرائم المستترة ، فلا نشارك أو نوحى أو ندفع الآخرين إليها ، ولا نتسبب فيها بالفعل والقول والعمل الإيجابى فيها ولا بالتهاون والإهمال والموقف السلبى إزاءَها ، فما أشر أن أكون مذنباً دون أن أدرى أو أجد نفسى فى سجلات السماء واحداً من المجرمين حين أظن أننى قد جاهدت الجهاد الحسن وأكملت السعى ، وحفظت الإيمان ، ولم يبق لى غير أن أنال إكليل المجد والخلود ! .

حين يمسك الواحد منا صحيفة رسمية تشهد بخلوه من السوابق الجنائية ، وتشهد أنه لم يرتكب جريمة أو عملاً خارجاً أو مخلاً بالشرف ، وأنه حسن السير والسلوك - يقفز إلى أذهاننا سؤال هام هو : هل أنا حقاً كذلك ؟ .

من سوء طالع الإنسان أن كثيراً من الشهادات الرسمية تضلل صاحبها مثلما تضلل الآخرين فهى تعطى كثيراً من الأخطاء التى ارتكبها شرعية ، وتتستر على نقائصه وعيوبه التى يخجل منها حين يطوى هذه الأوراق الرسمية .

حتى الشهادات الدراسية والألقاب العلمية - فإنها كثيراً ما يغتر بها صاحبها ، ويُخْدَعَ بسببها الآخرون ، فيرون نقائص أصحابها وكأنها فضائل تحتذى ، ومُثل يقتدى بها ! .

ولا يُنكر أحد فضل العلم والمعرفة ، ولا أهمية المراكز الإجتماعية العليا ، لكن هذا ليس بالقطع دليلاً على طهارة النفس ونظافة القلب ؛ فالحية لا تكون أقل سمّاً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة ! .

والذى يرى عقرباً يفترض فيها السوء ، ويتوقع منها الشر ، فيأخذ منها الحذر ، لكن جرثومة المرض الخبيث المختبئة خلف وجه جميل ومظهر براق لا تلحظها العين ، ولا تدركها قبل أن يسرى سمها فى أوصاله ! .

والنظرة السطحية والتقويم المظهرى لحياتنا قد يقنعنا أو يقنع المحيطين بنا أننا أبرياء حقاً ، وأن داخلنا نظيف كوجوهنا ومظهرنا ؛ وهذه خدعة نحتاج أن نواجهها فى حسم وقوة .

الأشياء التى تخدعنا

هناك أشياء كثيرة تخدعنا ، بل هناك عوامل كثيرة تجعلنا نخدع أنفسنا ، ونغلق عيوننا عن واقعنا ! .

من هذه العوامل :

ذلك الميل الطبيعى لإضفاء المحاسن على أنفسنا والرغبة الذاتية فى التستر على عيوبنا ، ثم محاولاتنا إسكات ضمائرنا وتهدئة ثورتها .

لكن أبرز الأسباب هى أننا :

١ ـ نحن نقارن أنفسنا بمن هم أكثر منا إجراماً

جلس حارس القبور الشيخ على مقعد خشبى متهالك ، وأخذ ينبش الأرض بعود من الحطب ، وراح يفكر فى حزن شديد ، إذ لم تكن تلك الليلة ككل الليالى الباردة التى إعتادها الرجل المسن ، كانت أكثر وحشة من كل الأمسيات التى قضاها بين القبور ! ، فقبل أيام كان قد أودع جثمان زوجه إحدى الحفر ، وواراه بالتراب ، ثم جر ساقيه إلى غرفته الخالية فألقى بجسده الثقيل على المقعد القديم وهو يقول : لم يعد للحياة طعمٌ أيها الرجل ، وخاصة فى هذا المكان .

فحين فقد الشيخ رفيق عمره فكر فى النزول للمدينة للبحث عن عمل آخر ، وفى الزحام ضاع الرجل بين الأشداء ، فسوق المدينة ملئ بالحياة والحركة . وأحس بالتعب والإعياء الشديدين فعاد إلى غرفته حزيناً صامتاً . وفى الصباح التالى قال الرجل : سأذهب إلى السوق أبيع وأشترى وألتقط رزقى . وفى السوق خاب أمل الشيخ ؛ فالحياة الصاخبة فى السوق لا يستطيع مثله أن يجاريها ! . وفى تلك المرة عاد الرجل إلى مقعده الخشبى المتهالك وجلس يجفف العرق البارد عن جسده المهدود ! ، قال يحدث نفسه : لقد أصبحت شيخاً فانياً يا (صابر) لا حياة لك فى المدينة ، إن مكانك هنا بين القبور ... ! .

وتذكر (صابر) زوجه حين كانت تداعبه قائلة : " لا بأس أيها الشيخ ، أنت أكثر حيوية من جميع جيراننا " ، وتضيف ضاحكة : " إنك الوحيد هنا الذى يستطيع أن يتحرك ويتكلم ويأكل " ! .

قال العم (صابر) : " رحمك الله يازوجى شجعتنى وأعطيتنى الإحساس بالحياة برغم شيخوختى وفنائى ، وحين صرت عاجزاً عن السعى بين الأحياء جعلتنى بطلاً بين الأموات ! " .

ونحن كثيراً ما نناقش حياتنا بفلسفة عم (صابر) ، إننا نرى أنفسنا أفضل من المحيطين بنا ، لكن هذا لا يؤثر فى الحقيقة الواضحة أننا نحن أيضاً أموات قتلتنا ذنوبنا وآثامنا وخطايانا العديدة ، فإذا كان فينا نبض حياة ـ فقلوبنا تحمل إرادة ميتة وفكراً مريضاً .

فإذا كنا أفضل حالاً من إخواننا داخل أقفاص الإتهام - أو داخل السجون - فذلك لأننا أفضل منهم فى الظروف فقط إذ لم تتحول نوايانا بعد إلى فعل مكشوف ولم نقع بعد تحت طائلة القانون ، فنحن لا نعدو أن نكون مجرمين خارج قفص الإتهام ! .

---

٢ - نحن نعايش أنفسنا ، فنعتاد شرورنا

للكاتب الأمريكى " **جيمس إجرى** " (توفى ١٩٣٧) ، قصة شهيرة تقول : إن صياداً أمسك نسراً صغيراً ، ووضعه فى حظيرة الدواجن يطعم من طعامها ويشرب من مائها ، وينبش الأرض بحثاً عن حبات القمح كما تفعل الطيور ، ومرت الشهور وأصبح الطائر الصغير نسراً كبيراً ضخم الجثة عظيم الجناحين ، لكنه ظل ينبش الأرض ويأكل الحب ويبيت فى الحظيرة ، وحين رآه أحد علماء الطيور ساءه أن يستهان بحياة ملك الطيور وسلطان الجو حتى يحيا هذه الحياة الذليلة ! ، فحاول إطلاقه أو حثه على الطيران ، لكنه لم يكن يعرف من أمره سوى تلك الحياة الدنيا - حياة الدواجن ! . فقد إعتاد الضعف والذلة والخنوع وأصاب الشلل أجنحته القوية ، ورغبته المتطلعة ، فإستساغ طعم القمح ، وألف رائحة الحظيرة ، وإستطاب عشرة الطيور الصغيرة .

ونحن حينما نعايش ضعفنا فإننا نألف حياتنا الضعيفة ، ونلازم أفكارنا ، فنألف قصور مداركنا ! .

إننا نرى وجوهنا المشوهة فلا تقشعر منها أبداننا ؛ فقد إعتادتها عيوننا ، وإرتضتها .

نحن نحمل وجهاً قبيحاً بين الوجوه المشوهه ، فنحن خطاة فى أرض الخطايا لم تعد ترعبنا أوحالها ، ولا تؤذينا رائحتها العفنه ! .

كل ما يهمنا ألا تكون خطايانا أكثر وضوحاً من سوانا ؛ حتى لا تتجه الأنظار إلينا ، فنصل إلى قفص الإتهام ! .

---

٣ - نحن نتوافق حقاً والقيمُ الاجتماعية

من أكثر الأشياء التى تخدعنا ، فنظن أننا أبرياء صالحون - أننا نجد أنفسنا متوافقين مع ما يرسمه المجتمع من نظم إجتماعية ، فنحن لا نخرج عن العرف ، ولا

نخالف القيم الاجتماعية .

وحين نغتر بذلك فإننا نتجاهل أن تلك القيم وهذه النظم إنما وضعت فقط لكى تنظم سلوك الأفراد حتى تستقر الحياة الإجتماعية ، فلا تتحول تلك الحياة إلى فوضى ، ولكن هذه القيم ليست دائماً . المقياس الأمثل للسلوك ، وليست على أية حال معياراً لنقاء النفس البشرية .

فقصة القيم الإجتماعية كما يفسرها علماء الإجتماع هى أنه أتى على حياة الإنسان حين من الدهر لم يكن يسوده قواعد أو نظم بل كان أمر الحياة متروكاً لحرية الأفراد يفعلون ما يريدون بلا سلطان أو رقيب ! ، فكانت الحرمات مستباحة ، وكان الإنسان كالذئب يأكل أخاه الإنسان بلا تحديد أو تحريم ! ، لذلك كان لابد من وضع تنظيم إجتماعى يحدد قواعد السلوك ، وأصبح الخروج على هذه القواعد إنحرافاً وجرماً ، ومن ثم أصبح المجتمع يحدد ماهية السلوك العادى وماهية السلوك المنحرف أو الإجرامى وفقاً لتلك القيم التى وضعها .

وعلى ذلك فإننا نجد أن الجريمة ليست جريمة فى ذاتها ، وإنما هى كذلك بالنسبة لمجتمع معين .

ومن الجانب الآخر فإن حكم البراءة الذى يعطيه المجتمع ليس تبرئة فى ذاته ، بل هو تبرئة فى حدود قواعده العامة ، وشهادة المجتمع لى ليست دليلاً على أنى أعيش حياة بريئة حقاً ! .

والدليل على ذلك أن اللصوص فى الدولتين اليونانية والرومانية كانوا يحظون بالإحترام والتقدير من المجتمع إذا هم سطوا على الأجنبى ! .

وفى روما القديمة كان قتل الأطفال أمراً مقبولاً إذا كان الطفل مصاباً بعاهة أو بمرض عقلى أو حتى إذا كان غير مرغوب فيه من والديه ! ، وفى هذه الحالة لم يكن القاتل يعتبر مجرماً فى القوانين الاجتماعية ! .

وكلنا يذكر أن المجتمع العربى فى الجاهلية كان يبرئ الأب القاتل أيضاً حين يئد البنات خشية الإنحراف أو الفقر ! .

ويذكر ديودور الصقلى أن بعض المجتمعات كانت تعتبر الشذوذ الجنسى فضيلة من الفضائل ، وتعتبر عدم التمسك به جريمة شائنة ! .

وكان أفلاطون (فى جمهوريته) ينظر إلى الجنسية المثلية نظرة إحترام وتقدير ، وفى سيبيريا كان الرجال الشواذ ذوى مكانة مرموقة فى المجتمع ، إذا إعتبروهم مقدسين ! .

أليس كذلك دليلاً على أن توافقنا وأحكام المجتمع ليس دليلاً على نقاء صفحتنا ؟ .

إن الكثيرين منا يتمسك بالعرف والتقاليد إلى حد التعبد لها ، ذلك لأنه يرى فيها حماية له من الإتهام . هذا حسن ، لكن وجه الخطورة فى ذلك أنه عندما نجد أنفسنا أبرياء أمام قانون القيم الإجتماعية - قد نخدع ذواتنا ونعتبر أنفسنا قديسين أبرياء ، ونحن فى واقعنا وجهة لامعة مصقولة تختفى وراءها حقيقة مرعبة هى أننا مجرمون خارج قفص الإتهام حيات تحمل على رءوسها جواهر ثمينة ! .

فما جريمتنا التى لا نراها ، ولا تحدثنا عنها القيم الاجتماعية ؟ .

هى خطايانا المستترة ..

١٤ - مبادئ إنسانية ..

إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة

(حكمة هندية)

خطايانا المستترة

إن المعنى وراء الحكمة الهندية القديمة التى تقول : إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .. أن لنا خطايا لا يراها الناس ، خطايا مستترة لا يعرفها الآخرون ، لكنها تحطم حياتنا من الداخل مثل : الحسد والحقد والكراهية والخداع .. إلخ . وجميعها خطايا مهلكة تفسد الحياة ، وتقطع العلاقة بيننا وبين السماء .

حين جنحت السفينة الصغيرة ، وإصطدمت هى والجبل دهش الناس ، فقد كان قبطان تلك السفينة مشهوراً بخبرته الواسعة ومعرفته الدقيقة بأسرار البحر ، ولم يكن هناك شك فى أن شيئاً ما حدث فى تلك الليلة بصورة غير طبيعية أودى بحياة ومستقبل رجل من خيرة الرجال .

ومن حطام السفينة عُرف السبب : فقد قام أحد البحارة بتنظيف صندوق " البوصلة " فى اليوم السابق للحادث المروع مستخدماً فى ذلك سكيناً كبيرة من الصلب ، ولكن مع الأسف أخطأ خطأ جسيماً حين نسى السكين داخل الصندوق وهذه السكين جعلت الإبرة المغناطيسية تتجه إتجاهاً خاطئاً أدى لوقوع الكارثة ! .

وهذه الصورة تستحق التأمل ؛ فالسفينة هنا لم تكن قديمة متهالكة ، ولم يكن القبطان أحمق أو متهوراً ، بل كان كل شئ سليماً وصالحاً ، لكن الشر كان مختبئاً ومستتراً فلم تره العيون حتى كانت النهاية المظلمة .

وكثيراً ما تكون هذه الصورة مطابقة لحياتنا تماماً : فقد نبدو من الخارج فى صورة براقة ، ولكن الشر المستتر فى داخلنا يطفو يوماً على سطح الحياة حاملاً معه الهلاك .

وفى هذه الحلقة نتأمل معاً فى حياتنا الداخلية ، لنواجه خطايانا الخاصة التى لا يراها الناس ، ونفتش فى أعماقنا عن شرورنا الكامنة وخطايانا المستترة .

الساق الواحدة القصيرة

رأيت حيوان " الكنغر " فى حديقة الحيوان وهو غريب حقاً على بيئتنا ، ولذلك فإنه يثير فضولنا ، ولابد أن تبتسم وأنت ترى الكنغر الوليد وهو يطل برأسه الصغيرة من الكيس الذى فى أسفل بطن الأم ، لكن أكثر ما يسترعينى الطريقة التى يتحرك بها هذا الحيوان ، إنه لا يمشى ولا يجرى لكنه يقفز فى الهواء قفزات سريعة متتابعة ، والسبب فى ذلك أن له رجلين قصيرتين وأخريين طويلتين ، أما فى عالم البشر فقد جعل الله للإنسان رجلين متشابهتين يخطو بهما ، فتبدو خطاه متزنه متناسقة .

وقد إستخرج الناس من ذلك صورة بليغة يميزون بها الرجل الصادق من الرجل الكاذب فهم يقولون فى الأمثال : " إن الكذب ليس له رجلين " ، أى : أن كلام الكذب يخرج متعثراً . وقد أضاف الألمان إلى ذلك تشبيهاً طريفاً فقالوا : إن الكذب له ساق واحدة قصيرة ، فهو لابد أن يسقط . وهذه الصورة الجديدة إقتبسها الألمان من حياة وزير الدعاية النازى غوبلز الذى مات منتحراً سنة ١٩٤٥ ؛ فقد كان غوبلز خطيباً وكاتباً قديراً ، لكنه كان كذاباً مخادعاً ، وقد وضع سياسته الدعائية على أساس تلقين الكذبة الكبرى بتنويع تكرارها . وقد نجح الرجل إلى حين ، لكن جاء اليوم عندما إنكشفت أكاذيب الوزير صاحب الرجل القصيرة الواحدة ، وصار مثلاً للكذب الذى يهلك صاحبه .

والكذب نقيصة من النقائص الكبرى فى حياة الشرفاء ، ومع ذلك فهو ليس جريمة يعاقب عليها القانون فى كل الأحوال ، وقد لا يتورع عن إستخدامه بعض رجال القانون أنفسهم دفاعاً عن موكليهم ! .

لكن الكذاب فى نظر الله مجرم كالسارق والقاتل ، إنه يحاول أن يخفى الحقيقة ويخدع الناس ، والله سبحانه هو الحق وهو الذى يكشف الكذب والخداع . لذلك فالكذب الذى لا يحاسب عليه القانون إنما هو عند الله جريمة بشعة .

وقد يصدقك الناس حين تكذب ، لكنك عندما تخلو إلى نفسك تحتقر ذاتك ، وإذ ترفع عينيك للسماء تجد السماء آسفة .

لقد أعطاك الله لساناً ناطقاً لتشهد بالحق ، فإذا أنطقنا لساننا بالكذب فقد صيرناه آلة فى يد الشيطان ! .

حين تكذب ياأخى تحسس رجليك ، وراقب خطواتك المتعثرة ، فأنا أخشى أن تكون قد أصبحت لك ساقٌ قصيرة واحدة ! .

إذا كنت لا ترى فى الكذب جرماً فأنظر فى عيون الناس وأنت تكذب ، لترى كيف يقرءون خداعك فيخجلوا نيابة عنك !

وأرفع عينيك إلى السماء ، لتعلم أن الله نور ، وأطرق إلى الأرض ؛ لترى ما أنت عليه من هوان ! .

تمثال ثيوجينس

إهتم الرومان بالمصارعة ، فعدَّلوا قوانينها الخشنة ، فأصبحت لعبة مفضلة ، وصار للمصارعين المحترفين مقامٌ رفيع . لكن ثيوجينس كان دائماً فى المقدمة ، وإعتبره الناس أميراً للمصارعين ؛ فسعد لذلك بعض ، على حين إمتلأ آخرون غيظاً وحسداً . فلما أقيم تمثال ضخم لثيوجينس تمجيداً له وتخليداً لبطولته إشتعلت نار الحسد فى قلب أحد زملائه ، فصار - كلما أقبل الليل وأسدل الظلام ستره على جبل الأولمب - يذهب إلى حيث وُضع التمثال ، فينهال عليه ضرباً ولطماً وركلاً ، فيوقع فيه من الأذى ما يشفى غله وغليله ! ، ثم يعود بأيد دامية ورأس متورم ! ، غير أن هذا لم يكن يشفى ما بقلبه من غيظ وحسد حتى جاء يوم خرج فيه الناس ليجدوا التمثال الضخم ساقطاً من فوق قاعدته ومنكفئاً على الأرض ، ومن تحته ترقد جثة المصارع الحسود ! .

والحسد ليس جريمة أمام القانون ، ولا يناقشه القضاة فى ساحات المحاكم ، لكنه جريمة مستترة داخل قلوب الكثيرين .

والحسد جريمة ؛ لأن الحاسد لا يرضى ولا يقنع بما قسم الله له من خير ، وهو يوجه لوماً مكتوماً لله ؛ لأنه لم يعطه ما أعطى غيره من نعم ، بل ويستبد الحسد بصاحبه حتى يتمنى زوال النعمة وتحولها إليه .

والحسد جريمة ؛ لأنه يقود إلى الحقد والبغضة : فعندما ألقى بنو يعقوب أخاهم يوسف فى الجب مضمرين قتله - كان ذلك الفعل المنكر هو الثمرة الظاهرة للبذرة

الدفين وهى الحسد ، كان القتل هو الجريمة السافرة وكان الحسد الخطيئة المستترة .

وقد لا تتلوث أيدينا بدماء قتيل ، لكن قلوبنا قد تكون ملوثة بالحسد ! .

وبينما يرانا الناس أبرياء صالحين - فإن الله يرانا ساقطين تحت تمثال ثيوجينس وقد قتلنا الحسد ونحن أحياء نسعى ! .

فى قلبى حجر ثقيل

لاحظ أحد المربين أن شاباً من تلاميذه أصبح عابس الوجه صارم الملمح بعد أن كان باسماً ضحوكاً ، فلما ناقشه ذلك صارحه قائلاً : إن حجراً ثقيلاً يجثم على صدرى إنه يملأ قلبى فلا أستطيع أن أنطلق ! .

ولم يكن هذا الحجر سوى شعور بالكراهية والبغض لواحد من زملائه كان قد إختلفا معاً فى أمر ما ، ومع أن ذلك الأمر كان قد مضى وإنقضى - فإنه ترك من ورائه حجراً ثقيلاً فوق صدر صاحبنا ؛ إذ لم يستطع أن يعفو أو يغفر أو يسامح ! .

وقالت سيدة فى السبعين من عمرها : قالت لى أمى وأنا صغيرة : إنها تكرهنى ؛ لأن وجودى قد حرمها الزواج بمن تحب ! . ومنذ ذلك اليوم وأنا أحمل فى صدرى هذا الحجر الثقيل ، لأنى لم أستطع أن أغفر لها ، وظلت الكراهية جاثمة على صدرى حتى أصبحت عجوزاً ، فلم أعرف للسعادة طريقاً ! .

حين يمتلئ القلب بالكراهية فإنه لا يتسع لشئ أخر ، إن الكراهية سم قاتل حين يسرى فى جسد الإنسان فإنه لا يترك مكاناً لنبضات الحب .

وقديماً كان السفراء والرسل ينفضون نعالهم على باب المدينة إذا لم يُستجب لندائهم أو تقبل رسالتهم وكان هذا يشير إلى أنهم يبرئون أنفسهم حتى من تراب هذه المدينة ، ويوجهون لها الإنذار الأخير .

لكن مفكراً يدعى ستانلى جونز يضيف إلى ذلك معنىً آخر فيقول : حين نختلف نحن وشخص ما فإن غباراً كثيراً يتطاير ليملأ جو العلاقة بيننا ، وبعد أن تنتهى المشاحنة ، ويهدأ الميدان - يظل بعض هذا الغبار عالقاً برءوسنا . وعلينا أن ننفض هذا التراب عن نفوسنا ، وأن ننظف قلوبنا من آثار الخلاف ، علينا أن

نغسل رءوسنا وأقدامنا ، وأن نجلو عن عقولنا وسخ الميدان ! .

وأنت إذا فعلت ذلك إنطلقت روحك لتسمو فوق الحقد ، وإذا لم تفعل تحول الغبار إلى حجاب كثيف ، وأصبحت الكراهية حجراً ثقيلاً على صدرك .

إن القانون البشرى لا يعاقبنا على الكراهية ، وليس فينا من تقبض عليه الشرطة أو يودع السجن لأنه يكره أحداً . لكن الكراهية فى نظر الله خطيئة مستترة .

نحن نكره ؛ لأننا لا نغفر أو نسامح ،

ونحن لا نسامح ؛ لأننا لا نقدر أن نحب من يبغضوننا أو يسيئون إلينا .

ونحن لا نحب ، لأن الله ليس فى قلوبنا ، ولو أن الله ملأ قلوبنا لإستطعنا أن نحب وأن نغفر .

وإذا كنا ندعو الله أن يغفر خطايانا فكيف لا نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ؟ .

ويبقى أيضاً كثير من الجرائم الخفية والخطايا المستترة فى داخلنا نحن الذين نظن أنفسنا أتقياء صالحين ! .

إن شهادات التبرئة التى يقدمها لنا القضاء ، وشهادات حسن السير والسلوك التى يمنحها لنا المجتمع . وشهادات الأهل والأصدقاء لنا بحسن المعاشرة - هذه جميعها لا تجعلنا أبرياء من الخطايا المستترة التى نعرفها .

وبالرغم من التيجان التى نحملها فوق رءوسنا ،

وبالرغم من البطولات الظاهرية -

فإن عين الله تقول :

أنت مجرم !

ولابد للمجرم أن يدان .

إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة

(حكمة هندية)

هل نحن حيّات سامة ؟

إن المعنى وراء الحكمة الهندية القديمة التى تقول : إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .. أننا لا نحطم حياتنا فقط ، بل ننشر سمومنا فى من حولنا ، فنلدغ ونُلدغ ، فتحت أنيابنا سموم كثيرة قاتلة : كالأثرة والسلبية وروح الإنتقام والإنتقاد والتهيج السريع والتعصب الأعمى .. إلخ .

يخيل إلىَّ أنه حين رفع الحكيم " سقراط " كأس السم إلى شفتيه فإن الدهر قد توقف لحظة ليشهد النهاية الفاجعة لرجل حكيم يواجه الموت بنفس صافية ومسلك قويم ! .

لقد إستطاعت الكأس المريرة أن تنال من جسد الشيخ سقراط ، لكنها لم تنل شيئاً من روحه المستنيرة وتعاليمه الرائدة وقلبه الشجاع ! .

ومات سقراط أبو الحكماء ، لكن كأس السم ظلت تدور بين أيدى البشر ، وتجرع الناس السم ، لكن أجسادهم ظلت قوية سليمة ، على حين إعتلت أرواحهم وسقمت نفوسهم ، فالسم الذى يشربه الناس فى أيامنا من نوع آخر .

لقد علمتنا الأيام أن نأخذ الحذر ، فلا نعبث بجحور الثعابين أو شقوق العقارب وهذبتنا الحياة ، فأصبحنا نغسل الطعام ، وننقى المياه ، ونغلى اللبن ، ونطهر الجروح ونعقم الثياب .. إلخ ؛ حتى لا يتسرب إلى أجسادنا سم قاتل أو داء وبيل ! .

لكننا بالرغم من ذلك التطهر الخارجى فإننا نحمل فى داخلنا أنواعاً كثيرة من السموم القاتلة التى تسربت إلى حياتنا ، فملأت أنيابنا موتاً ، وجعلتنا نلدغ الآخرين حيناً ، ويلدغنا الآخرون أحياناً فلا نزال نَقتُل ونُقتَل ! .

الجرح ليس نافذاً ولكن ..

قبل أن تُخترع الأسلحة الآلية الفتاكة - كان الناس يتقاتلون بالأيدى والحجارة والحراب والسهام والأسلحة البيضاء كافة ، ثم إبتكر الناس الوسائل التى تجعل تلك الأسلحة أكثر فتكاً ، فكانوا يغمسون طرف السلاح فى مادة سامة ، والنتيجة أن مجرد خدش بسيط بطرف السلاح كان يكفى قتل العدو . والذى يتأمل قتيلاً من هذا النوع ، قد يدهشه ألا يرى جرحاً نافذاً أو إصابة خطيرة ، ومع ذلك فالموت محقق .

وهذا الموت المحقق هو أيضاً نصيبنا نحن الذين نظن أن أرواحنا طاهرة ، ونفوسنا سليمة - غير عابئين بما نظنه خدوشاً سطحية فى حياتنا : كالهفوات الصغيرة والخطايا الخفية والنقائص البشرية والميول الذاتية ؛ فهذه من وجهة نظرنا جروح ليست نافذة ، لكنها فى حقيقتها قوة مدمرة ، وسم زاحف فى حياتنا .

ونستعرض هنا بعض السموم التى فى داخلنا :

١ - السلبية NEGATIVISM

كثيراً ما نصطدم فى حياتنا وموقفٌ مؤلم حين نرى واحداً من أصدقائنا أو أقاربنا أو زملائنا فى العمل يرفض دائماً ما يقوله الآخرون أو يعمل أعمالاً مضادة لأعمالهم ! إنه دائماً يقول : " لا " ، بل ويحاول أن يقاوم الأفكار ويرفض الإلتزام بنصائح الأصدقاء أو تعليمات الرؤساء ، بل ويفعل عكس ما يقولون ! .

وقد يكون هذا الموقف موجّهاً ضد فرد واحد أو أفراد معينين ، ولكنه سرعان ما يصبح مرضاً مستعصياً ، فيعمل المرء دائماً عكس ما نتوقعه منه .

وهذه السلبية سم خطير على حياة صاحبها فهى تهدمه وتلاشيه كعنصر فعال فى مجتمعه بل وتمتد منه إلى جسد الجماعة بأسرها .

فحين يكون أحد أبناء البيت أو أحد أعضاء الجماعة أو أحد موظفى الإدارة سلبياً - فإن سعادة البيت ونجاح الجماعة وسيولة العمل تكون جميعها مهددة بالفشل .

ولو صدقت مع نفسك يا عزيزى القارئ (أو عزيزتى القارئة) ..

فستجد أنك كثيراً ما رفضت آراء وأفكار الآخرين ، مع أنك لا تملك بديلاً لها ! .

وكثيرا ما تعصبت لرأى عتيق كمنطلق لمعارضة كل نظرية جديدة أو رأى مستحدث أو فكر مجتهد ، ليس لسبب إلا لأنك لا تملك القدرة على مجاراة المفكرين وكان الأجدر أن تمتدح المجتهدين وتستفيد من خبراتهم وقدراتهم . أو - على أقل تقدير - كان ينبغى ألا تجرح الآخرين ، وتنفث السم فى وجوههم .

٢ - الأثرة (الأنانية) EGOTISM

وقف أحد الأساتذة يحاضر جماعة من القوم ويدافع عن مبدأ " البقاء للأصلح " فقال : لو أن قاربا تعرض للغرق وكان به عشرون راكباً ، نصفهم من الرجال الأقوياء الأشداء والباقى من العجائز والشيوخ ، وكان بإستطاعتنا أن ننقذ عشرة فقط ، فأى فائدة يمكن أن تعود على المجتمع من إنقاذ الضعفاء وترك الأشداء للموت ؟ ، أليس الأجدر دائماً أن ننقذ الأقوياء ؛ ليفيد منهم المجتمع ؟ . فأجاب أحد الحاضرين قائلاً : وأى فائدة ترجى من عشرة رجال أقوياء يقبلون النجاة بأنفسهم على حساب الضعفاء والشيوخ ؟ .

إن عشرة أقوياء تحكمهم محبة الذات هم شر على مجتمعهم من عشرة ضعفاء يحتاجون إلى العون والمساعدة ! .

فى علم النفس يقولون : إن " الأنانية " هى حب الذات : بمعنى النزوع الطبيعى الذى يحمل الإنسان على الدفاع عن نفسه وحفظ بقائه وتنمية وجوده ، وليس هذا شراً .

ولكن " الأنانية " فى علم الأخلاق هى حب الذات الشديد الذى يمنع صاحبه من حب أى شئ آخر غير نفسه . ولسان حاله يقول " إنما دنياى نفسى ، فإذا هلكت نفسى فلا عاش أحد ! " .

أو كما قال أبو فراس الحمدانى : " إذا مت ظمآناً فلا نزل القطرْ ! " .

والمتصف بهذه الأنانية يعلق مصالح الناس على مصلحته الخاصة ، وينظر إلى جميع الأشياء من زاوية نفسه .

فحين تسيطر روح الأثرة على صاحبها فإنها تفعل فى النفس ما يفعله السم فى الجسد فلا يعود الإنسان قادراً على إسعاد نفسه أو إسعاد من حوله ، بل يصبح ثعباناً ساماً يلدغ الآخرين ، ويسمم حياتهم الطبيعية .

٣ - إنتقاد الآخرين CRITICISM

والمقصود هنا ليس النقد بمعناه الأدبى أو الفلسفى أى : النظر فى قيمة الشئ وبيان عيوبه ومحاسنه ، بل هو نتاج تلك الروح التى تسيطر علينا ، فتجعلنا نرى عيوب الآخرين ، وتعطينا إحساساً كاذباً بمسئوليتنا عن تقويمهم وإصلاحهم عن طريق فضح عيوبهم ! .

هذه الروح التى تدين الآخرين ، وتنبش حياتهم وتتصيد أخطاءهم : سم مميت ! . إنها تسئ إلى صاحبها قبل أن تسئ إلى غيره ، فهى تعطيه إحساساً كاذباً بالتفوق والصلاح على حين أنه بعيد عن ذلك كل البعد ؛ إذ إنه كغيره من البشر مدنس بالخطيئة والشر مهما أظهر من التفوق أو والذكاء ، وله ضعفاته وسقطاته التى يجهلها الناس ، وتعرفها السماء ! .

وهذه الروح المنتقدة تسئ إلى صاحبها أيضاً ، لأنها تفقده الأصدقاء ، فالناس يتبعون الإيجابيين ، وينصرفون عن السلبيين والنقادين .

وروح الإنتقاد أيضاً سم موجه للآخرين فكلماتنا تلسع مشاعر إخوتنا ، والسنتنا الناقدة التى تشهر بإخوتنا فى حضورهم أو فى غيبتهم قد تقضى على سمعتهم ، وتسئ إلى مستقبلهم ، فضلاً عن أنها تعوق صلاحهم .

إن أقوالنا الإنتقادية يجب أن تتجسد فى عمل أفضل ، فنكون مصدر إلهام للآخرين ، لا مصدر هدم وسم قاتل لهم .

إن الإنتقاد يولد المقاومة

والمقاومة تصنع الكراهية والعداء

والعداء لا يقوم أخطاء الآخرين

لكن المحبة تولد حياة جديدة فى القلوب الميته .

٤ - الحساسية الإنطوائية أو المفرطة HYPERSENSITIVITY

المقصود هنا الحساسية المعنوية المتمثلة فى سرعة التهيج أو قوة التعاطف ، فهل من الخير أن يكون الإنسان حساساً ؟ .

قال أحدهم : " الحياة هى الحساسية ، لذلك فهى سر نهوضنا أو سقوطنا " . فالشخص البليد الإحساس يقف على (هامش) الحياة ، فتمر الحياة عليه وهو ساكن لا يؤثر فيها ولا يتأثر بها ! ، إنه لا يحتك بالحياة ، فلا يتألم ، لكنه لا ينمو ولا يتطور ، إن بلادة الحس موت وتخلف ، على حين تعتبر الحساسية أساس التقدم البشرى .

لكن هذه الحساسية قد تتحول إلى حساسية مفرطة زائدة ، بل حساسية خاطئة متجهه نحو الذات ، وهذه سم قاتل يستطيع أن يهدم الحياة بجملتها :

فبينما الحساسية الموجهة خارجياً إلى الآخرين هى سر الحياة التامة - فإن الحساسية الموجهة نحو الذات هى علة الحياة المهشمة .

الحساسية نحو الآخرين تخلق إنساناً رقيق المزاج على حين تصنع الحساسية نحو الذات إنساناً فظاً قاس المزاج سريع الغضب يغتاظ ويكره ويحقد ويلوم ، بل يجرح وينتقم .

يحاول الكثيرين شفاء أحاسيسهم المضطربة بمزيد من الذاتية ، والإنصراف إلى التفكير الباطنى أو الذاتى Autism ، فينصرف إلى تصوراته وأحلامه ، فتزداد حياته إضطراباً .

فإذا كنت يا أخى تحس بهذا السم يَسرى فى نفسك - فانهض سريعاً ، وارفع قلبك لله ، وسلم له مشاعرك وأحاسيسك . قل : يارب ، لا تجعل حساسيتى تستحوذ علىَّ بل وجهها إلى خارج نفسى نحو الآخرين أعتقنى من حساسيتى الإنطوائية ، كى أحب بسعة وبعمق .

وإذا تتبعنا مسار المواد السامة فى داخلنا فإن الوقت يعوزنا ، لنتابع روح الضجر والتبرم ، ورثاء الذات والسوداوية والإحساس بالذنب وتأثيم النفس . وهناك التعصب الأعمى الذى يسخر العقل للهوى ويضيق بالمناظرة ، ويحجر على الحرية ويغلق أبواب المعرفة .. والكثير مما يضيق به المجال ، وإن كنا سنعود إليه فى مرات لاحقة .

والآن تعالوا بنا ننظر نظرة شاملة إلى هذا الجنس البشرى المعذب والمخدوع :

- **إنه يظن أنه قوى وقادر ، وهو ضعيف وفاشل ! .**

- إنه يظن أن صفحته بيضاء ناصعة وما أكثر خطاياه المستتره ! .
- إنه يظن أنه ملك متوج ، وهو ثعبان سام يلدغ ويُلدغ ! .
- إنه يظن أنه واع حذر على حين تسرى فى جسده السموم القاتلة ! .

فهل لهذا المعذب المخدوع خلاص ؟ .

وهل لهذا المريض من شفاء ؟ .

نعم ..

فالله هو القادر أن يعطى الإنسان براً

حقيقياً

إنه سبحانه يغسل القلوب الدنسة ،

ويطهَر الجروح الملوثة .

إنه ينزع أنياب الأفعى ويتوج رءوسنا

بأكاليل المجد .

وقد يستطيع الأطباء إسعاف المسموم قبل أن يسرى السم فى جسده ، لكن الله يشفى حياتنا من السموم حتى لو كانت الحياة ملطخة بكل ألوان الخطيئة والفساد ! .

فيا من تعذبك خطاياك التى لا يعرفها البشر .

يا من تخدع الناس جميعاً بمظهرك النظيف البراق .

إن الله يدعوك أن تجثوا خاضعاً معترفاً ، وهو قادر أن يكشف لك طريق الخلاص .

إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة

(حكمة هندية)

جواهر ثمينة ولكن ..

إن المعنى وراء الحكمة الهندية القديمة التى تقول : إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .. وهو يدور حول الجواهر الثمينة فى حياتنا ومدى كفايتها ، إنه حديث يعطينا ما لنا ويأخذ ما علينا ، وكل ما نرجوه من وراء هذا الحديث أن نتبصر الحقائق التى قد تختفى من وراء تلك الجواهر اللامعة فى حياتنا ، حتى نستطيع أن نقَوم أنفسنا .

يقولون : إن الذى يصادف فى طريقه ثعباناً من نوع الحية المجلجلة (ذات الجرس) - فإن حظه من الحياة يكون ضئيلاً ، إذ هى من أكثر الزواحف السامة خطورة ، وغالباً ما تكون لدغتها مميتة ! ، هذا هو جوهر الموضوع أما من حيث الشكل والمظهر الخارجى - فإن هذه الحية جميلة حقاً ، ناعمة الملمس متلألئة الظهر رشيقة الحركة ! .

وأنت حين ترى ثعابين الصخور المرجانية - فإن جمالها يخلب بصرك ؛ فهى مخططة بشرائط حمراء وسوداء وصفراء تحصر بينها رقعاً مرجانية رائعة الجمال زاهية الألوان . ولكن هذه الألوان نفسها لا تعنى لمن يعرفها إلا أنها ثعابين خطيرة شديدة السمية ، حتى إن الأفاعى الأخرى تهرب من طريقها ! .

وهذه القلنسوة الجميلة التى تفردها (الكوبرا) تحت رأسها المرفوع وقامتها المنتصبة فى ترفع وكبرياء - جعلت منها نموذجاً زخرفياً يزين تيجان ملوك مصر القدامى الذين أحسنوا الظن بها بإعتبارها الآلهة التى تحمى الملك ! ، لكن جمال هذه الحية وما صار لها من كرامة وإجلال لا يمنع أن يكون لها سمٌ زعافٌ يصيب الإنسان بالعمى أو الشلل فى جهازه التنفسى ، فيودى بحياته فى دقائق معدودات ! .

ملكات جمال .. ولكن

تحفل المأثورات الشعبية الأدبية بكثير من القصص التي تدور حول الجنيات . وهن في أغلب تلك القصص فتيات رائعات الجمال يسحرن بجمالهن ألباب من يراهن ، فإذا ما إقترب منهن أوقعن به الشر .

وهذا المعنى الأسطوري نجده منتشراً في كل بقاع الدنيا ، لذلك نقرأ عن جنيات الأوقيانوس ، وبنات تيريوس ، وإبنة ملك السمندل وجنيات البحر والبر والشجر .. إلخ .

ويعالج هذا المعنى كُتّاب الشرق والغرب على السواء . فمن " ألف ليلة وليلة " بأجوائها الشرقية إلى مسرحيات شكسبير الإنجليزية إلى روايات بيرو الفرنسية إلى كتابات أندرسون الدانماركية وجريم الألمانية ، فهم جميعاً يؤكدون المعنى نفسه ، وهو إختفاء واقع الشر خلف ظاهر الجمال ! .

والأسطورة أو قصص الجنيات ليست سوى وسيلة مهذبة لإعلان حقيقة مرة ، وهي أن هناك بين البشر من يحملون على رءوسهم تيجان الجمال ، ولكنهم سيئو الخلق رديئو الطباع ! .

أزعجتني يا بائع التفاح !

من نافذة صغيرة تطل على شارع ضيق لمحت بائع التفاح يرتب بضاعته على عربة صغيرة ، كان الرجل يخرج الحبات من صندوق خشبي ، فيقلبها بين كفيه ، يفحصها جيداً ، ثم يضعها جيداً في زاوية خاصة بحيث تختفي عن الأنظار أجزاؤها المعطوبة وتتلألأ أمام العين أجزاؤها النضرة ! .

وما إن أكمل الرجل عمله حتى كانت حبات التفاح جميعها زاهية لامعة توحي بالنضرة والكمال ! .

لكن هذا المشهد أزعجني كثيراً ، فقد تذكرت أنني لا أعرض من حياتي سوى جوانبها الطيبة فقط ، وأن منطقي في ذلك هو بعينه منطق بائع التفاح ! ، إنني أبيع للناس بضاعة زائفة ! ، إنهم يدفعون لي من الثناء والمديح أكثر بكثير مما أستحق ! . ولو أنهم رأوا الجانب الآخر من حياتي لأعرضوا عن بضاعتي الفاسدة ! .

وأزعجنى بائع التفاح أيضاً ؛ لأنـه أوحى إلىَّ بأن كل جانب لامع يخفى وراءه جانباً مظلماً ، وأن كل جوهرة متلألئة لها جذور فحمية سوداء لا تراها العين ! .

وتجمعت فى ذاكرتى فى لحظة من الإضطراب صور متعددة وشكاوى كثيرة سمعتها من أصدقائى وصديقاتى حين جاءوا يشاركوننى فى همومهم وآلامهم وإختبارتهم مع أناس آخرين كانوا يرون جانباً واحداً من حياتهم ، ثم خابت آمالهم فى أصحاب هذه الرءوس المزينة بالجواهر الثمينة ! .

وتتابعت الصور أمام عينى ، فهذا :

- شاب حسن المظهر ، لكنه ماكر خبيث !
- شابة جميلة الخِلقة ، لكنها سيئة الخُلق !
- شاب ذكى لامع ، لكنه مغرور جبار !
- شابة متدينة ، لكنها ضيقة الأفق !
- شاب كريم شهم ، لكنه متباه !
- زوجة محبة عطوف ، لكنها مسيطره !
- صديق مهذب رقيق ، لكنه مراءٍ !
- صديقة مخلصة وفية ، لكنها سيئة الظن !
- رجل مليح الكلام ، لكنه قليل العمل !
- شابة قوية الشخصية ، لكنها سليطة اللسان !
- والد حنون طيب ، لكنه سريع الغضب !
- زوج حكيم متزن ، لكنه مقتر بخيل !
- جارة محسنة كريمة ، لكنها محبة للمظاهر !
- شاب ناجح ، لكنه مسرف متلاف !
- عاملة مخلصة ، لكنها حسود !
- شاب خفيف الظل ، لكنه مستهتر !
- متحدثة لبقة ، لكنها نمامة !

- شـــاب متطــــــور ، لكنــــــه مستبيــــــح !
- لماحـــة متوقـــــــدة ، لكنهـــــا إنتهازية مستغلة !
- عامـــل ماهــــــــر ، لكنـــــه جشــــــع !
- لطيـــف المعشــــــر ، لكنــــــه خائــــــن !

ولم أعد أقوى بعد هذا الشريط الطويل من الصور ، لم أعد أقوى على متابعة بقية النماذج الإنسانية ؛ فقد بدأت أتحسس جوانب حياتى ؛ علنى أجد فيها جانباً ليس فيه عيبٌ من تلك العيوب الكثيرة والمتنوعة أحسست بروؤس الأفاعى تطل من تحت ثيابى ، وأدهشنى أننى مازلت أتحرك فى ضوء الشمس برغم كل هذه الجحور المظلمة فى أعماقى ! .

سامحك الله يا بائع التفاح .

تعالوا ننظف جحر الأفعى

هذه دعوة لأصدقائى جميعاً :

تعالوا ننظف جحر الأفعى ، وأول ما ينبغى أن نعرفه أن الجحر لا يمكن أن يصبح نظيفاً حقاً ما لم نقتل الحية نفسها ، وننزع أنيابها السامة ، ثم نطهر المكان كل يوم حتى لا تعود إليه أفاع أخرى ، لتجد بيوتاً مجهزة لسكناها ! .

ولكن الحية أيها الأصدقاء هى أنا وأنتم ، ونحن لا نقدر أن نقتل أنفسنا ! .

والسم الذى فينا أيها الأصدقاء هو طبيعتنا الجسدية الخاطئة الميالة إلى الشر والدنس ! .

ونحن لا نستطيع أن نتخلص من طبيعتنا الجسدانية مادامت لنا أجساد تسعى ! .

والجُحر الذى يأوينا هو عالمنا ومجتمعنا الذى لوثنا وتلوث بنا ! .

ونحن لا نستطيع أن ننظفه ، لأننا نحن أنفسنا بعض أقذاره ودناياه ! .

فماذا نفعل أيها الأصدقاء ؟ .

هنا تتجه أنظارنا إلى القوة العلوية .. إلى الله عز وجل .

● دعونا نستخلص من السم الذى فينا ترياقاً لجراحنا ! نستخلص من هذا السم إعترافاً صادقاً بأننا خطاة مجرمون ومنافقون وضانعون فى زيف المظاهر الخادعة ! .

● ودعونا نستخلص من السم الذى فينا ترياقاً ثانياً هو إعترافنا بعجزنا عن شفاء أنفسنا أو مقاومة طبيعتنا الفاسدة ! .

● ونستخلص من السم الذى فينا ترياقاً ثالثاً هو عزمنا أن نهجر وسائلنا البشرية فى إصلاح أنفسنا بالأعمال المادية والممارسات الشكلية والحكمة الإنسانية عالمين أن الله وحده هو الطريق .

● ونستخلص من السم الذى فينا ترياقاً رابعاً هو إيماننا المطلق بأن البر الحقيقى والسلام القلبى والقداسة الكاملة هى معطيات النعمة الإلهية التى يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يأتى إليه خاضعاً خاشعاً معترفاً .

صرخة إنسانية

يا رب

إنتزع عن رءوسنا الجواهر الخادعة
التى أضلتنا ،
وتوج قلوبنا بالخضوع لك ،
وأفكارنا بالامتثال لك ،
إكشف عن عيوننا ؛
لنرى النور ،
فنهجر جحور الثعابين السامة
وظلال المظاهر الخادعة ..

يارب

حياة النفس تبدأ بعد فناء الجسد
لأن الإنسان في هذه الحياة كله نقص " روسو "

لماذا نخشى الموت ؟

قالوا فى الحواديت القديمة : إن أعرابياً فقيراً جلس يندب طالعه العاثر فى الحياة ، فقد كان - برغم ما دأب عليه من كدح - قليل الشأن شحيح الرزق : يزرع فلا يجنى ، ويبذر فلا يحصد ، ويعطى فلا يأخذ ! .

والحق يقال : إن هذا الرجل الذى إتسع قلبه للدنيا ضاقت به دنياه إلا عن حدود خيمته الباليه ! ، وكان له الكثير من العذر إن هو بكى وإشتكى أو حتى ضجر وتململ ، لكنه للحق لم يفعل ؛ بل جلس فى خيمته يفكر ، يستلهم السماء التى كان على يقين أنها لا تظلم أحداً ، ولا تقطع مدداً ، لكن إيمانه هذا لم يكن يرقى إلى حد اليقين من أنه هو - هو بالذات - ليس إستثناءً من عدالة السماء . كان شيطان لحوح يسر فى أذنه أن لكل قاعدة شواذ تكتب فى حواشى المتون ! . وربما كانت حالته المتعثرة واحدة من تلك الإستثناءات من عدالة السماء ! .

ولم يطل به التفكير ؛ فقد هبت الريح ، وإقتلعت الخيمة ، وإنكشف وجه السماء عن ريح وغبار وغيوم سوداء ! . ونهض الرجل فلا وقت الآن للتفكير ! ، لملم أشلاء الخيمة ، جمع أشياءه المبعثرة ، ووضع خُفيه تحت حجر ثقيل ، وأخذ يعمل على إعادة تثبيت الخيمة ، لكن الخيمة أبت أن تستقر ، أو قل : أبت السماء أن تقوم لها بعد ذلك اليوم قائمة ! . وتقول الحكاية : إنه لم يعد للرجل سبيل إلا أن يقتلع الأوتاد ، ويحملها إلى حيث لا يدرى ! . ولكنّ واحداً من تلك الأوتاد إستعصى على الرجل ، فلم يجد بداً من الجلوس بجواره ؛ حتى إسترد أنفاسه ، وإستجمع قواه الخائرة ؛ فزلزل الوتد وشده إليه ، فإنخلع بعد أن إنفتح وجه الأرض عن طاقة صغيرة أمام درج يؤدى إلى دهليز طويل سار الرجل فيه حتى بلغ قصراً ذهبيّاً عامراً بخيرات الحياة ! .

وللحكاية بقية لا تعنينا فى هذا المقام ، فهذا الجزء منها له مدلول أعمق كثيراً من ظاهر القصة الساذجة . وبخاصة إذا نحن قرأنا هذه القصة فى ضوء الحكمة

الأفريقية التى تقول : " الميت لا يموت حقاً ؛ فما الجسد إلا كوخ للنفس ! " .

فقد أدركت البديهة الأفريقية أن الإنسان أكبر كثيراً من الجسد ، وحياته لا ترتبط ببقاء الجسد أو فنائه ؛ فما الجسد سوى الكوخ الذى تحيا فيه الروح ، فإذا نُقض البيت أو تهدم الكوخ أو سقطت الخيمة أو تمزق الخباء - فإن الروح المجردة لا تموت ، ولا تضيع ، بل تنتقل إلى مكان آخر خفىّ ، ربما هو قصر ذهبى كالذى تحدثنا عنه الحكاية الصغيرة ، أو ربما تخرج الروح من قصر ذهبى إلى كوخ حقير ، ومن حياة مترفة لاهية إلى صرير الريح ، وخراب الهاوية ! .

لماذا نخاف الموت ؟

من أجمل ما كتب الأديب الشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى قوله :

والموت من صور الحياة وإنما ... فى الناس من لا يفهم التحويلا

لقد أصبح من المسلم به لدى أغلب البشر أن الموت ليس نهاية طريق الحياة ، لكنه عبور من حياة إلى أخرى .

وتختلف صورة الحياة فى إحدى الحياتين وصورتُها فى الأخرى ؛ إذ لا تحتاج الحياة الأخرى إلى ما كانت تحمله فى الأولى من جسد ترابى ضعيف يحيط به الوهن ، لذلك تهجره الروح على أبواب عالمنا الأرضى ، ونسمى نحن هذا الحدث بالموت ، وننظر إليه بمقاييس تختلف من واحد إلى آخر ، لكننا على أية حال نجزع له ، ونأسف لحدوثه ، وقد نبكى وننتحب أو نحزن ونكتئب ، أو نسلم لله فيما كتب ، لكننا على أية حال لا نستطيع أن نفرح ، ونبتهج حينما يموت أحباؤنا ، بل تظلم الدنيا فى أعيننا برغم إدراكنا أن الموت صورة من صور الحياة كما قلنا .

ويرجع السبب فى ذلك إلى عوامل كثيرة منها :

أولاً : إن الموت يفرق بيننا ومن نحب

ولذلك يبدو الموت سجاناً قاسياً يحجب عنا أحباءنا ، ويضع بيننا حجاباً كثيفاً لا نعلم متى يرتفع ؟ ، ونحن أمام الموت نحس بالغبن ، لأننا لم نأخذ قراراً ولم نستشر فى شئ ، لذلك لا نستطيع أن نقبل المفاجأة ! .

ثانياً : قد لا نعرف معرفة اليقين مصاير الذين يموتون

تحدث الكثيرون عن الموت ، لكنهم لم يقدروا أن يقدموا للناس ضماناً أكيداً عن الحياة الأخرى وسعادة الخلود الأبدى .

وكثير منا يعرف ما قاله سقراط لتلاميذه قبل وفاته ، إذ نازعته الشكوك فقال : " إذا شاء الإله ووصلت إلى هناك فسأتحقق إن كنت سعيت فى طريق الصواب ، وسأعرف : هل كنت قد نجحت فى حياتى ؟ " .

وكتب فيلسوف ملحد لصديقه يقول : " نحن ننكر الحياة الأخرى بعد الموت ، ولكننى أحتاج أن أتيقن أن الموت ما هو إلا رقدة نهائية لا حياة بعدها ! . ولو تيقنت ذلك لحصلت على السعادة ، ولصار سرورى كاملاً ، ولكن هذه هى الشوكة : التى تلدغنى ، والسيف الذى يحرق نفسى ؛ فانا أخشى أن تكون هناك حياة أخرى " .

أما د . جراند فيل فقال : " إنى أعرف أننى حى ، وهذا اليقين الذى يؤكد لى أننى حى الآن يقول لى : " إننى لا أنتهى بموت جسدى هذا . وكما أنا متحقق من حياتى هنا - فكذلك أنا متيقن من حياتى هناك " .

ثالثاً : إن صورة الحياة الأخرى ليست واضحة فى أذهان بعضنا

نحن لنا بعض العذر ؛ لأننا أرضيون ماديون لا نستطيع أن نرى أو نفهم وجه الحياة الآخر ، فأفكارنا عن الجنة يشوبها التصورات الأرضية ، وتخيلنا للنعيم خيال مادى يرتبط بخيرات أرضنا المجدبة ، ولكن الحياة الأخرى روحية سماوية تعلو عن الأرض بقدر سمو الله سبحانه عن خلائقه التى تدنست بالشر . إننا نحتاج إلى كثير من البراءة والطهر والشفافية ؛ لنستجلى شيئاً يسيراً من أمجاد الحياة الأخرى .

جلس الأب مع صغيرته فى حديقة البيت فلاحظ أنها تطيل التأمل فى القمر والنجوم ، فسألها : " فيم تفكرين يا عزيزتى ؟ " . قالت : " كنت أتساءل : إذا كان الجانب المواجه لنا من صفحة السماء بمثل هذا الجمال - فكيف يكون الجانب الآخر المواجه لله ؟ " .

إن التطلع إلى السماء يملأ الإنسان بالسلام القلبى ؛ إذ يرى صورة الإنسان الجديد عبر حجاب القبر خالياً من الضعف والفساد ؛ فنحن نموت فى أرض فاسدة

وبأجساد فاسدة ، لنبعث فى أرض طاهرة عديمة الفساد ! .

نموت فى هوان ،
ونقام فى مجد .

نموت فى ضعف ،
ونبعث فى قوة .

لا يغلبنا الموت ،
بل نغلب الموت .

ولا يحسبنا القبر ،
بل يطلقنا إلى النعيم الأبدى.

ما أجمل ذلك الوجه الآخر للحياة فى حضرة الله .

حياة النفس تبدأ بعد فناء الجسد
لأن الإنسان فى هذه الحياة كله نقص " روسو "

بعد فناء الجسد ..

فى منتصف القرن التاسع عشر - لاحظ العلماء أن الكوكب أورانوس حاد عن فلكه مراراً عديدة الأمر الذى لم يستطع أحد تعليله أو إرجاعه لجاذبية الشمس ، أو لأى من الكواكب المعروفة .

وإستنتج الرياضى الفرنسى " لافارير " أنه لابد أن يكون هناك كوكب مجهول يؤثر فى أورانوس ، ويجذبه إليه دون أن يراه أحد ، ولا يعرف طريقة العلماء . وبدأ العالم يحسب تحركات أورانوس وحيدانه عن فلكه ومساره الطبيعى ، وجزم بوجود الكوكب الآخر المجهول فى نقطة بعينها .

وحين أدار مرصد برلين تلسكوبيه إلى تلك النقطة - شوهد بوضوح ذلك الكوكب الذى كان مجهولاً .

وهذا الذى حدث فى شأن الكوكب أورانوس يحدث فى حياتنا كثيراً : فهناك أشياء نجهلها تؤثر فينا ، وتجذبنا نحوها ، وتهز مشاعرنا ، وتزلزل أقدامنا ، وتعبث بمخططاتنا حيناً من الزمن قبل أن نعود إلى مسارنا . وهذه المؤثرات ليست عبثاً ، لكنها قوى فى حياتنا وموضوعة ؛ لتعطى الحياة بُعداً كونيّاً وعمقاً أبديّاً .

فنحن أحياناً ننصرف إلى التأمل فى الموت وما وراء الموت وما خلف القبر ، وما وراء الحجب فى السماوات العلى ، ونحن نفعل ذلك بقوة تجذبنا إليه ؛ فقد جعل الله الأبدية فى قلوبنا ، وجعل التطلع إلى الخلود سمة من سماتنا .

إن عالم الأبدية غير المنظور يؤثر علينا هنا ، إنه يؤثر فينا ويجذبنا إليه . وحين نسمع موت قريب ، أو نرى نعشاً محمولاً ، أو مقبرة تفتح فمها لأحد من بنى البشر - فإن شيئاً غامضاً يجذبنا إلى ذلك العالم المجهول وراء الموت ! .

إن عالم الأبدية يجذبنا ، يدعونا إليه ، يمسك بيدنا لحظة ، فنخرج عن مسارنا

ثم يتركنا ، فنعود إلى فلكنا .

إنه يؤثر فينا دون أن نراه لكننا نُحسّه فى أعماقنا ، وسيأتى اليوم الذى يجتذبنا فيه إلى ساحته ، فنرحل إليه مع أرواح عديدة سبقتنا ، فنبقى هناك إلى الأبد .

ولكننا حين نتأمل فى " الحياة والموت " ، وقبل أن نرحل إلى عالم الأبدية - فإنه يتحتم علينا أن نتناول بالجدية مواقفنا الشخصية من قضية الحياة الأخرى .

هناك موقفان يصعب على المرء أن يقبلهما :

أولاً : من الصعب أن نتصور أن تنتهى حياة الإنسان بالموت

بمعنى إنه يتلاشى بموته ، ويصبح عدماً ! . ويعبر الشاعر الإنجليزى " تينسون " عن دهشته لذلك فيقول : " إنى وجدت الإيمان بالله تحيط به الصعوبات لكن عدم الإيمان بالله تحيط به صعوبات أكثر وأعظم ؛ فالإنسان أسمى وأعلى من كل أعمال الطبيعة ، ولا يمكن أن هذا الناتج النهائى الذى هو قمة تطورات الدهور الطويلة ينهار أخيراً ، ويصير كلا شئ ! . ويكون أشرف وأقدس النفوس البشرية التى عرفها العالم بأثمارها الروحية المجيدة التى إكتسبوها عن جهاد أدبى وإنتصار بعد كد وعناء - ليس لها بقاء ، والأرواح النبيلة تفنى مثل المادة الجسدية التى إتحدت بها زمن الحياة ! " .

عندما سأل أحد المكتشفين رجال القبائل عن نهاية نهر الكونغو - قالوا : إنه ينتهى ، ويضيع فى الرمال ! . ولم يصدق ، فهو يعلم أن الأنهار تبدأ بقطرة من المطر ثم تتجمع القطرات لتصير نهراً دافقاً ، والنهر لا يعود رافداً أو فرعاً ، لكنه يصبح فى النهاية جزءاً من بحر عظيم .

والذى يظنون أن الحياة تنتهى ، وتضيع فى التراب - لا يفهمون قوانين الحياة ! . إن حياة الإنسان التى تبدأ من العدم لا تنتهى إلى العدم ، بل تصب فى بحر الأبدية العظيم .

والذين يظنون أن الحياة تنتهى بالموت لا يفهمون قوانين السماء أيضاً : فمن المشاهد أن أفراداً كثيرين يقضون حياتهم فى كد وتعب وجهاد مستمر على حين يتمتع آخرون بنعيم الدنيا ووفرة الخير ، وقد يكون الأولون خيراً من الآخرين ، وأكثرمنهم إستقامة وتقوى ! .

فإذا وضعنا فى إعتبارنا أن الله عادل ، وأن السماء لا تظلم أحداً ، بل تعطى كل أمرئ جزاءه الحق - فلابد أن نستهجن أن ترضى العدالة الإلهية فناء كليهما (الشرير والصالح) دون مجازاة عادلة ثواباً أو عقاباً ! .

وقد حدثنا التاريخ أنه عاش فى النمسا أميرٌ شريرٌ صرف عمره فى الملذات الدنيوية وإمتد به العمر دون أن يشكو ضعفاً ، أو يثوب إلى رشده ، أو يكف عن سوء مسلكه ؛ فلما بلغ خبر وفاته الملك فريدريك الأعظم الذى كان بدوره رجلاً ملحداً ويفخر بإلحاده - قال : إذا كان هناك إله يحكم العالم كما يعلّم رجال الدين والفلاسفة - فلابد أن يكون هناك أيضاً موضع آخر تذهب إليه النفوس بعد الموت ؛ لتنال عن أعمالها العقاب أو الثواب ؛ لأنه يمكننا أن نرى أنه لا عقاب للأشرار هنا ! .

فالذى يؤمن أن الله موجود لابد أن يؤمن مع هذا بخلود النفس .

آخراً : من الصعب أن نؤمن بخلود النفس ولا نسعى للخلاص

قال أحدهم : " إن من يعتقد وجود حياة أخرى بعد الموت ، ولا يصيره هذا الفكر خاشعاً تائباً - يلزم حبسه كأحد المجانين ! " .

القليلون هم الذين لا يؤمنون بخلود النفس ، والكثيرون هم الذين يؤمنون بوجود الله سبحانه وتعالى ، ويؤمنون بالحياة الأخرى ، ومع ذلك فعجيب حقاً أن يكون من أولئك " المؤمنين " من لا تقلقه خطاياه ، وتخيفه دناياه فى دنياه ، ولا يجعله إيمانه بخلود نفسه حريصاً على إفتداء تلك النفس من عذاب القبر ، وشر المصير ! .

وقد يرجع ذلك إلى واحد من هذه الأسباب :

- قد يكون جاهلاً بعدالة الله ، ويخدع نفسه بالطمع باطلاً فى رحمة الله .

- قد يكون لاهياً عن آخرته بإنشغاله بدنياه ، وهو فى ذلك يشبه الملك ليسيماخوس ملك تراقيا الذى باع ملكه مقابل كوب من الماء ! ، فلما شرب وإرتوى ندم أشد الندم ، وأحس بفداحة الثمن الذى دفعه مقابل حاجة وقتية ! .

- وقد يكون مرتكناً على فكر سائد أو عقيدة يتناقلها الناس من أنه سيحيا حياة خالدة منعمة مقابل عمل ما أتاه أو سيأتيه يوماً قبل أن يحين القضاء ؛ فقد أراح الناس ضمائرهم أو خدعوها بعقائد من صنع عقولهم لا تقرها السماء ولا عدالة الله وأحكامه القدسية الطاهرة .

● وقد يضلل المرء حين يجد الناس من حوله يسيرون فى تواكل وإنهزام ، فيسير فى الموكب كما يسيرون ، ويؤمن بما يؤمنون ، ويردد ما يقولون ، ولا يخلو لنفسه لحسابها ؛ حتى لا يقض مضجعه الخوف ، فإذا فعل ذلك لحظة عاد ؛ ليغرق يقظته فى بحور البشر - موكب المتواكلين : " ويوم الله يعين الله ! " .

● وقد يكون الإنسان واعياً ومدركاً مسئوليته الشخصية عما فعل ويفعل ، وقد يكون خائفاً حقاً من خشية الله ويوم الحساب ، لكنه لا يعرف للخلاص طريقاً كذلك الذى قال : " قرأت عشرات الكتب ، وتحدثت إلى عشرات الناس ممن لا يؤمنون وممن يؤمنون بالآخرة ، ولم أجد ما يريحنى ، فتركت كل شئ ، وخلوت إلى الصلاة والدعاء ؛ ليعطينا الله يقيناً كاملاً حيث لا يقين فيما يقدمه البشر ! " .

المصير الخطر

شبه أحدهم جميع الناس بركاب سفينة تقترب من الميناء بسرعة ، وإذا بأحد الركاب يبتسم ؛ لأنه يرى الأحباء على الشاطئ ، وإذا ما نزل يسير فى وسط مظاهر الفرح والإبتهاج .

ونرى ثانياً كئيباً ؛ فقد ترك بلاده ؛ ليذهب إلى بلاد أخرى غريباً ، فلا عين تتطلع إليه ، ولا قلب يرق له ، ولا صديق فى إنتظاره فتراه متململاً متوجعاً ، وينزل إلى البر كئيباً حزيناً .

وترى ثالثاً ينزله بعض الجنود مكبلاً بالقيود فهو سجين مجرم هارب يُساق إلى ساحة القضاء ! .

أيها القارئ العزيز ، إن سفينة الحياة تقترب بسرعة إلى الميناء ، فهل يحملك الموت - متى جاء - إلى حياة سعيدة أو إلى سجن أبدى ؟ .

إننى أدعوك أن ترفع قلبك لله - دون عجلة - قل له :

" يا رب ، أكشف لى الطريق الذى يؤدى إلى الحياة الأبدية السعيدة وإنقذنى من التيه بين الأقوال الكثيرة ، والأفكار المتباينة والجدليات التى لا تريح القلب " .

إن الله وحده يعطى اليقين والأمان وراحة القلب .

نرجو لك أيها القارئ الكريم حياة سعيدة فى دنياك وأبدية سعيدة فى آخرتك .

ما طار طير وإرتفع إلا كما طار وقع

كيف يسقط الجبابرة ؟

ليس صحيحاً ذلك القول المأثور الذى نقرؤه فى رأس هذه الصفحة ، فليست كل الطيور الصاعد تقع ، بل إن السماء مليئه بالطير من كل جنس ولون ، وجميعها تعلو وتهبط ؛ كما يروق لها وبقدر ما أوتيت من خفة وقوة ورشاقة بدن وطول جناح ! . وأكثرها يطير ويحلق فى السماء ، ثم يعود إلى عشه متى شاء ؛ ليلمس برجليه الأرض الطيبة التى إرتفع عنها إلى حين .

وقليل من صغار الطير يسقط إلى الأرض إعياءً إذا هذه الصغار تجاوزت قدراتها المحدودة ، أو أجبرت على ذلك عمداً إبتغاء لصيدها أو إفتراسها .

لكن النسور والصقور من جبابرة الفضاء لا تسقط إلى الأرض فجأة ، لتتحطم كالشهب الملتهبة ، بل تهبط فى هدوء على رءوس الجبال وفوق القمم .

فسقوط الجبابرة ظاهرة معروفة بالأكثر فى عالم البشر :

فالطير والحيوان تحميه غرائزه ، أما بنو الإنسان فتعميهم مطامعهم ونفوسهم الأمارة بالسوء ! .

إنه الإنسان الذى يرتفع بما أنعم عليه الله من مواهب وملكات ، ثم يسقط بما تسوله له نفسه من دنايا وشرور ! .

ولكن ...

كيف يسقط الجبابرة ؟

حين نتأمل حياة الجبابر الذين سقطوا - فإننا نجد لسقوطهم أسباباً كثيرة نأخذ منها على سبيل المثال ما نتحذر به لحياتنا .

وفى هذه الكلمات نتأمل بعض مهاوى السقوط حتى لا نقترب إليها :

الإسترخاء

من المشاهد المألوفة والمتكررة فى حياة الأبطال أنهم يبدءون حياتهم بجد وكفاح ونشاط غير عادى إلى أن يبلغوا من الشهرة والمجد ما يتوقون إليه ، فمتى تحقق ذلك أصابهم الاسترخاء ! ، وعلت أجسادهم أو أرواحهم أو عقولهم طبقات الشحم وبلادة الإسترخاء ! ، وحينئذ يدركهم ما أصاب القائد الرومانى الذى بات يسكر مع حاشيته بين الحسناوات والكئوس بإعتبار أن " الليله خمر وغداً أمر ! " ، فما أشرقت عليه الشمس حتى كانت النهاية الذليلة والإنكسار المخيب ! . وسقط أنطونيوس ، فكان سقوطه سقوط الجبابرة !..

لقد وقع النسر ؛ ليتحطم على الأرض الصلبة ، وليتمرغ تاج المجد وإكليل الغار فى وحل الطين وتحت الأقدام ! .

والغرور

ليس فى عبر التاريخ ما هو أوضح من تلك الحقيقة التى تتعلق بسقوط المتكبرين المغرورين ، فتحقيق النجاح الباهر ليس سهلاً ، لكن الأصعب منه هو الحفاظ على القلب المتواضع ؛ فقد يسهل على أحد الجبابرة أن يقهر الجبال ، لكنه يتحطم حين لا يقهر كبرياءه ! .

فقد شهد القرن الخامس قبل ميلاد السيد المسيح صراعاً دامياً بين الفرس واليونان ، وكان على رأس الامبراطورية الفارسية - الإمبراطور العظيم سيروس الذى وصف نفسه بأنه الملك الأكبر ملك الأمصار ! .

وبكل ما فى هذا الملك العاتية الجبار من قوة وسطوة شكل جيشاً من المقاتلين الجبابرة ، وسلحه بالعتاد الثقيل براً وبحراً ، وسار بجيشه الذى وصفه هيرودوت بقوله : " إنهم كثيرو العدد حتى إن مياه الأنهار تَشِحُّ عندما يشربون ! " .

وإتجه الرجل بزحفه الساحق نحو بلاد اليونان الضعيفة المنقسمة ، وفى طريقه إليها أحرق وخرّب الكثير من البلاد ! ، وبلغت به العجرفة والغرور أن أمر بجلد البحر عند مضيق الدردنيل ؛ لأنه تجرأ وثار ، فأغرق بعض سفن الأسطول ! ، ووقف الجلادون بسياطهم يضربون مياه البحر ثلثمائة جلدة ؛ ليعلموه كيف يطيع سيروس بطل الأبطال ! .

وحين تقابل جيشه وجيش ملك إسبارطا دعاه للتسليم بقوله المترفع :

" إننا كثيرون ، ولو أن كل جندى منا أطلق عليكم سهماً واحداً فقط لحجبت سهامنا نور الشمس عن بلادكم ! " .

وإستطاع سيروس أن يهلك جيش الإسبارطيين ، وأن يخرب أثينا ، لكن هذا الجيش الجبار المغرور فنى فى البحر غرقاً على شواطئ اليونان حين أحرق الأثينيون السفن الفارسية الضخمة التى إنحشرت لكثرتها وعظمتها ، فلم تستطع أن تتحرك وتناور ، فعاد الجبار خائباً ؛ ليغتاله رجال من بلاطه الملكى ، وليترك عبرة للمغرورين ! .

والتمركز الذاتى

أما طامة الأبطال الكبرى فهى التمركز الذاتى والإنشغال بأنفسهم أكثر من إشتغالهم بالآخرين ، وضياع الحقائق عن أعينهم لإرتباطهم بذواتهم ، فأحكامهم مبنية على مشاعرهم وأذواقهم ، وأفكارهم لا تستقل عن عواطفهم وأهوائهم ! .

وقد يبلغ بالأبطال أن يصنعوا لأنفسهم دائرة من الأوهام والأحاسيس الذاتية يستريحون إليها ، ويسكنون فى أجوائها التى لا ترتبط بالعالم الخارجى (خارج أنفسهم) فيصبحوا أسرى أبراجهم العاجية التى صنعتها بطولاتهم ! .

وحين يفقد البطل إحساسه بالآخرين من حوله يسقط فى هوة الذاتية المسرفة ، فيتحطم على صخرة الأنانية ! .

والمادية

وكثيراً ما يصيب الأبطال - والمتلهفين على تحقيق البطولات - كثيراً ما يصيبهم نوع من الشلل الروحى ؛ إذ ينصرفون بأحاسيسهم نحو تحقيق غايات تضيق بها أعمارهم المحدودة وقواهم المتراجعة ؛ فيتحول الأبطال إلى تجار فى ميادين المال أو ميادين الإختراع أو ميادين الرياضة أو حتى ميادين الخير ، ويصبحون تماثيل رخامية صلبة فى ساحات الفخر وعلى عروش المجد المادى ! .

ومن المحبب للنفس أن يصير الإنسان بطلاً ، لكن بطولته لا ينبغى أن تفصله

عن كيانه الروحى ، بل ينبغى أن تنبع من واقعه الروحى هذا .

فلم يخلقنا الله سبحانه ؛ لنكون أبطالاً نمجد ذواتنا ؛ بل لنكون عبيداً لـه سبحانه نعبده ونسبحه ونخدمه ، فيحقق فينا وبنا أغراضه فى هذا العالم .

وحين نحلق فى سماواته العلا فإنه يحمينا من السقوط والتحطم ، وحيث تنزع التيجان الزائفة عن رءوسنا فإنه يتوجنا بأكاليل لا يراها الناس ! .

وكم فى الحياة من أبطال لم يعرفهم البشر ، ولم يكن العالم المادى مستحقاً لهم ! .

لكننا ندعوك أيها القارئ الكريم أن تفتح أبواب قلبك لروح الله ؛ لينير لك الطريق نحو البطولة فى عبادته الصامته المستترة المترفعة فوق بريق التيجان وأضواء الشهرة وصراعات البطولات المادية الزائلة ...

وسقوط الجبابرة ! ..

ما طار طير وإرتفع إلا كما طار وقع

سماء بلا سقوط ..

حين نقرأ عن حضارات الأسلاف فى أى عصر من عصور التاريخ - يملؤنا الفخر والإعزاز لهذا الجنس البشرى الذى ننتمى إليه : فقد إستطاع أن يقهر بداوته ، ويصنع لنفسه حضارات عظيمة توالت على إمتداد التاريخ ؛ لتؤكد ما للإنسان من عظمة ومجد .

لكن هذا الإحساس لا يلبث أن يختلط بإحساس آخر ، إحساس سلبى بالقهر والفشل ؛ فهذه الحضارات التى كانت يوماً ما ملء السمع والبصر - ما لبثت أن سقطت ، ثم توارت ، فإختفت عن الأسماع والأبصار ! .

وعندما تسقط إحدى القمم تهتز الأرض كلها ؛ فقد سقط شئ عظيم ! ، وحين تنهار إحدى القلاع الحصينة أو تتحطم الأشياء الثمينة - تمتلئ القلوب بالحسرة والمرارة ! .

لقد كان من حسن حظ البشر أنهم لا يعيشون طويلاً حتى يروا الحياة وهى تتغير إلى النقيض ! ، ويروا القمم وهى تتحول إلى أنقاض ! ، ويروا الملوك والأبطال الذين أحبوهم وقدسوهم وقد إنطفأت مشاعلهم ، فأصبحوا بلا تيجان أو صولجان ! .

ومسكين إنسان القرن العشرين ؛ فهو لسوء طالعه يحيا فى زمن تدور عجلاته بسرعة فائقة ؛ حتى إنه يستطيع فى عمره القصير أن يشهد صعود الأبطال وهبوطهم ، ويرى قبل وفاته مصرع البطولات التى إشترك هو فى بنائها وصياغتها ! .

فكل الأشياء تتغير الآن سريعاً ؛ حتى قمم الجبال الشامخة تقهرها الرياح والأعاصير .

وسقط فى هذا القرن كثير من الثوابت الراسخة ؛ وإنطوت صفحات من مقدسات الأمس القريب ، وأصبح من المألوف أن ترى أبطال الأمس وقد صاروا صعاليك اليوم .

فما أسرع فى أيامنا أن تهبط النجوم إلى الحضيض الساحق وتنقلب القواعد الراسخة ؛ لتقوم فى مقامها قواعد أخرى ؛ وتسقط النظريات العلمية ؛ ليحل محلها أبحاث أخرى متطورة تنقضها من أساسها ! . ولم يعد نادراً أن تعلن إحدى المؤسسات الشهيرة تراجعها وإغلاق أبوابها ، وتشهر بعض بيوت المال الكبيرة إفلاسها ، وتتكرر الصورة القديمة ، صورة الطائر الذى يصعد إلى السماوات العلا ، ثم يهبط ليتحطم ! .

مرارة السقوط : سقوط مدينة

يتحدث الشعراء القدامى عن أمجاد " أوليمبيا " فقد كانت أوليمبيا كعبة الإغريق وأرضهم المقدسة التى تتجه إليها الأنظار وتهفو إليها القلوب : ينبت فى أرضها الأبطال ، وتسبح فى سمائها الآلهة ! ، هكذا كانوا يعتقدون .

وتصور لنا " الإلياذة والأوديسا " أمجاد الأولمب ومقام الآلهة ومستقرها ، وبلاط "زيوس " رب الأرباب متربعاً فوق قمة شامخة ترتفع فوق السحاب وسط الأثير النقى حيث يعقد الآلهة إجتماعاتهم ! .

ويحمل لنا التاريخ أيضاً صورة باهرة لمعبدى الإله زيوس وزوجته هيرا وعليهما (لوحات) رائعة تسجل حروب الآلهة وعمالقة الأساطير ! .

لكن هذا المجد الحضارى المترف جارت عليه السنون ، وعلى مدى عشرة قرون من الزمان هوت أوليمبيا فى بحار النسيان ، وحل الخراب بأرض البطولات! .

وإنى أتخيل ما كان يمكن أن يصيب " هوميروس " الشاعر الملهم الذى سجل أمجاد الإغريق لو أنه بُعث فى القرن السادس الميلادى ليرى ساحة المجد - حيث كان معبد " زيوس العظيم " - وقد حولته الزلازل إلى أنقاض وأطلال ، وإتخذ الناس منها محجراً لإقامة إحدى القلاع ! .

وماذا كان يجب أن يصيب (الفنان) المبدع " فيدياس " سيد مثالى الإغريق لو أنه عاد إلى الحياة مرة أخرى فى القرن الخامس للميلاد ؛ ليرى تمثاله العظيم المطعَّم بالياقوت والزبرجد والمكسو بثياب من الذهب - يراه وقد نُقل إلى القسطنطينية ؛ ليحترق ويتحطم فى الحريق الشامل الذى لحق بالمدينة ؟ .

لكن " أوليمبيا " لم تكن أول المدن التى تزول ولا آخرها ، وتمثال زيوس لم يكن

أول قطعة فنية تتحطم ولا آخرها ، بل ذلك صورة تتكرر على إمتداد التاريخ ؛ فتراب الأرض من أجساد أجدادنا ومن حطام بيوتهم وقلاعهم وأعمالهم الفنية ! .

سقوط قائد

وإذا ذكرنا " أوليمبيا " وسقوطها - فإننا نذكر " أوليمبياس " ، وأوليمبياس هذه ليست مدينة ، لكنها سيدة قوية كانت زوجة لفيليب الثانى ملك مقدونية (٣٥٧ ق . م) ، وإستطاعت بقوتها ومكانتها أن تسيطر على بلادها بعد موت زوجها وولدها ، فقتلت الكثيرين ، وبطشت بأعدائها ، وملكت زمام الأمور فى زمن كثرت فيه البطولات ، وإستبسل فيه الفرسان ! .

لكن أوليمبياس الجبارة دارت عليها الدوائر ، فبعد أن قتلت قُتِلت ؛ إغتالها بعضٌ من قومها ، فمضت تاركة خلفها تاريخاً دمويّا ، لكن التاريخ يذكرها بإعتبارها أم الأسكندر الأكبر البطل الأسطورى الذى أخضع الممالك ، ودوخ الجيوش ، وهز أركان الدنيا ! .

ولنا أن نتسائل هنا :

هل تختلف قصة الإسكندر وقصة أمه كثيراً ؟ .

وهل تختلف قصة الإسكندر وقصة مدينته أو حضارته اليونانية ذاتها ؟ .

وهل تختلف قصة الإسكندر المقدونى وقصة نابليون الفرنسى أو قيصر الرومانى أو هيراكليس (هرقل) الأسطورى ؟ .

هل تخرج حياته عن كونها ترديداً للحقيقة ذاتها :

الطير الذى إرتفع وإرتفع ، وظل يحلق حتى سقط وتحطم ؟ .

لقد تحولت أمجاد أوليمبيا إلى أنقاض وأتربة ! .

وتحول تمثال زيوس إلى أحجار محروقة ورماد ! .

وتحولت إمبراطورية الإسكندر إلى دويلات صغيرة يحكمها قادة ضعفاء ! .

ولم يبق من وراء هذه البطولات سوى أحاسيس المرارة وخيبة الأمل ! .

لكن المرارة العظمى التى يعرف مذاقها كل حى فى عالمنا - ليست سقوط الحضارات أو إنهيار المدن أو فشل الزعماء والأبطال ، لكنها تكمن فى سقوط الجنس البشرى أجمع ! .

فليس السقوط اليومى الذى نعايشه فى حياتنا إلا مظهراً للسقوط الشامل والإنهيار الداخلى لذلك الانسان الذى جعله الله فى البدء رأساً وتاجاً للخليقة ، وهيأه للحياة المشرقة المتوجة ، لكنه إستجاب لدنايا نفسه ، ففقد قوته ، وإستطاب العيش الذليل فى تراب الأرض ! .

لقد فقد الإنسان بطولته الحقيقية فى إنتصاره على دناياه ، فهبط من أقداس حياته السماوية إلى دنايا الأرض وأوحالها . ومنذ ذلك الحين نراه يبحث عن بطولات (أنانية) ساذجة ، وأمجاد دنيوية زائلة ، لا يلبث بريقها أن يختفى بعد حين من الزمن طال أو قصر ! .

إن نماذج السقوط التاريخية كسقوط الممالك والحضارات والعواصم ، ونماذج السقوط اليومية كمقتل الأفراد وإحتراق الطائرات وغرق السفن وإنفجار القنابل والبراكين ... إلخ - هذه جميعها أجراس إنذار دائمة تقرع آذان البشر مذكرة إياهم بسقطتهم الكبرى ، وإنهيار الحياة من الداخل حين خرج الإنسان الأول عن طاعة الله ، وتبعه جميع البشر فزاغوا عن الحق ، وأمعنوا فى الضلال ولم تعد خشية الله ورهبته فى قلوب الناس ، وأصبح كل واحد يعيش فى صومعة من أطماعه التى لا تشبع ، بل مصيرها إلى زوال حتمى وسقوط خائب .

ولست أحسب الإنسان الذى فيه سمة الله - لست أحسبه إلا جوهرة ثمينة وحجراً كريماً ، لكنه سقط فى الوحل ، فإختفى بريقه ، فداسته أقدام الزمن ! .

وهذا الإنسان - صاحب الجوهر الروحى - والجسد الترابى - يحتاج إلى أن يغتسل ، فيزيح عن نفسه هذه الجسدانية التى شوهته ، ويحقق الإنتصار الذى لا تعقبه الهزائم ، والإنطلاق الذى لا يخلفه السقوط .

ولست أظن أن أنهار العالم جميعها تستطيع أن تغسل قلب الإنسان ، بل إن دماء القتلى جميعهم من بنى البشر على مر العصور مع دماء الذبائح فى كل الهياكل لا

تستطيع أن تغسل القلب الملوث أو تبرئـه من أوحاله ، أو تخرج إلى البهاء نور جوهره الربانى ! .

إن الإنسان - أى إنسان - مثلى ومثلك يحتاج إلى عمل إلهى فوق أعمال البشر ، وفوق بطولات الفرسان ، إنه يحتاج إلى يد الله تلتقط الجوهرة المطمورة فى الطين ، تخرجها من تحت أقدام الزمن الزائف وحطام المطامع الزائلة والمعتقدات المادية البالية والضمائر الخادعة أو المخدوعة .

إن الله وحده يستطيع أن يغسل بالنقاء قلوب الآثمين ، ويطهر نفوس الخادعين المخدوعين ، ويحقق الإنتصار للساقطين فى وحل الخطيئة ودنايا النفس البشرية .

فيا من فشلت فى تحقيق البطولات التى تطلعت إليها ..

ويا من تملكك اليأس حين إنهارت أمام عينيك النماذج المقدسة .

أيها الساقط فى أوحال لا يعرفها أحد سواك -

أرفع عينيك إلى السماء ..

إنك لن تصل إليها بأجنحتك الترابية -

لكنك تضمنها بعينك الواثقة ،

وقلبك الخاشع المتطلع إلى رحمة الله ونعمته .

إن سماء الله واسعة ، والطيور المنتصرة كثيرة

ويمكنك أن تحلق معها فى سماء بلا سقوط ! .

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

آفاق الحياة المنتصرة ..

أراد الفنان " **دايدالوس** " أن يهرب من المتاهة التى أودعه إياها الملك مينوس ، فتطلع إلى البحر ، فوجده تحت سيطرة عدوه ! ، وتطلع إلى البر فوجد الأبواب مغلقة ! ، فناجى الفنان نفسه قائلاً : ليس أمامك يا دايدالوس سوى الآفاق ! ، فلتجتهد ؛ لتشق فى الفضاء طريقاً ! .

وإستعان دايدالوس بذهنه المتوقد وخبراته الفنية ، وصفَ رياشاً كثيرة ؛ ليشكل منها جناحين عظيمين ثبتهما على كتفيه ، ثم صلى طالباً المغفرة من الإله جوبيتر قائلاً :

" ناشدتك يا أسمى الآلهه أن تغفر لى جرأة مسعاى ؛ فما دار بخلدى أن ألمس إحدى ديارك بين النجوم ، لكنى أريد فقط أن أهرب من الملك الطاغية ! ، وليس أمامى غير أن أتخذ طريقى عبر الأجواء ، فهب لى القدرة على أن أصنع قوانين جديدة ، وأغير الأحكام التى تربط البشر بالأرض ، وأبدع أحكاماً جديدة تسمح للإنسان أن يرتفع فى الفضاء ! " .

وصعد دايدالوس إلى قمة الجبل مع إبنه " **إيكاروس** " ، وحرك جناحيه هارباً عبر البحر إلى صقلية ، على حين سقط إيكاروس المسكين فى مياه البحر ! .

هذا ما تحدثنا به الأسطورة اليونانية القديمة ، وهو أيضاً ما حققه المخترع العربى الأندلسى عباس بن فرناس الذى حاول أن يطير أيضاً بأجنحة من الريش .. وغيرهما كثيرون أرادوا أن تعلوا أجسادهم بوسائل مصنوعة يحلقون بها فى الأجواء العليا .

يحاول الإنسان أن يرتفع ، لكنه يعود يهبط ، تجذبه الأرض إليها ، يدعوه التراب ، ليعود مرة أخرى إلى حيث أتى ! .

حتى النسور المحلقة فى الأجواء العليا تهبط إلى الأرض من أجل جيفة من الرمم ! .

إن حاجات الجسد تربط الإنسان بطين الأرض يسعى على سطحها ، ويستنشق ترابها .

إن الأجنحة القوية تضعف على مر الزمان ، وما يحققه المرء من سمو وإرتفاع بجهده وكفاحه الشخصي - كثيراً ما تعصف به الرياح المناوئة فى لحظة من لحظات الضعف ! . لقد أذابت الشمس اللاصق الشمعى فى جناحى إبن فرناس فهوى ! ، وسقط إيكاروس الصغير على وجه الماء حين دفعه نزق الشباب إلى الإرتفاع بعيداً عن المسار الدقيق الذى حدده أبوه .

الرفعة الحقيقة

إن الرفعة الحقيقية هى رفعة الحياة التى تحلق على أجنحة طبيعية ، وليست أجنحة مصنوعة ! . إنها رفعة النفس التى لا يثقلها جسد جائع نهم ! .

إن الإنسان الذى يحاول أن يحلق بجناحين من جهده الذاتى وقدراته المادية - قد يستطيع أن يحقق إرتفاعاً أو سمواً يسترعى الأنظار ، لكنه إرتفاع موقوت يتبعه الفشل حين تضعف مقاومته الذاتية مثلما يضعف - مع الأيام - البصر والسمع وقوة الجسد ! .

وهذا يفسر لنا : لماذا يسقط أحياناً بعض أصحاب السمعة الطيبة فى خطايا يترفع عنها كثير من الأدنياء ؟ .

إننا نحتاج إلى قوة رافعة تحملنا خارج أنفسنا وفوق شهواتنا الأرضية ، نحتاج إلى قوة روحية تسكن فينا ، وتملؤنا ؛ كما تملأ (الغازات) الخفيفة المنطاد ، فيرتفع بقوة داخلية إلى الأجواء العليا .

إن الرفعة الحقيقية هى تلك التى تبدأ حين نجثو على عتبات الله ؛ ليفرغ داخلنا من أثقال القيود الأرضية ، ويملأ أرواحنا بروحه القدوس ، فتشتعل فينا الأشواق للحياة النقية الصافية ، وتذبل الرغبات الدنيئة الهابطة ! .

آفاق الحياة المنتصرة

هل يكتسب الإنسان كثيراً حين يحلق فى أجواء الروح ؟ .

هل يبقى الإنسان الذى يملأ روح الله قلبه - كما كان وهو مثقل بأفكاره الأرضية ؟ .

إن إختبارات التائبين الخاشعين الذين غيرتهم نعمة الله - تشهد أن تغييراً شاملاً يحدث فى حياتهم ، وسمواً عظيماً ترقى إليه نفوسهم .

فحين نرتفع على أجنحة الروح تبدو الدنيا صغيرة فى أعيننا كعلب الثقاب ! .

وحين نرتفع على أجنحة الروح تفقد الأرض كثيراً من جاذبيتها ، فلا نرتبط بها كثيراً ، ولا نحرص على الأرتباط بمعطياتها القليلة ! .

وحين نقترب من الشمس لا تذوب أجنحتنا الشمعية ، بل تتطهر قلوبنا بنار المصاعب ، وتصفو حياتنا من الشوائب ! .

وحين نرتفع بقوة روح الله المُغيّرة - تتسع آفاق الرؤية أمام أعيننا ، فتكون لنا نظرة شمولية واسعة لا تقف عند أرجلنا ، بل نرى البحر والبر والحقول والمدن دون عوائق مادية صلبة .

وحين يحملنا الله بقدرته ، ويغير قلوبنا ودواخلنا - فإننا نرتفع إلى آفاق السموات الطاهرة ، فلا تزكم الروائح صدورنا ، ولا يزعجنا الضجيج الأرضى ، ولا تخنقنا (غازات) الشر المهلكة ! .

وينتصر قانون الحياة

وقف الولد إلى جوار أبيه يتأملان أغصان الشجرة الممتدة القوية فوق رأسيهما ، قال الإبن : لماذا لا تسقط هذه الفروع الثقيلة على رأسينا ؛ كما يقضى بذلك قانون الجاذبية الذى تعلمناه فى المدرسة ؟ .

قال الأب : لأنه فى داخل الشجرة قانونٌ آخر أقوى من قانون الجاذبية إسمه قانون الحياة ! ، وبهذا القانون تصعد الشجرة إلى فوق ، لكننا إذا قطعنا فرعاً من الشجرة - سقط وهوى لإنفصاله عن قانون الحياة الذى فى داخل الشجرة ! .

إن قوة الحياة التى يهبها الله لنا حين يقبلنا ، ويغفر خطايانا ، ويملأ قلوبنا من روحه - هذه القوة هى التى ترفعنا ، وتسمو بنا ، وتغلب فينا جاذبية الأرض وما عليها ! .

إن المنطلق إلى حياة الرفعة هو بقعة الأرض التى تجثو عليها معترفاً لله بضعفك وفشلك فى تحقيق الإنتصار على خطاياك وميولك بأجنحتك التى صنعتها لنفسك .

إن المكان الذى تجلس فيه الآن يمكن أن يصبح " المطار " الذى تقلع منه نفسك المثقلة إلى أجواء وآفاق الحياة الروحية السامية .

فلتقل معى :

إكشف يارب عن عينى ،
فأرى الطريق إليك .
خلصنى من أفكارى القديمة
التى تربطنى بالأرضيات الفانية
والحلول الجوفاء
أعطنى نوراً جديداً وقوة جديدة
أحملنى على أجنحة الروح ،
فلا أسقط أبداً

يارب .

فقراء إلى الإيمان ..

- من العقلاء والمتعلمين من يؤمن بالخرافات مثل البسطاء والسزج ! .
- اليوم المشئوم والشخص المنحوس والغراب والبوم والقط الأسود .
- (حذاء الفرس) فوق سارية (فيكتوريا) بأمر قائد (الطرف الأغر) ! .
- الإيمان الحقيقى يبعث فى القلب سلاماً ويقيناً لا يتطرق إليه الشك .

على ربوة عالية ، وقف ولدان صغيران يستمتعان بمشهد الغروب . قال أحدهما : لقد تحركت الشمس سريعاً حتى لامست خط الأفق ؛ فمنذ فترة وجيزة كانت الشمس هنا فوق هذه الشجرة ! ، إنها سريعة حقاً ! .

وقال الآخر : لكنّ الشمس لم تتحرك . الشمس ثابتة فى مكانها ، الأرض هى التى تحركت ! ، هكذا قال لنا أبى .

وهنا - نظر الأول إلى أخيه فى دهشة وقال : نعم سمعت أبى يقول ذلك ، ولكنى رأيت الشمس بعينىّ رأسى تتحرك من موقعها فوق الشجرة حتى خط الأفق . كما أن الأرض لم تتحرك ، إنها هنا فى مكانها منذ جئنا إلى هذه البقعة . أنظر إنها ثابتة - الأشجار والأحجار والأثمار والآبار جميعها ثابتة لم تتحرك ولم تتبدل .

وإرتبك الأخ الأكبر وتلعثم وهو يحاول إقناع أخيه بغير ما يرى - ثم ما لبث أن قال : لك الحق يا أخى ، فقد رأينا الشمس تتحرك والأرض ثابتة ، ولكنى مع ذلك أصدق أبى .

وقال الصغير : وأنا أصدق عينىّ .

وهذه القصة البسيطة تمثل إتجاهين واضحين فى ميول البشر ..

فمن الناس من لا يصدق سوى ما تراه عيناه ، ويرفض ما دون ذلك مما لا تدركه الحواس . ومنهم من يؤمن بالحقائق التى أثبتها العلم وإن لم ترها عيناه . ومن الناس من إتسع قلبه لقبول المسلمات التى نص عليها الدين وإن كانت خافية عن العين أو فوق متناول العقل والحواس . وهناك من سلم عقله وقلبه لكل ما شاع من الغيبيات والظواهر الخفية ! .

فالعقليون يقولون : **نصدق ما ترى عيوننا ، وما تدركه حواسنا .**

ويقول المؤمنون : **إن للكون إلهاً فاقت قدرته تعالى مدارك العالمين ، وهو يعلن لنا الخفايا بقدر ما تستطيع عقولنا أن تتحمل ، فإذا أخفى عنا سراً ، فهو يعلنه لأجيال قادمة ، كما أعلن لنا من أسرار الدنيا ما أخفاه عن أسلافنا . ونحن نصدق ما قاله لنا - فهمناه أو لم نفهمه .**

وقد يسخر العقليون من المؤمنين ويتهمونهم بالسذاجة وضيق الأفق ، وقد يضيق المؤمنون بالعقليين ويتهمونهم بالصلافة والكبرياء . وما هما - فى الحقيقة - سوى نمطين من أنماط البشر - يتعامل الله مع كل منهما بحكمته الإلهية ، فيتحدث إلى عقل هذا وقلب ذاك مسخراً قوى الطبيعة - ما ظهر منها وما خفى - لتقود كليهما إلى اليقين .

الخرافات والخوف

لكن هناك فريقاً آخراً لا يستطيع أن يميز بعقله حقائق العلم ، ولا يستطيع إيمانه أن يستوعب حقائق الغيب ، فيظل تائهاً فى رحلة الشك والخوف والضياع ، ويستنشق هواءً مترباً ويرى عالماً خفياً من وراء ستار كثيف من الدخان . فهو كمن يقود سيارة فى طريق صحراوى عاصف تظهر فيه أشباح الأشياء البعيدة ، فلا يتحقق يقيناً إذا كان ما يراه جسماً أو ظلاً ، هدفاً متحركاً أو ثابتاً . فلا يجد أمامه سوى ترجيح أكثر الإحتمالات شراً حتى يتوقاه . فهو يعتبر الظل جسماً والخيال حقيقة ، ويتفادى الظل والخيال خشية أن يكونا جسمين يصطدم بهما .

وهذا يفسر لنا إيمان الكثيرين بالخرافات السائدة ، فهم (لأنهم يرون الأمور من خلال دخان كثيف) يخافون الإصطدام بالمجهول ، فيقبلون عليه إتقاءً لما قد يخفيه من شر .

ولا دخل هنا بالتوعية الثقافية والعلمية - **فالإيمان بالخرافات لا يقتصر على البسطاء والسذج ، بل يتعداهم إلى المتعلمين والعقلاء** الذين يقبلون على الخرافات تحسباً للشر الذى قد يصيبهم إن هم تجاهلوا العرف السائد . **فعقولهم لم تعطهم تفسيراً للغيبيات ، وقلوبهم لم تدرك الإيمان بالحكمة الإلهية وراء الغيب .**

لذلك - لا غرابة أن نرى طبيباً يتردد خفية على دجال يعالج المرضى بالأعشاب أو بالبخور . أو أستاذاً جامعياً يؤمن بقارئة فنجان . أو سيدة متعلمة تدّعى أن طفلها لا يأكل ؛ خشية أن تحسده الأخريات فتقل وجبته أو يصيبه مرض ما ! ، إلى آخر هذه الخرافات السائدة .

ويضيع سلام الإنسان وعقله

فى إحدى القرى إعتاد أحد صيادى السمك أن يغطى ما يصيده (بحفنة من التراب) ، حتى لا تنظره العيون فتشتهيه ، فيسوء مذاقه فى فم من يأكله ! . وقد أدهشنى صديق متعلم حين جزم بأن ثمرة البطيخ التى أشتراها أصبح مذاقها مالحاً ولونها باهتاً لأن بواب البناية نظر إليها وهو يحملها فى طريقه إلى البيت ! .

والقائد البحرى الإنجليزى الشهير " نلسون " (١٧٥٨ - ١٨٠٥م) الذى عرف بأمير البحار ، والذى قضى على الأسطول الفرنسى فى أبى قير بمصر وحطم آمال نابليون فى الشرق ، وهزم الإسبان والدانيماركيين ، ثم حقق إنتصاراً ساحقاً فى معركة الطرف الأغر (١٨٠٥ م) حين دمر الأسطولين الفرنسى والإسبانى ، هذا القائد القوى المتمكن علق (حدوة حصان) فى أعلى سارية السفينة فيكتوريا التى كان يدير منها المعركة التى مات فيها إعتقاداً منه أن (حذاء الفرس) يجلب الحظ الحسن ويمنع الحسد ، ويهدد بالقضاء على الشيطان ! .

وهو إعتقاد سائد إلى يومنا هذا ، إذ يحسب البعض أنه يقى من الأمراض ، ومن فعل السحرة ، لذلك يضعونه فوق عتبات البيت أو المحال التجارية إستجلاباً للحظ ! ، وإتقاءً للشر ! .

وتتنوع الخرافات بين إيمان بأعمال السحر والجن ، إلى تعاويذ للوقاية من الأخطار إلى كتابات لرصد الكنوز إلى تمائم لإبطال الحسد وإتقاء العين الشريرة ، إلى تشاؤم من علامات فال ردئ أو تفاؤل بعلامات فأل حسن . وبين هذه جميعها تضيع الحقيقة ويضيع اليقين ويصبح سلام الإنسان فى مهب الريح .

قال الفيلسوف الفرنسى " فولتير " (١٧٤٩ - ١٨٣٢ م) : " **الخرافات تضع العالم كله فى الدخان ، والفلسفة تجلو الحقيقة** " . ولو أنصف فولتير لقال إن **الإيمان يجلو الحقيقة** . فالحكمة لم تشف غليل الحكماء للمعرفة ، وظل الفلاسفة نهباً للشكوك ، فهم يرفضون راحة التسليم بما قبله العامة ، ولا يملكون تفسيرا شافيا للغامض والخفى . فيظل الحكيم يبحث عن الحقيقة طوال عمره ، وقد يجد شيئا يستريح إليه ، وقد لا يجد ، لكنه على أى حال لا يستطيع أن يخرج العالم من غلالة الدخان إلى نور الحق الصريح ، فهذا ما يفعله الإيمان بالله .

إن الإيمان بالخرافات تحقير لعقولنا ، والإيمان بالله تكريم وإعلاء لها .

صرخة إنسانية ..

يا ربنا

إننا فقراء إلى الإيمان بك .
إيماننا الذى ندَّعيه ، لا يرفعنا فوق مخاوفنا .
إننا نردد كلمات الإيمان بألسنتنا ،
لكن قلوبنا خالية من اليقين .
نحن نخاف عواقب الأمس ،
ونخطو خطوات اليوم فى حذر ،
ونتحسب للمستقبل المجهول ،
ونخفى مخاوفنا وراء أستار ممزقة
من الخرافات التى لا تعطينا سلاماً ،
فأعطنى إيماناً حقيقياً بك ،
إيماناً يبعث فى قلبى السلام والثقة ،
واليقين فى حبك وحمايتك ،
وقبولك وغفرانك .

آمين .

الايمان بالخرافات تحقير لعقولنا والإيمان بالله إعلاء وتكريم لها

لماذا نخضع للخرافات ؟

قراءة الكف والفنجان والرمل والودع ، وإطلاق البخور وكنس المقابر !

قيل إن أحد السلاطين كان يحيط نفسه بعدد كبير من (العرافين) الذين يقرأون له الطالع ، وينبئونه بالمستقبل الخفى . لكن هذا السلطان لم يكن يثق فى أحد منهم . لذلك فإنه ما كان يتخذ قرارا أو يحدد موقفاً قبل إستدعاء جماعة السحرة والعرافين ، فإذا جاء أحدهم همّ إلى إستقباله ، وأحسن معاملته ، وأنصت إليه والتمس مشورته . وما أن ينتهى العراف من فتواه حتى يبادره السلطان بقولته المشهورة : " كذب المنجمون ولو صدقوا " ، ثم يتخذ قراره بعكس ما أشار العرافون .

ولعل هذه القصة تفسر لنا موقف الكثيرين منا الذين ترفض عقولهم الخرافات ، لكنهم لا يستطيعون التخلص من سلطانها ، فيتهرب الواحد من لقاء شخص معين يرى أنه نذير شنوم عليه ، ويتردد تاجر فى عقد صفقة فى يوم (منحوس) لا يأتيه فيه خير . ويرجئ المسافر رحلته لأنه رأى نفسه فى المنام حافى القدمين ، وينقبض صدر المريض لسماع صوت طائر أسود . وتتخوف أمّ على ولدها حين تختلج (ترف) عينها اليسرى ... إلى آخر ذلك من المواقف التى يتخذها الكثيرون دون الإفصاح عنها خجلاً من ضآلتها أمام العقل والبيان . لكنه الخوف والتحسب اللذان جعلا لها سلطاناً على الناس .

لماذا نخضع للخرافات إذاً ؟ ..

الخرافة متعة

للخرافات السائدة بين الناس بريق خاص ، فهى تنطوى على أسرار وغيبيات ، ولها جذور دفينة فى أعماق المجهول ، وتساندها قصص (وحواديت) متداولة ،

أغلبها موروث عن الأجداد ، وقليلها منسوج على غرار ذلك التراث . ويضيف الخيال والوهم كثيراً من الحلاوة والطلاوة إلى أحاديث الخرافة ، فتصبح مليحة مستحبة ، تترك فى السامع إحساساً غامضاً بين قشعريرة الخوف والرهبة ، وإنبلاجة الأمل والنشوة . وهذه متعة لها مذاق حريّف ، ولا تدانيها متعة الحقائق العلمية الجامدة ، أو الخبرية الجافة أو المنطقية المألوفة .

فعندما يصل إلينا (مثلاً) أن إنساناً ما في مقدوره أن يخبرنا بأحداث المستقبل ، فأننا قد نجد لذة فى بسط كفوف أيدينا له ليقرأ خطوطها ، ويتلو على مسامعنا كلاماً عزيزاً على نفوسنا ، فالرجل مشغول بحياتنا نحن ، ويتحدث بإهتمام عن دعائم هذه الحياة الشخصية وأسرارها : الحب ، والمال ، والصحة ، والنجاح ، والجنس ، والرحلات ، والمفاجآت . وقد يقطّب حاجبيه ويخبرنا عن مرض عضال سيصيبنا أو حادث جلل سيحيق بنا ، ولعله لا يتورع عن الإفصاح بالسر الأعظم ويحدد لنا متى سنموت ! .

لذلك فإن المتعة التى يتركها مثل هذا الموقف تتمثل فى ذلك الشعور بالطمأنينة والخوف والشجاعة والقلق فى آن واحد . والتنقل السريع بين الإستخفاف بالخرافة والإيمان بها . وبين إستهجانها والتخوف من نتائجها . وبين الإقبال عليها فى غيبة العقل ، والخجل منها فى صحوة التعقل .

وهناك أيضاً ذلك السحر الذى تتركه كلمات تلك (الغجرية) التى تتمتم بكلمات مضغمة وعبارات محفوظة ، فتنحشر بين عريس وعروس لتبسط حفنة الرمل والودع ، وتبشر العروسين بحياة سعيدة (فى الثبات والنبات) ، وبنسل وفير من الأولاد والبنات ! ، فتترك على وجهيهما نشوة خجولة . والخرافة هنا تسلية ومتعة عقلية ، ومهرب من صرامة الحياة وقسوتها . لكن التسلية والمتعة ليستا كل ما يدفع إلى التمسك بالخرافات .

الخرافات مخدر عقلى

قد يلجأ الإنسان بإرادته إلى خرافة سائدة ، يهرب بها من وعيه وإدراكه . ويتهرب بها من مواجهة الحقائق الصارمة ، تماماً كما يلجأ المدمنون إلى المخدرات والعقاقير .

فالمريض الذى أغلقت أمامه أبواب الشفاء ، يلجأ إلى الدجال الذى يطلق البخور ،

ويذبح الدجاجة السوداء ، وينثر تراب المقابر على عتبة الدار ... إلخ ، فهذا العمل الهمجي يبدو فى عينيه أفضل من لا شئ ! .

والشاب المفتون الذى خاب حبه ، وإنكسر قلبه ، يستسلم لمشعوذ مخبول ، فيكتب (حجاباً) عليه نبش كالكتابة يجعله رفيق نومه وقيامه ، ويخفيه كالكنز الثمين فى طيات ملابسه ، فهذا العمل السخيف يبدو فى عينيه أفضل من لا شئ ! .

والتاجر الخاسر يعلل إخفاقه بحسد الحاسدين وكيد الحاقدين ، وأعمال السحر التى أجراها المنافسون . فهذا التعليل يخفف عن كاهله الإحساس المرير بالفشل ، ويدفع عنه الإتهام بعدم الحنكة والدراية بأسرار المهنة .

ويتعلل الطالب الذى رسب بسوء حظه ، ويجزم بأن إحساساً عميقاً بالفشل داخله منذ وقعت عينه على رقم بطاقة الجلوس أمام لجنة الإمتحان ؛ فقد جاء الرقم زوجياً وليس به رقم ٧ ، كما أن مجموع الرقمين الأوسطين ١٣ ! ، فضلاً عن أن الإمتحان جاء يوم الأربعاء ، وهو يوم يتشاءم منه . وبالطبع فإن هذه التعليلات جميعها ليست سوى مخدر عقلى فى صورة خرافة سائدة يتعلل بها أصحاب الحاجات (عند اللزوم) مثل الأدوية والعقاقير . فقبولها - على أى حال - أفضل لهم من مواجهة الفشل فى صمت ، وحماية لماء الوجه ! .

الخرافات قوة مسيطرة

قد لا يكون للخرافات تأثير حقيقى أو أثر واضح فى حياة بعض الأفراد ، لكن الإحتمال الآخر قائم أيضاً . فقد نتلهى بتداول بعض الخرافات للتسلية - كقراءة الفنجان مثلاً ، ثم تلعب الصدفة دوراً كبيراً فى تثبيت هذه الخرافة ، وينقلب المزح إلى إيمان وثيق . فإذا قالت قارئة الفنجان مثلاً إن هناك رسالة هامة فى الطريق إلينا ، أو إن ضيفاً عزيزاً سيحضر إلى البيت ، أو أن مبلغاً من المال سيجرى فى أيدينا ، فليس من المستغرب أن يحدث هذا بصورة طبيعية فى وقت مزامن لذلك الذى حددته قارئة الفنجان . فإذا دفعنا هذا إلى إستجلاء المستقبل مرة أخرى عن طريق الفنجان ، فإننا نكون فى بداية الطريق إلى السخرية من العقل وإمتهانه .

وإذا أصبحت الخرافة حاضرة فى أذهاننا ؛ فهذه مرحلة أخرى من مراحل الوقوع تحت سيطرتها . ومثال لذلك : إذا أصابنا القلق حين أشاد إنسان " حسود " بشئ من

ممتلكاتنا ، ووجدنا أنفسنا نتحوط حتى نتفادى الخطر الذى تحذره الخرافة ، فإننا نكون قد دخلنا فعلاً فى دائرة الإيمان بها . ولعل القولة المشهورة : " اللهم إجعله خيراً " ، التى يرددها الناس إذا هم أسرفوا فى الضحك ، دليل على إيمان عميق بأن الضحك يتبعه البكاء ، كما تقول الخرافة الإغريقية ! .

الخرافة قوة مُحطمة

لكن الخرافة إذا أحكمت سيطرتها على العقل ، فإنها تصبح أيضاً قوة مُحطمة . ولعل الكثيرين من المرضى فى مستشفيات الأمراض النفسية والعصبية كانوا صرعى إيمانهم بخرافات وخيالات وأوهام سيطرت على عقولهم حتى سلبتها ، وعلى إرادتهم حتى أوهتها ، ولم تترك فى مخيلتهم سوى قصة الجنى الذى يظهر أمامهم فى الطريق - ويطول ويقصر ! . أو قصة الكنز المرصود فى بئر الساقية المهجورة وحارسه الأسود ذى العينين الحمراوتين والأظافر الدموية ! .

الخرافات إذاً تأخذ طريقها إلى العقول بما فيها من إغراب أو طرافة . وقد يتداولها الناس تعلقاً بأمل كاذب أو تبريراً لخطأ فاضح أو تلمساً لحل مستبعد . وقد تأخذ طريقها إلى العقل بما لها من قوة مسيطرة مخربة تسلب العقول .

٢٤ - مبادئ إنسانية ..

من الخرافات ما يضيّع الوقت والمال والعقل والعمر
لكن أخطرها جميعاً ..
ما يضيّع فرص التوبة والخلاص !

كان إسمه الأصلى " صالح " لكنه لم يعرف فى حياته كلها شيئاً من الصلاح . فحين كان طفلاً رضيعاً كان يعض أمه ، وعندما بدأ يخطو خطواته الأولى ظهرت نزعاته العدوانية ! .

وقد قضى " صالح " فترة قصيرة فى المدرسة الإبتدائية ، كتلميذ مشاغب ، كثير الشجار ، يبتز زملائه ، ويسرق مدرسيه ، ويحطم مقاعد الفصل ، ويدبر " المقالب " للجميع . وحين ترك الدراسة ، التحق بورشة لإصلاح السيارات ، فلم يتعلم شيئاً ، ولم يخدم أحداً ؛ فلفظته الورشة مرة أخرى إلى الشارع العريض - بعد أن أصبح أكثر خبرة فى الشجار ، وأخف يد فى السرقة ! .

إنتهى الأمر بصالح إلى إحتراف النشل ، ثم النصب ، ثم التهريب ، ثم التجارة فى الممنوعات ... إلخ . وفى خلال هذا العمر الحافل حصل على إسم الشهرة " لبط " فنسى إسمه الأصلى تماماً ، وأصبح إسماً على ما يسمى ، لأن " اللبط " هو المراوغة والخداع والغش - وهى الصفات الحقيقية التى لصقت به .

دخل " لبط " الإصلاحيات والسجون والمعتقلات ، وأصبح له سجل حافل فى إدارات الأمن .

وتقدمت الأيام بالمعلم " لبط " ، ولم يعد قادراً على ممارسة الجرائم العنيفة . وأحس أن الوقت قد جاء ليترك الميدان للأجيال الصاعدة الفتيّة من أهل البلطجة ، فقد أصبح هو حوتاً عجوزاً لا يستطيع الآن أن يبتلع الحيتان العفيّة ! .

وأختفى لبط عن الأنظار فترة من الزمن ، ولم تعد ترصده عيون الشرطة ، ولم يعد إسمه لامعاً فى سجلات المجرمين ، حتى كاد ينسى تماماً .

ولم يجد " لبط " فى كل ما جمعه خلال سنوات عمره الشقية - لم يجد شيئاً

يمكن أن يستثمره فى شيخوخته سوى إسمه القديم : صالح ! . ولمعت الفكرة فى ذهنه المتمرس ، فقال لنفسه : هذه فكرة جيدة .. صالح .. الشيخ صالح ! .

ونزح الرجل إلى قرية بعيدة - لا يعرفه فيها أحد ، وأقام فى عشة صغيرة عند أطراف القرية ، حيث جمع حوله بعض المشردين ، الذين أشاعوا فى القرية أمر الشيخ المبروك " الشيخ صالح " الذى هبط عليهم من السماء ، يكتب أحجبة المحبة للصلح بين الأزواج ، والجمع بين الأحباب ، وعلاج الأمراض المستعصية بإذن الله ! .

ولم يمض وقت طويل ، حتى صار الشيخ صالح حديث القرى المحيطة كلها ، ثم بلغت شهرته المدينة القريبة . وفى خلال أعوام قليلة ، أصبحت تقف أمام عشته سيارات فارهة يركبها تجار أثرياء ، ومهندسون معروفون ، وطبيبات وموظفات كثيرات . ولم تعد الهدايا التى تقدم للشيخ المبروك هى البيض والزبد والطيور التى كانت تجلبها الفلاحات ، بل صارت هداياه من سبائك الذهب ! .

وإكتشف صالح أنه أضاع عمره عبثاً فى أعمال عنيفة كالسرقة والبلطجة - التى كانت تكلفه الجهد والمخاطرة ليصل إلى الخزائن المغلقة ، أما الآن ، فإن الخزائن تأتى إليه مفتوحة دون جهد يذكر . فما أكثر الذين يؤمنون بالخرافات ، ويضحون من أجلها بكل شئ ! .

إن الإيمان بالخرافات بئر مظلم ، يبتلع العقل ، ويغيب الوعى ، ويفقد المال ، ويضيع الحياة الروحية ، ويغلق الطريق الصحيح إلى الله .

الخرافات أنواع

الخرافات أنواع كثيرة ، منها ما يتعلق بالقدرات الخفية على شفاء الأمراض . ومنها ما يتعلق بالحفظ من الحسد ، ومنها ما يتصل بالحماية من الأرواح الشريرة ، أو الإتصال بروح الميت . ومن الخرافات أعمال السحر ، وكتابة الأحجبة ، للشفاء من الأمراض ، أو لبعث الحب ، أو إيجاد الكراهية . وهناك خرافات تتعلق بإدعاء معرفة الغيب ، وكشف الأسرار ، وإحضار المسروقات ، وإكتشاف الكنوز . كما تنتشر بين الناس خرافات كثيرة حول التفاؤل والتطير ، وإستجلاب الحظ وفتح الرزق ... إلخ .

وبالرغم من أن الخرافات تنمو وتتكاثر فى عقول البسطاء والجهلاء ، حيث تجد ترحيباً وقبولاً ، غير أن الإستجابة للخرافات قد تتواجد أيضاً فى أوساط المتعلمين ، وأصحاب المراكز العلمية والأدبية ، تبعاً لنقاط الضعف التى تنفذ منها ! .

الخرافات ونقطة الضعف

ترتكز الخرافات فى قلوب الناس على نقطة الضعف . فالمريض الذى يعانى من مرض مزمن ، يستجيب للشعوذة التى تدَّعى قدرتها على الشفاء العاجل . والمحب الذى لا يجد قبولاً لدى من أحب يلجأ للحجاب ، والفتاه التى يفوتها قطار الزواج لا تجد أمامها غير الكتابات السحرية ، وأهل الغائب الذى إنقطعت أخباره يلجأون للعرافة ، وأهل الميت الذى مات فى غربته ، يسعون للإتصال بروحه كما يزعمون . والمتعطشون للثراء يستجيبون سريعاً لمن يدعى قدرته على كشف الكنز المخفى . وهكذا تجد الخرافات إستجابة أولية ، لا تلبث أن تصبح إيماناً عميقاً .

الخرافات والوهم

ويلعب الوهم دوراً كبيراً فى ترسيخ الإعتقاد بالخرافات . لذلك يستخدم الدجالون إيحاءات ومؤثرات كثيرة ، فيطلقون البخور ، ويظلمون المكان ، ويصدرون الصيحات ... إلخ ، مما يوهم الناس بما يدعونه من خداع ، حتى يصبح الدجل إيماناً راسخاً فى الوجدان والشعور .

إن أسوأ ما يقع فيه الإنسان العاقل هو أن يوهم ذاته بأفكار خرافية ، تتعارض مع أحكام العقل . أو يوهم ذاته بأفكار روحية تتعارض مع أحكام الإيمان ! . فهو بذلك يعطل عقله الواعى ، ويغرق فى أفكار مظلمة ، ويعطل ضميره ليؤمن بأوهام تؤدى به للضلال والهلاك ، وتضيّع فرصة التوبة والخلاص ! .

الخرافة والحق ..

هناك حق مطلق يعرفه الله سبحانه ، أما الإنسان ، فتختلط عليه الأفكار ، وهو يتعرض لتأثيرات كثيرة ، وتستميله أهواؤه ، وتلعب قوى الشر بنقاط ضعفه ، فتتشكل عقائده بعيدة عن الحق ، حتى أنه يتمسك بخرافات سائدة - تؤيدها أبواق

كاذبة - فتصبح الخرافة لديه عقيدة يحسبها هى الحق .

ولا سبيل لحياة عقلية متزنة ، وحياة إيمانية صحيحة - إلا باللجوء إلى الله بقلب سليم ، وبنية خالصة ، وعقل مفتوح ، فيكشف الله الضلال ، ويعلن الحق ، ويرسخ الأقدام على طريق الخلاص الأبدى .

صرخة إنسانية ..

يارب

كرهت الخرافات الخادعة ،
كرهت الوهم الكاذب .

أريد أن أعرف الحق ،
الحق الواحد الصريح .

عقلى ملئ بالغش ،
قلبى ملئ بالخداع ،
أذنى إمتلأت بالكلام الكثير .

خدعنى الناس ،
وخدعت نفسى .
أريد أن أبرأ من الوهم ،
أريد أن أغتسل من الكذب ،
لو كان الأمر يتعلق بشئون الدنيا ،
لما إنزعجت روحى فى داخلى ،
لكن الخداع يتسرب إلى ضميرى ،
إلى عقيدتى .

فلقد خدعت نفسى كثيراً ،
وظننت أننى إنسان صالح ،
فلما تطلعت إلى نور قداستك ،

رأيت نجاستى .

ولقد حسبت أن تدينى وعبادتى -
سيفتحان لى طريق السماء ،
هكذا قيل لى .

فلما تطلعت إلى نور قداستك ،
علمت أن عبادتى كالحطب الجاف ،
لا تؤهلنى إلا لنار الجحيم .

ولقد تمسكت بأعمال البر والأمانة ،
وقلت إن العمل الصالح يورّث الجنة ،
فلما تطلعت إلى نور قداستك ،
رأيت أن أفضل أعمالى مليئة بالفساد .

لقد كرهت الحياة المتعلقة بالأوهام ،
أريد يقيناً يملأ قلبى ،
ويمنحنى سلاماً غامراً .

فإكشف لى حقك ،
أعلن لى نورك ،
ليتعامل روحك القدوس مع روحى ،
لتعطنى يقيناً داخلياً ،
بعيداً عن خداع البشر .

ولتوضح لى طريقاً أسلكه إليك ،
بعيداً عن الوهم والخرافة ،
أرح نفسى -
فليس ما يريح النفس إلا الحق ،

يارب .

٢٥ - مبادئ إنسانية ..

الجبن سيد الأخلاق ✗

الشجاعة سيدة الأخلاق ✓

عندما أشتعلت نار الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب الأمريكيين ، ملأت الحماسة والغيرة قلوب الجناحين المتحاربين . فإستبسل الشماليون فى الدفاع عن مبادئ الأخلاق ، وحقوق العبيد فى الحرية ، ودافع الجنوبيون عن مصالحهم وإستقلال ولاياتهم التى كانت تقوم على الزراعة ، ولا تستغنى عن العبيد الذين يقوم على كاهلهم الإقتصاد الزراعى .

ولم تهدأ نار الحرب حتى تخضبت الأرض بدماء أكثر من نصف مليون متحارب ملأت أشلاؤهم ميادين القتال .

وحفلت الحرب بكثير من قصص الشجاعة ، والمواقف البطولية المشرفة ، كما تركت أيضاً صوراً للتخاذل المخزى الذى إتخذه بعض صغار النفوس .

ومثال للفريق الأخير ، نقرأ قصة رجل عاش على الحدود بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، فكان له فى أمر الحرب قلبان متناقضان : قلب يدعو للإتحاد مع الشماليين (الإتحاديين) ، وقلب يميل إلى تغليب المصلحة الذاتية فيدعو للإنفصال مع الإنفصاليين (التعاهديين) أهل الجنوب .

ولأن الرجل لم يكن شجاعاً إلى الموت ، فقد آثر السلامة على المبدأ . وأعتبر الجبن سيد الأخلاق ، فأحتال للنجاة بكل سبيل ، فإرتدى المعطف الرمادى رمز التعاهديين (الجنوب) ، وإرتدى السروال الأزرق رمز الإتحاديين (الشمال) . ووقف فى الميدان مطمئناً ، فى مأمن من الخطر . فالشماليون سينظرون إلى سرواله الأزرق ، فلا ينالونه بشر ، وسينظر الجنوبيون إلى معطفه الرمادى ، فيتركونه إلى حال سبيله ، هكذا كان تقدير الرجل للأمور .

غير أن الأحداث أتت على غير ما أراد ، فقد حميت نار الحرب فى خط الحدود ، ووجه الجنوبيون طلقاتهم القاتلة نحو أصحاب السراويل الزرقاء فكان لصاحبنا نصيب فيها ، على حين وجه الشماليون طلقاتهم إلى معطفه الرمادى ، فتمزق الرجل

بالسلاحين ، وقُتل مرتين ، من حيث كان يظن أنه قد أحتال على الموت ! .

إن القول بأن الجبن سيد الأخلاق ، قول إنيزامى كاذب . فالجبان يموت كما قد يموت الشجاع ، لكنه لا يحقق ما قد يحققه الشجعان من قيمة مؤثرة فى مجريات الأمور .

المعنى الأخلاقى للشجاعة

الشجاعة عند أفلاطون إحدى الفضائل الأربع الأصلية : **الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة** . وهى تأتى فى المرتبة الثانية بعد الحكمة ، وتسمو على العفة والعدل ! . وهى عند أرسطو وسط بين التهور والجبن .

وفى التراث العربى يتحدث الفلاسفة الخلقيون عن الشجاعة ضمن الأخلاق الحسنة والفضائل . فيعرفها يحى بن عدى (أواخر القرن التاسع الميلادى) فى كتابه " تهذيب الأخلاق " فيقول : **الشجاعة هى الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف ، والإستهانة بالموت .**

وكلمة شجاعة فى الإنجليزية COURAGE ، مشتقة من اللفظ اللاتينى COR ، ومعناه القلب ، **فالشجاعة فى اللغة هى الجرأة والإقدام ، وشدة القلب عند الهول . والشجاع هو المُقدم على الخطر بغير خوف ، والصابر على الألم بغير شكوى .**

كيف يصبح الإنسان العادى شجاعاً ؟

إذا كانت الشجاعة هى مواجهة الأخطار بقلب ثابت جسور ، ومواجهة الألم بالصبر والصمت ، **فكيف يصبح الإنسان العادى شجاعاً ؟ .**

كيف يواجه الإنسان العادى خطر الحياة الداهم بقلب ثابت ؟ . وكيف يتحمل الإنسان العادى آلام المرض والحزن أو خيبة الأمل إذا كانت المصيبة فادحة ، أو كان خواراً عديم التجلد ، قليل الإحتمال ؟ .

حدثنا التاريخ عن كثير من الأبطال الذين واجهوا صعاب الحياة وآلامها بشجاعة منقطعة النظير ، مع أن الكثيرين منهم كانوا أناسا عاديين أهتزت نفوسهم خوفاً ، وإرتجفت قلوبهم هلعاً ، من هول ما بدا لهم ، لكنهم سرعان ما تشددوا بقوة من خارج

نفوسهم ، أعانتهم وساندتهم ، حتى صارت قلوبهم ثابتة كالصخر .

وهذه القوة التى تشدد الخائر ، وتقوى الضعيف ، وتشجع الجبان ، وتدفع المتردد ، هى قوة الله وقدرته ، وعزاء الله ونعمته ، يمنحها للمستغيثين به ، المعترفين بسلطانه وعظمته فوق كل ما فى الكون .

كان جون روث مصلحاً ، متحمساً ، أميناً ، يخاف الله ، ولا يهاب فى الحق أحداً. وفى يوم من الأيام وقف روث يقول : " إن الملك خائن للعهد ، فهو يأخذ جانب الأشرار " .

وبلغ الحديث آذان الملك الصارم الشرير ، فدعاه للمواجهة . وكان الموقف رهيباً . قال الملك فى ثورة عارمة : الآن عليك أن تعلن جهاراً موقفك مما أنت متهم به . وظن الملك أن الرجل سينكر الإتهام ، أو سيستغفر ، وعلى أقل تقدير سيعتذر ويتراجع ، لكن روث بعد أن أستلهم الشجاعة من الله ، قال : أيها الملك ، إن ما قلته عنك لم يكن كلمات اللسان فقط ، فلقد فكرت فيها بعقلى ، ونطق بها لسانى ، وخطتها يدى ؛ فإذا إستدعى الأمر بمشيئة الله فإننى سأختم هذه الوثيقة بدمى .

وليس هناك ما يهب مثل هذه الشجاعة جاعلاً الإستشهاد هينا سوى الإيمان بقدرة الله وخلود الروح . فالبشر مهما كان سلطانهم فى الأرض ، لا يملكون سوى قتل الجسد فقط ، أما الروح فهى فى يد الخالق الحى ، الذى يملك القرار فى شأن خلود أرواحنا ، ومقرها الأبدى .

وليس هناك ما يشجع المتألم ، ويعزى الحزين ، ويجبر كسر المنسحقين فى الأرض ، سوى الإيمان بالوعد الإلهى الحق ، أن يجعل الآخرة عوض الدنيا ، ويبعث أرواح الخاضعين التائبين الصابرين فى عالم الخلود ، الذى لا ألم فيه ولا شقاء ، ولا حاجة فيه ولا عناء . حينئذ يتشجع الخائر ويتقوى الضعيف ، وتتلاشى الآلام ، وتجف الدموع ، فى ضوء الرؤية المستقبلية المضمونة بالوعود الإلهية الصادقة .

نصيبنا بين الشجعان

هنــاك أوجه للشجاعة ، لا يتيســر لكل الناس ممارستهــا ، كالشجاعة فى مواجهة

الأخطار والمصائب ، أو الأزمات ، أو الأمراض ... إلخ .

لكن هناك فرصة مواتية لكل واحد منا لإظهار شجاعته أو إختبارها فى المواقف التالية :

(١) شجاعة التفرد :

أى أن يقف الإنسان وحيداً فى موقف معين يرى أنه غير مقتنع به . إن أسهل الأمور أن يسير الإنسان مع التيار المتدفق . فيكون نقطة فى بحر . إن إنتماءه إلى أغلبية صالحة أو أغلبية فاسدة أمر لا يهم ، فالأغلبية التى ينتمى إليها تحميه وتسانده .

لكن الشجاع هو الذى يستلهم مبادءه ، ويسترشد بصوت ضميره ، ونداء ربه ، فلكل إنسان فى الوجود هدف أوجده الله له ، وميزه بميزة خاصة ليتواءم مع دعوته وهدفه . هذه شجاعة التفرد .

(٢) شجاعة مواجهة النفس :

قالت السيدة الدميمة ، ليت جميع المرايا تختفى من الأسواق ، فإننى لا أطيق أن أنظر إلى واحدة منها ! . وهذه إحدى الحقائق المُرة فى حياة الناس ، فنحن لا نستطيع أن ننظر إلى المرايا التى تكشف عيوبنا ، إننا لا نستطيع أن نواجه نقائصنا ، أو نرى حقيقتنا التى لا تسرنا . إن الناس من حولنا يخدعهم مظهرنا ، ونخدعهم نحن بإدعاءاتنا . وقد ينافقنا الناس ، فيزيدون العتامة فى المرايا الكاشفة ، ويخلقون ضباباً بيننا وصورتنا الحقيقية .

إن مواجهة النفس بلا رحمة ، بأخطائها ، ودناياها ، وأعمالها السرية المشينة ، لون من الشجاعة المتاحة ، والتحدى الخطير الذى يواجهنا إن كنا أمناء لله وللنفس .

(٣) شجاعة الإعتراف بالخطأ :

وهذا تتويج لشجاعة المواجهة الذاتية . **فحين أواجه نفسى بأخطائها فإننى أكون كمن أكتشف الداء الخبيث الكامن فى داخلى ، فإذا أعترفت جهاراً بخطأى ، أكون كمن وجد الدواء .**

إن مواجهة النفس وقوف فى قفص الإتهام ، حيث الله يحاكمنا ، وروحه يكشفنا ويدينا . والإعتراف بالخطأ وقوف على باب التوبة ، حيث الله يرحمنا ، وروحه يقدسنا وينقينا .

صرخة إنسانية

يا ربنا

يا من تغفر الذنوب
وتطهر من كل إثم
أعترف إليك أننى حين أواجه ذاتى مواجهة
صادقة بعيدة عن عيون الناس وخداع النفس
وضلال المظهر والتظاهر ، فإننى أجد نفسى
ضعيفاً ، جاهلاً ، أنانياً ، حقوداً.

وحين أتفحص قلبى أجده مخادعاً كاذباً
شهوانياً ، متقلباً وحين أفتش فى عقلى أجدنى
أسيراً لأفكار صفراء
قديمة بالية إبتدعها غيرى

واستسلمت لها فى إستكانة وتعصب فى جهل
وضيق أفق .

لذلك فإننى أقف بباب رحمتك معترفاً بأننى
جبان أحتمى فى الكثيرة وأخضع للمتوارث
والمألوف ، ولا أجرؤ على أن أستلهم إرشاد
روحك ونور هدايتك ،

فإملأنى بالشجاعة لأكون إنساناً جديداً ..

يا رب ؟

اقتلع الكراهية من صدر أخيك بانتزاعها من قلبك أولاً

لماذا نكره ؟ ..

وكيف نحب ؟

كان كل شئ جميلاً فى قريتنا الصغيرة الوادعة فى أحضان الريف الأخضر ، حتى جاء شيطان من الشياطين فألقى بذرة الحقد فى قلب أحد أثرياء القرية ، فأثمرت عملاً قبيحاً شوه وجه الحب فى قريتنا الجميلة .

فقد نسى الرجل أو تناسى ما كان يعيش فيه من نعيم ، وما كانت تجود به أرضه من خير ، وتعلق قلبه بآنية العسل الأبيض ، التى كان يحملها نحّال القرية .

ظل الرجل يردد على مسمع من الناس كلماته الحاقدة قائلاً : إننى أتعب كثيراً فى زراعة هذه الأرض الجدباء ، أحرثها وأرويها ، أتابعها بالجهد والعرق ، ثم أجمع ثماراً قليلة لا تتناسب والجهد الذى أبذله فيها ، على حين ينام جارى النحال طوال ساعات النهار والليل ، وتقوم الحشرات الصغيرة على خدمته ، فيجنى من وراء جهدها الشهد والعسل ! .

وأوغرت هذه الأفكار صدر الرجل الثرى صاحب الأرض والحدائق ، وتحولت كلماته إلى مرارة كامنة فى حلقه ، وبغضة عمياء فى قلبه ! .

ففى فجر أحد الأيام نزل الرجل إلى حدائقه اليانعة ، الغنية بالزهور ، فكساها بسحابة من المساحيق الكيمائية السامة ، وهو يريد بذلك أن يقتل الحشرات الصغيرة المكافحة ، فتكسد تجارة جاره .

وماتت الزهور والثمار والطيور البريئة الآمنة ، أما النحل فقد أودعه الله حاسة يميز بها رائحة السموم ؛ فيتقى شر الحاقدين الذين يستحلون الأذى .

وظلت قريتنا تنتج العسل الحلو ، لكن وجهها لم يعد حلواً كما كان فى صبوة الحب ، فقد أذبلته تجاعيد الحقد ، وأطفأت الكراهية بريق الحب فى عيون قريتنا .

هذا سؤال بسيط . يستطيع كل واحد منا أن يجد له جواباً ، فنحن نكره لسبب من الأسباب الآتية :

(١) نكره الذين يبغضوننا ..

هذا موقف إنسانى يتسم بالواقعية ، والتلقائية ، ورد الفعل المباشر ، فالميل الطبيعى لدى الإنسان العادى هو أن يصفع من يصفعه ، وأن يشتم من يسبه ، وأن يجرح من يخدشه . فإذا إستشعر الكراهية والبغضاء ، إعتمل فى قلبه إحساس بالنفور ، لا يلبث أن يصبح كراهية مكبوتة أو سافرة .

والإنسان هنا لا يتصرف بتلقائية ومباشرة كتلك التى يتصرف بها كافة حيوان الأرض فحسب ، بل إنه يستخدم عقله فى إذكاء نار الكراهية وتجسيم الأحداث وتفخيمها حتى تصبح غلاً دفيناً فى القلب ، وغلياناً فى بوتقه قابلة للإنفجار .

فالكاره يفترض أموراً تزيد فى كراهيته ، وتملأه بالخوف والتوجس . فالكراهية فى أغلبها خوف ينشأ عن سوء الظن ، ووسوسة كاذبة وشك مكدر .

(٢) نكره الذين ينافسوننا ..

هناك نوع من الكراهية ذات الطابع التجارى ، فهى عملة سهلة يتداولها التجار فى السوق . فعندما يحس الواحد منا أن هناك من يشاركه الكسب أو ينافسه فى الفوز بمنفعة ما ، فإنه سرعان ما يستجمع رصيده من هذه العملة الزائفة ـ عملة الكراهية ، وسوء الظن والهواجس ، وكأن الدنيا ضاقت ، وكأن الخير قد شح ، وكأن بمقدور الإنسان أن يأخذ طعام غيره او يحجب عنه خيراً قدّره الله له .

والإنسان حين يكره الذين يسيرون معه على نفس الطريق ـ وعلى أساس من الشرف وحسن المعاملة ـ فإنه يعبّر عن تشككه فى كفايته وتشككه فى حماية الله له .

فى الاسكا يستخـدم الناس بعض الكـلاب المدربة لجر العربـات فوق الثلوج . وقد

حدثنا أحد المغامرين عن كلب خاص كان قد أظهر نبوغاً وتفوقاً على رفقائه ، مما جعل صاحبه يضعه فى مقدمة الصفوف ليصبح القائد الذى يسير خلفه باقى الكلاب . ولكن صاحب العربة أحس أن الأيام تتقدم بالكلب القائد ، وأنه من الحكمة أن يدرب كلباً آخر على قيادة الجماعة ، فكان أن دفع بأحد الكلاب النابهة إلى المقدمة ، ولاحظ الرجل أن القائد الجديد كان يتعثر كثيراً ، ويسير فى خطوط متعرجة . فلما دقق المراقبة ، أدرك أن الكلب العجوز كان يتحين الفرص ليعض القائد الجديد فى ساقيه الخلفيتين كلما سنحت الفرصة بذلك ، فقد ضاق صدر الكلب بمنافسه ، وأراد أن يكون له وحده كل المديح . حتى لا يشاركه أحد فى الكسب .

وهذه ظاهرة خطيرة متفشية بين أصحاب المواهب والناجحين ، فمع ما يحققونه من تفوق فى مجالات العلوم ، والآداب ، والفنون ، والحرف المختلفة ، فإنهم يبدون فشلاً ذريعاً فى مقاومة أنانيتهم الجامحة التى تستقبل نجاح الآخرين بكراهية وحقد .

(٣) نكره الأشرار ..

نحن كثيراً ما نقع فريسة لكبريائنا ، فنقسم الناس إلى أخيار وأشرار . ونضع أنفسنا فى موضع الرضا ، ونضع الآخرين فى قفص الإتهام .

نرى البقع السوداء فى حياة الآخرين ، ونغفل عما نحن فيه من ظلام . **وعندما تتمكن فى عقولنا تلك الفكرة الحمقاء بأننا أناس على درجة عالية من الفضيلة والأخلاق ، وأن هناك آخرين يتمرغون فى الأوحال ويلطخون وجه الحياة الذى غسلناه نحن ونظفناه ، حينئذ تتحول الغيرة على الفضيلة والأخلاق إلى قضية شخصية ، تحولها كبرياؤنا الروحية إلى كراهية للآخرين .**

فحتى لو صدق تقديرنا للناس ، فإنه لا ينبغى أن ننس أن **الله يدعونا إلى نبذ الشر ولكنه لا يدعونا إلى كراهية الأشرار بل إلى مساعدتهم حتى يستبين لهم الخطأ من الصواب .**

(٤) نكره من هم أفضل منا ..

كثيراً ما نكره بعض الناس لمجرد تفوقهم علينا . إن النجاح والشهرة والإحترام الذى يحيط بالناجحين يجعلنا نحقد عليهم ونغار منهم ، ونود لو أستطعنا تنحيتهم

وإستلاب مكاسبهم . وهذه الغيرة تولد كراهية عميقة فى القلب .

إشتهر ميثيوس (أحد سكان روما القديمة) بحسده الشديد للغير ، حتى إن يوبيليوس لاقاه يوماً فرآه حزيناً ، فقال له :

إما أن يكن ميثيوس قد أصيب بشر عظيم ، أو إنه عرف أن خيراً عظيماً أصاب أحد الناس .

إن الغيرة تعمل كالمواد الكاوية فى إتلاف خلايا الجسم ، وكم من صحة ضاعت ، وأجساد أحترقت بنار الحسد والبغضة والكراهية .

(٥) نكره لأننا نحن أشرار ..

لأسباب كثيرة قد تمتلئ قلوبنا بالكراهية للآخرين . ولكننا قد نكره دون سبب معلوم . فقد تكون الكراهية بعض طباعنا وجزءاً من جوهر طبيعتنا الشريرة التى تجنح نحو الخطيئة والفساد .

وربما نجد لأنفسنا أعذاراً ومبررات كثيرة ، لكن الحقيقة قد تكون : **اننا نكره لأننا أشرار .**

فالكاره له عين ترى السوء دون الخير ، وله لسان لا يشهد بفضل الآخرين بل يلطخهم بالنميمة ، وله وجه يغتم لنجاح الآخرين ومصائبهم ، وله قلب يشتهى مال الآخرين ، ويتمرد على الله الذى يهبهم من فضله .

كيف نحب ؟ ..

هناك مثل يقول : **أقتلع الكراهية من قلب أخيك باقتلاعها من صدرك أولاً .**

وكيف نقتلع الكراهية من صدورنا ؟ . لا سبيل إلى ذلك إلا بإحلال الحب فى القلب مكان الكراهية والحقد .

من تعاليم السيد المسيح المشهورة قوله : **أحبوا أعداءكم .. باركوا لاعنيكم .. أحسنوا إلى مبغضيكم .. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم .**

والسيد المسيح لا يقول : لا تكرهوا ، ولا يقول حاربوا الكراهية ، بل يدعـــو إلى

الحب ، فالحب وحده يقتلع الكراهية من صدور الناس .

إننا قد نجد صعوبة فى حب الأعداء ، لأننا نميل بطبيعتنا إلى القصاص والإنتقام والتشهير بالأعداء ، فهذه طبيعة الإنسان الساقطة الميالة إلى إبراز التفوق وتأكيد (الأنا) .

لكن الله إذ يدعونا إلى الحب فإنه يسلحنا بقوة تفوق قوة النفس الإنسانية المادية . إنها قوة روحه القدوس - روح الحب والتسامح والغفران .

إن الله مع بغضه للشر ، فإنه يحب الناس جميعاً ، وبرهان حبه أنه يعطى الخير للجميع ويشرق شمسه على الأبرار والأشرار ، على الخطاة والأتقياء . إن حبه لهم دعوة مفتوحة للعودة إليه من تيه هذا العالم الذى يسيطر فيه الشيطان على عقول الناس وقلوبهم .

إننا لن نستطيع بقوة البشر أن نحب العدو والظالم والمتجبر ، لكننا قادرون على الحب بقوة روح الله إذا سكن فى قلوبنا . وبالحب يتميز الذين يعرفون الله من الأدعياء الذين تمتلئ قلوبهم بالكراهية والحقد الأسود .

صرخة إنسانية

يا رب

فى قلبى بؤرة سوداء عفنة تفيح منها
رائحة كريهة تجعل قلبى مقبرة
للحب .
ومن بؤرة الكراهية فى قلبى تصاعدت
سحابات قاتمة أحاطت بمن حولى ،
فرأيت فيهم كراهية هى إنعكاسات
لذاتى . حتى وجهى أصبح وجه شيطان
يكره البشر ، فقد أرتسمت عليه علامات
الحقد والغيظ والرغبة المجنونة فى
العراك والشجار والإنتقام .
وأنا أعلم أنك أنت الحب ،

وأعلم أنك لا تحيا فى قلب تسكنه
البغضاء ،
فغير بروحك القدوس قلبى الحاقد ،
وأكشف لى عن ينابيع الحب الإلهى
التى تفيض فى قلب الذين عرفوك.

يا رب.

٢٧ - مبادئ إنسانية ..

لا تدينوا .. لئلا تدانوا !

- لمـاذا تلاحظ القشة فى عين أخيك ، لكنك لا تنتبـه إلى الخشبة الكبيرة فى عينك ؟ .
- وكيف تقول لأخيك : دعنى أخرج القشة من عينك ، وها هى الخشبة فى عينك أنت ؟ .
- أخرج الخشبة من عينك أولاً ، حتى تبصر جيداً ، فتخرج القشة من عين أخيك ! .

عندما كنت طالباً - أتعلم الرسم - فى إحدى كليات الفنون ، جلست يوماً أمام قطعة الورق البيضاء ، ممسكاً بيدى قلماً من الفحم ، محاولاً نقل صورة التمثال الذى يتوسط المرسم الكبير .

وإقترب منى أحد الزملاء ، ومال إلى أذنى هامساً : " أرى أنك ضعيف جداً فى الرسم ، وأعجب كيف ألتحقت بهذا المعهد العريق ؟ ! " .

وتلعثمت ، فلم أدر ما أنطق به ، وأنا مازلت فى أول الطريق ، لا أعلم الخطأ من الصواب . فأضاف محدثى بصوت مرتفع : " أقترح عليك أن تغض الطرف عن دراسة الرسم ، فمن الواضح أنك لن تتعلم شيئاً ، ولكن إذا كنت مصراً على مواصلة الدراسة ، فحاول أن تجد أستاذاً متمكناً يساعدك على تفهم مبادئ الفن ! .

وقبل أن أفتح فمى بكلمة شكر لهذا الزميل ، كان قد إقترح على أن أترك له مكانى ، ليصلح لى ما بدأته . وبالفعل جلس فى مقعدى ، وأخذ يخط بيده على الورق محاور طولية وعرضية ، ويضيف بقع من اللون والظلال ، ثم دعانى لأكمل العمل ، بعد أن وجه لى كثيراً من النصائح .

ومنذ ذلك اليوم ، أصبحت هذه الزيارة اليومية من هذا الزميل شيئاً مألوفاً . يسبقها دائماً نفس الحوار الذى يدور حول ضعف إمكاناتى الفنية ، وضرورة اللجوء إلى أحد الأساتذة لينقذنى من فشلى .

ومع أننى كنت أحصل على تقديرات مرضية ، إلا أننى كنت أحس بالخجل والإمتهان ، كلما تركت مقعدى لزميلى ليضع بصماته على لوحتى ، ويؤكد لى أنه لولا هذه التصحيحات التى يجريها ، ما حصلت على هذه التقديرات .

ثم كان يوماً - حين رأيت على غير قصد سجلاً بالدرجات والتقديرات التى حصل عليها أفراد هذا الفصل الدراسى ، فهالنى أن رأيت أن هذا الزميل الذى دأب على التقليل من قدراتى ، يحصل دائماً على أقل من نصف التقديرات التى أحصل أنا عليها ، وأنه كان يخفى ضعفه وراء (أستاذية) مصطنعة ، كنت أنا ضحيتها .

لماذا ننتقد الآخرين ؟

هناك ميل لدى الكثيرين لإنتقاد الآخرين ؛ فلا يكاد ينجو أحد من سهامهم الموجهة . فعيونهم مدربة على لمح الأخطاء الصغيرة من وراء الأستار ، وآذانهم مدربة على إلتقاط الكلمات الهامسة التى تفضح ضعفات البشر . وهم يجدون فى ذلك متعتهم وتسليتهم ، فيتصيدون الأخطاء ، أو يصنعونها . ثم يكيلون للناس ما شاءوا من نقد ، وإتهام ، ولوم ، وإدانة .

ولكن .. لماذا ننتقد الآخرين ، ونشهر بهم أحياناً ؟ .

هناك بعض الأسباب لذلك ، منها :

- **إنتقاد الآخرين يتفق وكبرياؤنا :**

فإنتقاص شأن الآخرين ، وإبراز ضعفهم ، يبرر لنا كبرياءنا . ويوجد لها أسباباً نقنع بها أنفسنا ، فنمجد ذواتنا ، ونتعالى على أقراننا .

وهذا ضعف بشرى معروف ، يرتبط بطبيعتنا البشرية الساقطة ، تلقته الأجيال عن إبليس المتكبر المتعجرف . الذى لا زال يوقع الناس فى شرك الكبرياء ، والتعالى على الآخرين .

- **إبراز عيوب الآخرين تبرير لفشلنا :**

كثيراً ما يقلقنا ما بلغناه من فشل ، فى بعض جوانب حياتنا ، لذلك فإننا نحاول كثيراً أن نهدئ وخزات الألم التى تنتابنا كلما تفكرنا فى هذا الفشل .

وإنتقاد الآخرين ، هو تحميل بعض مسئولية فشلنا عليهم ؛ إذ نظهرهم كالمجتمع الفاسد الأنانى ، والعقبة أمام نجاحنا وتقدمنا ! .

• **مهاجمة الآخرين دليل على الإحساس بالنقص :**

حين يتعذر علينا أن نجد فى أنفسنا ما يرفعنا إلى مستوى الآخرين ، وحين يسيطر علينا الإحساس بالضآلة والصغر عن أترابنا وجيراننا ، فإننا قد نحاول أن نطفئ بريق النجاح الذى حققوه ، حتى لا يتكشف إلى جواره صدأ حياتنا الراكدة .

• **الغيرة خلف كثير من إنتقاداتنا للآخرين :**

قال أحد الأطفال لأخيه يوماً : " أنت شخص وضيع .. أنانى ، وطماع . أخذت لنفسك التفاحة الوحيدة الباقية ، وكنت أريد أنا أن آخذها لنفسى " .

لقد فضحت كلمات الطفل الصغير سر حملته النقدية ضد أخيه ، إنها الغيرة ، وليس العمل ، فلو لم يأكل الأخ الأكبر هذه التفاحة الواحدة ، لأكلها هو ، ولاستحل لنفسه هذا العمل .

إنتقاداتنا ... لمن تسئ ؟

• **إنها تجرح أحباءنا ، وأقرب الناس إلينا :**

من العجيب أن إنتقاداتنا تمتد إلى مجالات واسعة ، وتستهدف دوائر كبيرة من البشر عامة ، لكن هذه الدوائر التى نصب فيها إنتقاداتنا ، تضيق وتقترب منا ، حتى تتركز فى دائرة الأصدقاء والأسرة ، وأقرب الناس إلينا .

هذه المجموعات الصغيرة التى تشاركنا حلونا ومرنا ، والتى نعرف دواخلها وأسرارها ، هى أحق الناس بتشجيعنا ، ومساندتنا ، لكننا كثيراً ما نوجه لها النقد الشديد الجارح ، الذى قلما يبنى أو يفيد .

وبذلك نسئ إلى أقرب أحبائنا .

• **إدانة الآخرين تسئ إلينا ، وتجعلنا عرضة للإدانة :**

حين نبرز عيوب الآخرين ، فإننا نضع أنفسنا فى موضع الأبرياء - الذين صفت حياتهم من العيوب والشوائب ، وهذا يضعنا تحت مجهر الفاحصين ، الذين سرعان

ما يتكشف لهم ما نحن عليه من زيف .

والذين يدينون الآخرين ، يدانون . ويكال لهم اللوم بنفس المكاييل التى كالوا بها للآخرين .

وحين نحكم على إخوتنا وندينهم ، فإننا نشهد على أنفسنا بأننا مستحقون للدينونة أمام الله ، الذى لا يتبرر أحد أمامه ، فالجميع أمام قداسته ملطخين بالآثام والذنوب والشرورو الخطايا .

● نسئ إلى الله باغتصاب حقه وحده فى الحكم على عبيده :

إن الله الذى يعرف خفايا القلوب ، هو وحده صاحب الحق المشروع فى محاكمة البشر ، وإدانتهم . فهو العادل والحق ، الذى يحكم بما يعلم أما نحن فنحكم حسب الظاهر ؛ فإذا أخذنا لأنفسنا حق الحكم على الناس وإدانتهم ، فإنما ندعى لأنفسنا ما ليس من حقنا ، ونغتصب حقوق الله سبحانه دون معرفة أو علم .

كيف نتغلب على روح الإنتقاد فينا ؟

إذا كنا نرى فى أنفسنا ميلاً لإنتقاد الآخرين ورؤية عيوبهم ، ورغبة فى التشهير بهم جهاراً وإظهار نقائصهم ، فعلينا أن نتذكر بعض الحقائق التى تحمينا من الشطط فى هذا المجال .

● لنتذكر أن لكل واحد فينا أخطاؤه وعيوبه :

فليس فينا من هو أعلى من مستوى النقد ، بل هو عرضة للفحص ، ولابد أن تكون فيه من النقائص البشرية ما يجعله هدفاً للإدانة الصريحة .

● من المرجح أننا كنا سنقع فى نفس الأخطاء التى وقع فيها الذين نلومهم ، لو أننا كنا فى ظروفهم :

لذلك فينبغى ألا نتسرع فى الحكم على الناس وإدانة تصرفهم ، فنحن لا نعلم ما كنا سنفعله لو تعرضنا لمواقفهم .

● لنتذكر أن لكل إنسان جانب مضيئ يتفوق فيه على الآخرين ! :

لذلك فليس من حقنا أن ندين من هم أفضل منا ، حتى ولو كنا نفوقهم فى أشياء

أخرى . بل دعونا ننظر إلى أكثر جوانب حياة الآخرين إشراقاً ، ونقتدى بهم .

● **لنذكر أن القضاء مهمة صعبة :**

فلماذا نقيم أنفسنا قضاة ؟ ، ونحن لا نملك أوراق القضايا جميعها ، فلماذا نحكم فيما نجهل ؟ . إن الحكم يلزمنا أن نعرف كل شئ فى خبايا النفوس ، وما أقل ما نعرفه نحن البشر عن خفايا البشر .

الدينونة الكبرى

لكن أهم ما ينبغى أن نتفكر فيه - ونحن ندين الآخرين ، ونحكم عليهم - هو ذلك الموقف الخطير الذى سيتعرض له كل واحد منا حين تفحصه عين الله الكاشفة ؛ فتحكم عليه الحكم الحق ، الحكم النهائى ، فيبعث إلى الهناء والنعيم ، أو إلى النار والجحيم .

وهنا نتحول عن إدانة الآخرين ، لنفحص أنفسنا ونفكر فى مصائرنا ؛ فكل واحد منا يعلم كم زاغ وفسد ، وكم أهمل أمر نفسه ، جاهلاً أن الله سبحانه وتعالى نور وحق ، وهو إله عادل وقدوس ، لا يقف أمام وجهه إنسان نجس خاطئ . فلو أنه حاكمنا على أساس أعمالنا ، وعبادتنا التقليدية ، لهلكنا إلى الأبد . فأفضل الناس فينا - أمام قداسة الله - نجس شرير - مستحق للموت والهلاك .

لكننا نعلم أيضاً أن الله رحمن رحيم ، لا يسره أن يهلك البشر أجمعين ، فلا بد أنه قد أوجد طريقاً إلهياً لخلاص التائبين ، وغفران خطاياهم ، بقوة روحه القدوس المحيى ، الذى يجدد نفوس الخاضعين المخلصين .

فأدع الله - أيها القارئ العزيز - أن يكشف لك شخصياً طريق النجاة من الدينونة العظمى ، حين تقف أمام القاضى الأعظم ، الذى يدين العالمين .

صرخة إنسانية

يا رب

أيها القاضى العادل ،

يا فاحص القلوب ، وكاشف الخفايا .

لقد خدعت الناس كثيراً ،
وخدعت نفسى ،
بإقبالى على فرائضك ،
وترديدى لكلمات محفوظة
فى عبادة جافة ،
والقلب يعلم ما يدور حوله من أطماع
ودنايا !

فسامحنى .
لقد قفزت إلى منصة القضاء ،
أدين الآخرين وأحكم عليهم ،
مع أن مكانى قفص الإتهام .
فأكشف لى طريق النجاة ،
قبل أن يقول القضاء كلمته الأخيرة ،
أيها القاضى الديان العادل ،

يا رب .

نكران الجميل
يلوّن علاقتنا بالله

> **إن جحود الأبناء ، وإعتداءهم على والديهم الذين يحبونهم ، هو صورة مصغرة لجحودنا وإعتدائنا على حق الله الذى يحبنا .**

فى موقع قريب من الكوفة ، كان هناك قصر عظيم تغنى بجماله شعراء القرن الرابع الميلادى ، فقد كان قصر " الخورنق " آية فى العظمة من حيث تصميمه المعمارى الفريد ، وزخارفه الغنية وموقعه المتميز .

وقد بنى هذا القصر النعمان بن إمرئ القيس مستخدماً فى بنائه مهندساً رومياً قديراً ، صنع من ذلك البناء معجزة بهرت أنظار الملوك .

لكن القصر تهدم مع الأيام ، فلم يبق منه شيئاً يذكر بعد ستة عشر قرن من الزمان ، لكن الذى بقى إلى يومنا هذا هو مثل من أمثالنا العربية البليغة التى ترتبط بالأحداث . ويشير هذا المثل إلى قصة دامية حدثت وراء كواليس هذا القصر ؛ فقد قيل إن النعمان صعد إلى أعلى القصر فى صحبة البناء العبقرى ، الذى أخذ يطلعه على أسرار القصر وخفاياه ، فقال له فيما قال إن هناك آجرة (طوبة) فى ركن من أركان القصر العظيم ، لو أنها أزيلت لسقط القصر بأكمله ، وصار كومة من الحطام . وإنخلع قلب النعمان ، فقد كان معجباً بالقصر ، مفتوناً بعظمته ، وخشى أن يتسرب هذا السر ؛ فإستوضح الرجل حتى تيقن أن أحداً لا يعرف هذا السر سواه ! . فسار إلى جواره حتى بلغا قمة القصر ، وبينما كان البناء يشير إلى الأفق البعيد ويتحدث فى سعادة بالغة عن موقع القصر وعظمته ، إستجمع النعمان قوته ودفع بالرجل من فوق السور - ليسقط محطماً على الصخور ! .

وقيل أن قصة الآجرة ليست حقيقية ، ولكنها قيلت لتبرير عمل النعمان . الذى قتل

الرجل حتى لا يبنى قصراً مثل قصره لأى ملك آخر ! .

على أى حال ، فإن القصر أختفى مع الأيام لكن بقى المثل الذى يقول : **" جزاه جزاء سنمار "** . ويعنى أن النعمان لم يعط سنمار (البنّاء الرومى) جائزة عظيمة أو أجراً يليق بعمله العظيم ، لكنه أعطاه الموت والقتل والعذاب ، فصار " جزاء سنمار " مثلاً للجحود ونكران الجميل والغدر ! .

وإنى أتخيل لو أن هذا الرجل لم يمت فى الحال ، وأنه بقى على قيد الحياة ، فإنه كان سيقاسى ألماً أمر مذاقاً من كل ألم ، **فما أتعس الإنسان حين يلقى نكران الجميل ممن يخلص لهم ، ويخدمهم ، ويضحى من أجلهم بجهده ، أو ماله ، أو وقته ، أو صحته ! .**

ولقد قرأت كثيراً من القصص الحقيقية التى تقطر بالمرارة والألم ؛ فأبطالها هم أبطال فى الغدر ، أساتذة فى الجحود . فهناك الإبن الذى يقتل أباه ، أو يصفع وجه أمه الحنون ، أو يعتدى بالسباب والشتيمة والقول البذئ على والديه ، الذين - من أجله - ضحيا بأغلى ما فى الحياة ، وسقياه رحيق عمرهما حتى شب عن الطوق ، فجزاهما بالجحود والنكران ! .

فهل قصرت عيوننا عن الرؤية ؟ .

وهل عجزت عقولنا عن التقدير ؟ .

وهل نضب الحب فى قلوبنا ؟ .

وهل مات الوفاء فى زمن الغدر ؟ .

نكران الجميل يشوه علاقتنا بوالدينا

قد يحس الكثيرون بالغضب الشديد ، وهم يسمعون أو يقرأون قصة من قصص الجحود ، وينظرون نظرة الغضب والسخط والإدانة لهؤلاء الجاحدين . وهنا قد نسقط نحن أيضاً فى بحار الغفلة ، فنظن أننا أبرياء تماماً من مثل هذا الجحود والنكران ، **والحقيقة أننا جميعاً - وبدون أن ندرى أحياناً - نقدم كؤوساً مرة من النكران لوالدينا - أو من هم فى مقامهم . ونحن لا ندرك مرارة هذه الكأس لأننا لم نذقها أبداً ! .**

فليس من الضرورى أن يظهر الجحود ونكران الجميل فى صورة سافرة متطرفة كالقتل والسب ، بل أن هناك صوراً أخرى تتباين وتتدرج ، ما بين عدم التقدير الكامل لأفضال الوالدين ، إلى النقد المتجنى لسلوكهم ، إلى الرفض الخفى أو المعلن لآرائهم ، إلى الإعتداء الصارخ عليهم .

فالإبن الذى لا يقدر فضل أبويه ، فإنما يحسب أنهما أضاعا عمرهما فيما لا يفيد ، وأنه أكثر منهما حكمة وفهماً ، وفى هذا كثير من التجنى ، وتمهيد لرفض آرائهما ، والإعتداء على حقوقهما فى الخضوع والولاء والتقدير .

فإذا لم نكن قد إنحدرنا فى جحودنا إلى حد القتل المادى ، فإننا لسنا أبرياء تماماً من القتل المعنوى لآبائنا وأمهاتنا ، إذا كنا لم نكن لهم مشاعر التقدير الكامل الملئ بالحب والدفء والعرفان بالفضل ..

فكأس الموت قاتلة ، لكن كأس الجحود أكثر مرارة وعذاباً .

نكران الجميل ـ ينعكس أيضاً على علاقتنا بالله

إن أشر ما يقع فيه الإنسان ، هو إنشغاله بأمور الأرض ، حتى يصير ذرة فى ترابها . فينسى أنه روح خالدة ـ صنعه الله ليكون على صلة بالسماء .

ومن أجل هذه الرابطة الروحية ـ أعد الله البشر بصورة مميزة ليستطيع الإنسان بإرادته وعقله وروحه أن يبنى هذه الصلة بينه وبين خالقه ، ويميز صوت الله له ، ويرى يد الله خلف جميع أمور حياته ، ويستشعر حب الله العميق له ، ويكتشف الكنوز التى أعدها الله له خلف حدود الزمان .

لكن الإنسان يتعامل مع الله كذلك الإبن الذى ما يكاد يرى الحياة خارج بيت أبيه ، حتى يترك البيت ، ويتوه فى الزحام ، فإذا طال به المقام فى الغربة ، نسى كل شئ عن بيته الأول ، وبهتت فى مخيلته صورة الأب المحب ، وأحضان الأم الحنون ، اللذين لازالا متعلقين به فى لهفة وحب .

ولعل الله ينظر إلينا نظرة الأسف الشديد ، حين ننسى فضله علينا ، إذ جعلنا تاجاً للخليقة ، وكملنا بالعقل واللسان والإرادة الحرة ، وسلطنا على حيوان الأرض وطيور السماء وأحياء البحر . وسخر لنا الشمس والقمر والنجوم وقوى الطبيعة .

ولعل الله ينظر إلينا نظرة العتاب ، ونحن نتجاهل رعايته اليومية لنا ، وتعهده سداد أعوازنا ، مسخراً لذلك الأرض والمطر وعقول العلماء ، وحكمة المفكرين وسلطة الأحكام .

ولعلنا لا نكون أقل جحوداً لفضل الله من جحودنا لوالدينا - إذ نحن نسينا أن نذكر حماية الله لنا - يوماً بعد يوم - من الأمراض والأوبئة والحوادث الكثيرة التى نصنعها نحن بتهورنا وشرورنا .

فليست علاقتنا بالله أفضل من علاقتنا ببيوت آبائنا المهجورة - التى ينسكب فيها الحب من طرف واحد هو الحب الأبوى .

ماذا نقدم لله ؟

حدثنى صديق فقال : " كثيراً ما أتذكر أمى بالليل وأنا فى فراشى فى بيتى البعيد ، فيفيض قلبى بعواطف الحب لها . فإذا طلع النهار أسرعت إليها لأراها قبل أن أتوجه إلى عملى . وقد أعودها فى طريقى إلى البيت فى آخر النهار ، وأحمل معى دائماً شيئاً صغيراً تعبيراً عن حبى لها . لكننى سريعاً ما أتركها وأختفى إلى أن تحين زيارة أخرى بعد أيام كثيرة " .

ونحن أحياناً يفيض بنا نوع من الحنين الروحى ، فنذهب لله فى زيارة خاطفة نعبر فيها عن أحاسيس صادقة ، ثم نختفى فى ظلال الحياة .

وليس هذ ما صنعنا الله من أجله **لقد صنعنا لنكون عند عتباته - مسبحين وهاتفين وساجدين له . نحمل له فى عمق قلوبنا مشاعر الحب الصادق والإعتراف الصريح بجوده وفضله علينا .**

إن ما يطلبه الله منا ليس المال أو الوقت أو فروض العبادة فقط ، بل يطلب منا كل النفس - كل القلب - جملة الحياة .

فكل ما يستطيع الإنسان أن يقدمه لله من عبادات متكررة ، أو أعمال صالحة ، أو عطايا وهبات مادية ، لا يمكن أن تفى حق الله علينا . بل جميعها أعشاب جافة تحرقها نار قداسة الله .

إن جحود الأبناء ، وإعتداءهم على والديهم الذين يحبونهم ، هو صورة مصغرة لجحودنا وإعتدائنا على حق الله الذى يحبنا .

فلنأت إليه بقلوب خاشعة معترفة ، ولنلق بأنفسنا عند أقدامه ، ليأخذ طريقه فى عقولنا وقلوبنا وإرداتنا ، لنكون له بجملتنا ؛ فيغسل عقولنا من خرافات البشر ، ويغسل قلوبنا من شهوات الدنيا ، ويجدد أرواحنا الممزقة فى تيه الضلال ، ويفيض علينا من روح الحياة الجديدة ، حين يخلقنا خليقة روحية مقدسة بعمل روحه القدوس ، فنعرف العبادة من القلب ، ونعرف الوفاء والحب .

صرخة إنسانية

يا رب

أعترف إليك بجحودى ، ونكرانى
لفضلك وحبك.
وأعترف إليك إننى عاجز عن أن أكون
لك بجملتى ؛
فأنا مستعبد لأفكارى العتيقة ،
وعبادتى الجافة المتقطعة .
لقد سعيت إليك بفمى ولسانى
وجسدى ،
لكن قلبى وفكرى لم يستريحا بعد
بالوجود فيك.
فاغفر لى هجرتى بعيداً عنك.
وأغسل بفكر السماء أفكار الأرض.
واملأ قلبى يقيناً بمعرفة طريقك.
وجدد بروحك القدوس
حياتى الخربة ،
حتى أعود إليك ،
كما يعود الإبن الجاحد الضال ،
إلى بيت أبيه .

يا رب.

٢٩ - مبادئ إنسانية ..

احذر .. إنك لا تقدر أن تكذب على الله !

- لابد للكذب أن ينكشف مهما بالغ صاحبه فى إخفائه ! .
- دعونى أسقط مستنداً على الحق ، خير من النجاح بالباطل ! .
- ليس الكذب أن يقول الإنسان شيئاً منافياً للحقيقة ، يكفى أن يقول نصف الحق ليكون كاذباً ! .
- من يكذب على نفسه ، فإنه يغلق أمامها أبواب النجاة ! .
- إن الله يظهر الخداع والكذب والرياء كشمس الظهيرة ، وسيأتى اليوم الذى يدين فيه كل المخادعين ! .
- نحتاج أن نجد طريقاً صادقاً يملأ قلوبنا باليقين ! .

إستطاع اللص المحترف أن يدخل إلى صالة المصنع الكبرى ، حيث يتم إنتاج الأجزاء الثمينة والنادرة . وكان اللص قد أعد كل شئ بدقة متناهية ؛ فقد إستطاع أن يتسلل إلى فناء المصنع الخلفى ، وأن يصعد درجات السلم المثبتة فى الحائط ، والتى تؤدى إلى سقف المصنع الحديدى . وهناك ثبت اللص حبلاً غليظاً ، وتدلى عليه إلى قلب المصنع . هبط درجات السلم الداخلى ، أصبح فى الصالة المنشودة ، جمع ما إستطاع مما خف حمله وأرتفع ثمنه ، وهمَّ بالعودة من حيث أتى .

زحف بهدوء نحو السلم ، الذى قاده إلى الطابق العلوى ، وهناك تحسس فى الظلام حتى وجد طرف الحبل المعلق بسقف المصنع . قفز اللص فى الهواء ، شد الحبل إلى صدره ، لكن شيئاً عجيباً حدث فى تلك اللحظة ، ألجم اللص ، وشل حركته تماماً ، فسقط على الأرض معقود اللسان ، فاقد الوعى ! .

ففى اللحظة التى تعلق فيها بطرف الحبل ، أنطلقت صفارة عالية ، مزقت سكون الليل ؛ فإندفع إلى قاعة المصنع عشرات الحراس المسلحين ! .

مسكين هذا اللص ، أوقعه شره فى سوء المصير ، فقد ضل الطريق فى الظلام ، ولم يمسك بطرف الحبل الذى ثبته فى السقف ، بل أمسك بحبل آخر قريب منه ، هو

حبل تشغيل صفارة الإنذار .

إن الخداع ، والغش ، والكذب لابد أن تنكشف حقيقتها ، مهما بالغ صاحبها فى إخفائها ! .

هل نحن نكذب ؟

هناك قصة عن إبراهام لنكولن - الرئيس الأمريكى الأسبق ؛ فقد كان فى يوم من الأيام عرضة لموقف صعب ، كان يمكنه أن يتلافاه بإخفاء بعض الحقيقة ، محققاً نجاحاً إنتخابياً . ففكر فى الأمر ، ثم قال :

إذا كان من المحتم أن أسقط فى شئ ما .. الإنتخابات أو الكذب ، فلأسقط فى الإنتخاب . فبدلاً من النجاح مستنداً على الكذب ، دعونى أسقط مستنداً على الحق ، فهو دعامة حقيقية .

نحن ندّعى غالباً أننا لا نكذب ، وإذا كذبنا ، فإننا نحاول أن نبرر أسباب هذا الكذب ، ونعطيه من المسميات والأشكال ما يجعله مشروعاً أو مقبولاً .

والكذب يتجه فى إتجاهات متشعبة ، فنحن قد نكذب على الآخرين ، وقد نخدع أنفسنا ، وقد يمتد الكذب ويتأصل فى حياتنا فنكذب على الله ! .

نكذب على الناس ..

ليس المقصود بالكذب - حتماً - أن يقول الإنسان شيئاً منافياً أو مضاداً للحقيقة ، فهذا أحد جوانب الكذب ، الذى قد يرفضه أصحاب المبادئ والمُثل العليا .

أما الجوانب الأكثر شيوعاً ، والتى قد نقع فيها بالعمد أو السهو فمنها :

- **ما يتصل بالقول :**

كأن يقول الإنسان جزءاً من الحقيقة ، ويخفى جزءاً آخراً . أو أنه يقول الحقيقة كلها ، ولكنه يقولها بأسلوب مبهم يوحى بغير معناها . أو أن نقول بعض الحقيقة لشخص ما ، وبعضها الآخر لشخص ثان ، مما يوقع بينهما ، ويحقق لنا بعض أغراضنا .

● **ما يتصل بالمشاعر :**

فمن الكذب ما ليس متصلاً بالأحداث ، لكنه متصل بالمشاعر ، فأنت قد تكذب بإظهار مشاعر غير حقيقية من نحو شخص ما ، كأن تظهر له إهتماماً ، أو حباً ، أو ترحيباً لا يتفق مع شعورك الحقيقى من نحوه . وهذا النوع من الكذب يسمى " **الرياء** " ، أى إظهار الإنسان غير ما يبطن ، أو تظاهر الإنسان بما لا يتصف به من فضائل .

● **ومن الكذب ما يتصل بالأشياء :**

كالغش التجارى ، وتزييف العملات أو المصنوعات . وهذا لا ينطبق على كبار المزيفين والنصابين فقط ، بل ينطبق على أقل الأشياء - فى أضيق الحدود . فمن تعريفات **الجرجانى** (على بن محمد الجرجانى المتوفى ٨١٦ هـ) : " إن من الكذب ترك الإخلاص فى العمل ، بملاحظة غير الله فيه ، بغير نيّة خالصة " . وبالطبع فإن ذلك ينطبق على الغش فى الإمتحانات . فإنه لون من الكذب الرخيص المشين .

● **ومن الكذب ما يتصل بالفكر :**

كأن تكون أحكامنا على الأشياء أحكاماً سطحية فاسدة ، غير مخلصة ، أو غير متروّية ، حين لا نبذل جهداً فى إستقصاء الأمور ، وإستجلاء الحقائق ، فنحكم فى الأشياء من منطلق أهوائنا ، ومعلوماتنا الأولية ، دون التعمق فى دراستها ، ودون أن نضع أنفسنا فى موضع أصحابها . فتأتى أحكامنا كاذبة ، فاسدة المضمون .

نكذب على أنفسنا ..

هذا النوع من الكذب أشر من الكذب على الآخرين . فهو تضليل للنفس ، ووضع عصابة على العين ، حتى لا ترى حقائق الأمور . فمن المفروض أن يبصّر الإنسان نفسه بالحقائق ، ويسعى لمعرفة الحق والصدق ؛ فإذا هو أهمل أو تجاهل ذلك ، وإذا هو أقنع نفسه بغير الحقيقة ، فإنه يلقى بنفسه إلى سوء المصير .

ولعل أنكر المواقف التى يكذب فيها الإنسان على نفسه ، هو إقناعها بأنه أفضل من غيره ، وأنه على حق - دائماً - فى كل ما يفعل أو يقول . فهو أكثر من غيره معرفة بالأمور ؛ فلا يليق به أن يستمع لآراء غيره ، أو أن يصغى لنصائح العارفين ، بل عليه أن يتبع هواه فيما يقصد ، ويبرر مسلكه فيما يريد .

وحين يكذب الإنسان على نفسه ، فسرعان ما يأتى الوقت الذى يصدّق فيه أكاذيبه المختلقة . فيظن أنه غنى بالفضائل والمعارف ، وهو جاهل قليل الفضل . ويظن أنه عابد متدين ، مع أنه مادىّ ، جاف ، غليظ القلب . ويظن أنه نظيف اليد واللسان ، بينما هو مخادع غاش سيئ الظن ، ملوث الفكر ، حاقد حسود .

فإذا إنفض الناس من حوله ، إتهمهم بظلمه ، وتجاهُل قدره وقيمته .

إن من يكذب على نفسه يغلق أمامها كل أبواب النجاة .

نكذب على الله ..

وهذا أشر أنواع الكذب . فالإنسان قد يخدع الناس ، ويوقع بهم الشر دون أن يمسه كثير من السوء . وهو حين يخدع نفسه ، فإنه يتوه ويضل الطريق . **ولكنه حين يكذب على الله ، فإنه يخسر القضية كلها ، قضية الحياة الدنيا والآخرة . فإن الله يكشف خداعه كشمس الظهيرة ، ويظهر نواياه الملتوية أمام نور الحق الصريح الذى لا يُقاوم . ويأتى اليوم الذى يدين الله فيه كل المخادعين ، فيلقون مصيرهم الحزين فى عذاب رهيب ، يوم لا ينفع الندم .**

هل نكذب على الله ؟

قد نسارع بالقول : إننا لا نكذب ، لكن الحقيقة أننا نفعل ذلك كثيراً :

- **نحن نكذب على الله حين نقدم له عبادة جافة لا نحس بها** ، بل نقدمها بالشفاه والجسد ، دون أن تذوب أرواحنا فى داخلنا حباً فى الله ، وتجاوباً مع روحه وهو يتحدث إلينا .

- **نحن نكذب على الله حين ننكر خطايانا** ، وما يدور فى باطننا من طمع ، وشهوة ، وحقد ، ومادية .

- **نحن نكذب على الله حين ننكر أننا مهزومون مغلوبون من أنفسنا** - حين تمنعنا كبرياؤنا من الإعتراف بفشلنا فى تحقيق إنسجام حقيقى بين أرواحنا وروح الله القدوس ، الذى يهيم من حولنا ، لإخضاع أرواحنا وأفكارنا لله .

• **نحن نكذب على الله حين نسترضيه بالتقاليد والفروض والطقوس ، والتى نرضى بها ضمائرنا نحن** ، ونصم بها آذاننا عن صوته الصريح الذى يقول لنا إننا محتاجون إلى خلاص النفس من كل الخطايا والقشور ، وتجديد القلب وإغتساله من كل ما علق به من أقوال البشر ، وشهوات النفس ، وخداع الشيطان .

• **إننا نكذب على الله حين ندّعى أننا إجتهدنا لنعرف الطريق إليه** ، والحقيقة أننا تكتلنا وراء الأبواق البشرية ، التى نضيع فى غواغائها ، فلم نبذل جهداً فى البحث عن الطريق لبناء علاقة فردية مع الله : فى مخادعنا ، وفى خلوتنا الشخصية بالله ، بعيداً عن الضوضاء الجماعية التى يختلط فيها الباطل بالحق .

إننا نحتاج إلى وقفة صدق مع النفس ، وقفة مصارحة وإعتراف لله .

إننا نحتاج أن نجد طريقاً صريحاً إليه يملأ قلوبنا باليقين والغفران .

إننا نحتاج إلى علاقة شخصية ، يؤيدها روح الله القدوس ، بشهادته فينا ، وتنقيته لنا ، فنرتبط بالحق ، ونثبت فيه .

صرخة إنسانية

يا رب

أنا أكذب..
وضع الشيطان فى فمى لسان
الكاذبين.
فصارت حياتى إدعاءً وكذباً .
إننى أكذب على الناس ،
فأدعى ما ليس لى .

وأكذب على نفسى ،
حين أظن إننى أعرفك.

وأكذب عليك ،
حين أدعى أننى أعبدك.

وما أنا إلا عبد شهوتى ،
أستسلم لها فتحرقنى ،
وأقاومها فتصرعنى .

كل ما أستطعته فى الماضى هو
إصلاح مظهرى الخارجى ،
وخداع الناس ،
وخداع النفس .

أما أنت ، فإنك تعرف خداعى ،
وتقرأ مكنون نفسى ،
وترى حقيقتى كنور الشمس !

أنا كاذب ،
أختفى وراء عبادة شكلية باطلة
لم يسترح بها قلبى .

وانا ضائع حائر خائر ،
أريد الصدق كل الصدق ،
وأريد الحق كل الحق ،

فاكشف لى الطريق إليك
بقوة روحك القدوس ،
حتى لا أحيا فى خداع إبليس ،
الذى يكاد يهلك نفسى الضالة ،

فاهدنى إليك ،

يا رب .

يا من لا تخدعك المظاهر والثياب ..
أسترنى برداء من عندك !

كانت أحلامه أن يصير " ضابط شرطة " . وعند هذه الأمنية توقفت كل مساعيه . غير أن الأمانى لا تصبح حقيقة بغير جهد مناسب . ولم يكن لديه من العزيمة والكفاح ما يصل به إلى أرض أحلامه ؛ فقد تعثر فى دراسته الثانوية ، لفرط إغراقه فى اللهو ، وكثرة إتصاله بالمنحرفين حتى إنحرف .

وصار الطالب السابق لصاً محترفاً ، ولأنه نصف متعلم ، فقد وضع ما تيسر له من علم فى خدمة حرفته الجديدة ، تلك الحرفة التى أعطاها جهده وإخلاصه ، فحقق فيها - من وجهة نظره - نجاحاً ، لم يحرزه فى موقعه الأول بين طلاب العلم .

وبعد سنوات من الإحتراف ، إستيقظت فى داخله أمنيته القديمة - أن يصبح ضابط شرطة ، فأضمر فى نفسه أن يسطو على بيت أحد الضباط ، وأن يسرق ثيابه وبطاقته العسكرية ، وسلاحه إذا تيسر له ذلك .

وتخير اللص منزل ضابط فى مثل عمره وجسمه ، وله بعض ملامح وجهه ، ولم يكن يطمع من ذلك إلى أكثر من الثياب - يرى نفسه فى داخلها أمام المرآة .

وكم أحس اللص بالنشوة وهو يرى نفسه فى صورة رجل الشرطة ، فأصبح إرتداؤه لهذه الثياب ، ووقوفه بها أمام المرآة ، واجباً يومياً ، يؤديه كلما واتته الظروف .

وتجرأ اللص يوماً : فتسلل بالثياب المسروقة ، وذهب إلى مصور فوتوجرافى ، ليسجل صورة له فى زى أحلامه . فكانت هذه كبرى مغامراته التى حسب لها ألف حساب .

لكنه فى ذات الوقت ، وجد فيها متعة تستحق المخاطرة ، فأتبعها بتسللات ليلية كثيرة ، كان يظهر فيها أمام أناس لا يعرفونه ، فيخدعون فيه ، ويقدمون له إحتراماً كان يتعطش إليه .

لكن الخطوة التالية ، كانت نذير الدمار لكل أحلامه ، فقد صدق اللص كذبته ، وظن أنه من رجال الشرطة حقاً ، فخرج فى وضح النهار ، وجاهر بهويته ، وأخذ - وهو اللص - يمارس بعض مهام الأمن ، ويهدد من لا يروقه إرتيابه فيه .

وفى يوم زفافه بفتاته المخدوعة ، ألقى القبض على الضابط المزعوم . وأنكشف وجه اللص أمام حشود الحاضرين ، وسقطت الصورة المزيفة ، التى طالما خدعت العيون .

إن الإختفاء وراء المظهر الكاذب ، لابد أن يفتضح . وأى رداء كاذب يرتديه المرء لن يخفى حقيقته ، ذلك لأن الحقيقة دائماً أكبر من الزيف ، وهى كالشمس لا يمكن أن تختفى طويلاً وراء الغيوم .

وراء الثياب

كثيرون يختفون وراء الثياب . وهذه واحدة من الدعامات التى تقوم عليها تجارة الأزياء ! . فالناس لا يرتدون ثيابهم للإحتشام فقط ، أو لملائمة الظروف الجوية ، بل يلبسونها ليكونوا فى الصورة التى يريدون أن يراهم الناس فيها .

فالثياب نخلعها على أنفسنا لتخلع علينا ما نريده من أوصاف ، ونحن قد لا نختلف فى ذلك كثيراً عن الممثلين ، الذين يبدلون ملابسهم لتناسب شخوص رواياتهم . ولتطابق النماذج البشرية التى يتقمصونها .

وقد نجحت الثياب كثيراً فى أن تكون ستاراً لأشخاص مغرضين ، أخفوا وراءها ملامح ضعفهم .

فهناك التاجر الذى يخفى ثراءه وراء ثياب رثة ، والفقير الذى يدعى السعة ، فيرتدى أفخر الثياب .

ونجحت الثياب أيضاً فى تضليل الناس ، فظلموا كثيرين ، وأعلوا من شان كثيرين ، مسترشدين فى ذلك بما عليهم من ثياب ! .

فكم من عالم وقور إستهان الناس بعلمه ، لبساطة ثيابه . فى الوقت الذى أكرم فيه الجهلاء من أصحاب الثياب الغالية ! .

ومع أن البشر يخدعون بالمظهر الخارجى ، لكن هناك أشياء لا يمتد لها الخداع ، بل هى تنطق معلنة الحقيقة من خلف ستار الزيف ، وتُظهر الإنسان فى ثيابه الحقيقية .

من هذه الأشياء ثلاثة :

● **اللسان :** فحين ينطق المرء ، فإنه يظهر بعض داخله ، ويشير إلى بعض حقيقته . ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك ، أن رجلاً وقوراً يرتدى ثياباً فاخرة ، دخل إلى مجلس أحد العلماء وهو يعلم تلاميذه ، فأعتدل الرجل فى مجلسه ، وأصلح وضع عمامته ، وأفسح مكاناً للضيف ، حاسباً أنه عالم زائر جاء لمجادلته . فلما أعطيت له الفرصة للحديث ، كشف لسانه عن جهله ، فتمدد العالم الحقيقى ، وأسترخى فى مجلسه ، بعدما تبين له من حقيقة الضيف .

● **الضمير :** وهو أيضاً يكشف حقيقة المرء لنفسه ، فالإنسان مهما تخفى وراء شخوص مزعومة ، ومهما إرتدى من ثياب الغير ، فإنه حين يعود إلى نفسه ، فإن ضميره يصرخ فى أذنيه معرفاً إياه بحقيقة نفسه . إن ضمير المرء يواجهه بالصورة الحقيقة ، وينزع عنه ثياب الخداع .

● **عين الله :** وهذه هى القوة الكاشفة التى لا يقوى عليها التظاهر الكاذب ، أو التخفى المتعمد وراء المظهريات . فالله يرى الحقيقة وحدها ، ويقرأ صفحات حياتنا ككتاب مفتوح .

إخلع الزيف وألبس الحقيقة

لكن عين الله حين تجردنا من ثياب الخداع الزائفة ، فإنها لا ترمى إلى فضيحتنا . بل أن الله يخلع عنا ثياب الزيف ، ليكسونا رداء البر والصلاح .

إنه يكشف للإنسان حقيقته ، التى لم تعد واضحة أمامه لفرط الخداع والرياء ، ولكثرة معاشرته للصورة المزيفة .

فإذا أعترف الإنسان بحالته الرديئة ، وأعلن الندم على ما خدع به نفسه والناس

من حوله . فإن الله يعلن له الطريق إلى حياة جديدة ، لا يتقمص المرء فيها صورة التقوى ، بل ينال فيها تلك القوة الإلهية التى تقوده إلى التقوى الحقيقية - غير المصطنعة .

إن الله يخلع عنا ثوب المظهريات التى نخفى وراءها خطايانا ، ليمنحنا ثوب الأبرار المطهرين الذين يسكنهم روح الله القدوس ، فيطهر حياتهم ، ويجعل داخلهم نقياً كمظهرهم .

إن ما يصنعه روح الله فى التائبين يشبه ما قرأناه صغاراً عن ذلك الأمير الذى خلع ثيابه ، وإرتدى رداء حطاب فقير ، وخرج إلى أطراف المملكة . لكنه ضل طريقه ، ولم يعبأ به أحد ، فصار حاله من سيئ إلى أسوأ .

لكن جنود المملكة أدركوه فى حالة البؤس والضياع ، فخلعوا ثيابه الرثة ، وألبسوه حلة الأمير !

إن الله يخلع عنا أثمال الخداع ويلبسنا ثياب الأطهار . إذا عرفنا كيف نهجر خداعنا ، ونأتى إليه من حيث يريد لنا الخلاص .

صرخة إنسانية

يا رب

إننى آتى إليك بأثمالى البالية ،
وأنكس رأسى فى محضرك ،
خجلاً من نفسى العارية .

فلطالما حاولت إخفاء حقيقتى
عن عيون الناس ،
كل الناس !
فارتديت ثياب الأطهار ،
ووضعت على لسانى كلام الحكماء .
وأخفيت ميولى الدنيئة ،
وراء قشرة رقيقة لامعة
من مظاهر التدين والأخلاق .

وكلما إزداد قلبى فى الداخل
خبثاً وظلاماً ،
أسرفت فى صقل مظهرى ،
وتلميع واجهة حياتى !

يقول الناس :
إننى متعبد تقى ،
عارف بأصول العبادة ،
متفقه فى علوم الدين ،
متمسك بدقائق الشرائع والأحكام.
وأنت تعلم انى أمارس كل الشرور ،
بفكرى ، وشهوتى ، وغرائزى ،
الصارخة فى أعماقى ،
خطاياى اخفيتها عن عيون الناس ،
حتى كدت أصدق كذبى وإدعائى.

لكننى عرفت الآن
أنك مطلع على خفايا نفسى ،
تكشف حقيقتى ، وتقرأ دواخلى ،
كما فى كتاب مفتوح !
فرأيتك تمزق غلافه الذهبى ،
وتظهر فى النور السطور العوجاء ،
والصور الفاضحة ،
التى هى أيام عمرى.
أيام الغش والإدعاء ،
التى لم تخدع سوى البشر.

أحترقت أمام نار قداستك
تلك الغلالة الرقيقة من الزيف ،
التى غلفت بها حياتى ،
فظهرت أمام عينيك ،

عورات نفسى الشريرة المدعية .

فيا من لا تخدعك المظاهر والثياب ،
أسترنى برداء من عندك :

أشكرك لأنك أعطيتنى الشجاعة ،
كى أقف أمامك ،
عارياً من ثياب الغش ،
ظاهراً بأثمالى القذرة ،
التى هى حقيقتى .
فاغسلنى من خطاياى ،
وطهر أركان قلبى الملوث المظلم ،
وعقلى المخادع .

عرفنى طريق الحياة النقية ،
التى لا يختلف مضمونها عن
مظهرها .
غيرنى من الداخل ،
أخلقنى من جديد ،
خذ طبيعتى الدنسة ،
ثياب الكذب ،
وأعطنى رداء الأبرار.

فلابد أن لديك طريقاً للتغيير
الحقيقى ،
لا يعرفه عبدك حتى الآن .

فاكشف لى طريق الخلاص ،
لأقف أمامك ،
مطهراً من كل زيف أو خداع .

يا رب .

٣١ - مبادئ إنسانية ..

وتظل كلماتنا حريقاً فى شفاهنا ، حتى ننطق بضراعات التوبة !

النار بين الشفاة

- أصبح التدخين فى أيامنا مألوفاً ، مع أنه فى حقيقة الأمر يعتبر شيئاً غريباً ، يذكرنا بالقاطرات البخارية القديمة ! .
- ليست السجائر هى النار الوحيدة بين شفاه البشر ، فالناس ينفثون من داخلهم نيران كثيرة ! .
- هناك نار تلتهب بلا ألسنة أو وهج ، لكنها تمتص رحيق الحياة من وجوهنا ! .
- النار بين شفتينا تدمع عيون المحيطين بنا ، وقد يكونون من أرق الناس ، وأكثرهم حباً لنا ! .
- الذين يبتلعون كرات النار ، يعيشون بحلق جاف ! .
- الضمير الثائر مخزن للوقود ، ضاع صمام الأمان فيه ؛ فأصبح بيتاً للهيب !
- النار بين شفاهنا ، صورة مصغرة للحقيقة المتأججة فى قلب الكون ! .

عندما نزل " كريستوفر كولمبس " على شواطئ الجزر الهندية ، أدهشه منظر الناس ، وهم يضعون فى أفواههم لفافات من أوراق الشجر ، ويشعلون طرفها ، فتتصاعد سحبات الدخان من أفواههم ! ، ولعله ظن أن هذه بعض الطقوس الدينية ، أو لعلها ضرب من السحر ! .

وضحك البحارة ، وهم يرون الهنود الحمر يستنشقون أدخنة التبغ من خلال أنابيب طويلة ! .

لكن الغريب حقاً ، أن هؤلاء البحارة ، سرعان ما قاموا بمحاكاة أولئك القوم ، وإستحسنوا هذه العادة الغريبة ، حتى إستحكمت فيهم عادة التدخين ! .

وفى خلال سنوات قليلة ، حمل هؤلاء البحارة أوراق الدخان وبذوره إلى مواطنهم الأصلية ! .

وقد تعودنا اليوم أن نرى الكثيرين يدخنون السجائر ، ويضعون بين شفاههم أدخنة التبغ ، فأصبح إشعال النار وإستنشاق دخانها مشهداً مألوفاً ، مع أنه فى حقيقة الأمر يعتبر منظراً غريباً ، يذكرنا بالقاطرات البخارية القديمة ، أو قمائن الطوب الأحمر ذات المداخن العالية ، التى كانت منتشرة فى بعض البلاد العربية ! .

النار بين الشفاة

لكن السجائر ليست هى النار الوحيدة بين شفاه البشر ! ، فالناس يحملون فى داخلهم نيران كثيرة ، تتصاعد أدخنتها من أفواههم ، فى أوقات كثيرة :

● **نار الغيرة :**

إن نيران الغيرة ، تشتعل فى قلوب الحاسدين ، فتلهب قلوبهم بالحقد ، وتوغر صدورهم ؛ فتمتلئ أنفاسهم بحريق اللهب الأصفر ! .

ونار الغيرة تتصاعد من شفاه الحاقدين بلا ألسنة أو وهج ، فإنها تضطرم فى الأعماق ، وتتغذى من جسد صاحبها ، ومن رحيق حياته .

وترى الحاقد يزم شفتيه ، كما لو كان يخفى ما خلفهما من نار الحسد والحقد ، لكن هذه الشفاه ، تنفرج أحياناً عن كلمات قليلة صفراء ، تكشف أبعاد الغيرة القاتلة . النار التى تحملها شفاه الحاقدين ، ونار الحقد نار خبيثة ، لا ترحم أقرب الناس إلينا ، فهى بطبيعتها الخفية ، قد تمتد إلى أفراد البيت الواحد أو أصدقاء العمر ! .

● **نار الغضب :**

والغضب لون آخر من النار التى نحملها بين شفاهنا ، لكنها نار ظاهرة ، تمتد ألسنتها بوضوح ، وتنطلق من الشفاه فى موجات عاتية ، بعد أن يشتد سعيرها فى داخل الإنسان .

ونار الغضب صاخبة كحريق الغابات ، التى تزأر بصوت الرياح العاتية . فالإنسان الغاضب يحمل بين شفتيه نار عاتية ، ذات صوت هادر . فإذا ما إنفلت

زمامها إمتدت خارجة من الأفواه لتحرق كرامة الآخرين ، وتلطخ سيرتهم .

إن نار الغضب فى أفواهنا تلهب وجوه إخواتنا ، ودخان الغضب المنبعث من بين شفتينا يدمع عيون المحيطين بنا ، وقد يكونون من أرق الناس وأكثرهم حباً لنا ! .

• نار الشهوة الرديئة :

هذه نار قاسية ، تشتعل فى نفوس الكثيرين ، حين تسيطر عليهم الرغبات ، أو النزوات ، أو العادات . فالميول الغريزية تغذى شهوة الإنسان ، وتطعمها بمزيد من الحطب والنار ، حتى تفقد صاحبها كل سبيل للتعقل والحكمة .

ونحن كثيراً ما نرى أناساً من أرفع البشر مكانة فى المجتمع ، أو من أفضل الناس منزلة فى عيون الآخرين ، لكنهم يضحون بكل ما لهم من إحترام وتقدير ، ويلقون بأنفسهم فى مياه آسنة فى دروب الفساد المختلفة ، ليطفئوا - مؤقتاً - نار الشهوة التى تشتعل فى أعماقهم .

وضحايا المخدرات والمكيفات المختلفة ، يتمرغون فى الوحل ، ويخسرون كل حصاد العمر ، من أجل إطفاء نار الشهوة ، أو العادة المتمكنة .

إن الشهوات الرديئة تحول القلب إلى مناجم سوداء من الفحم الساخن ، وتجعل الهواء دخاناً لا يعرف الصفاء . والإنسان الذى يخضع لشهواته ، ويستعبد نفسه لعاداته المستحكمة ، يشبه رجل السيرك الذى يبتلع كرات النار ، إنه يعيش بحلق جاف ، فبينما يتصاعد الدخان من شفتيه ، تكون النار قد ألهبت حلقه ! .

ما أقسى نار الشهوة فى شفاه المستعبدين لها .

• نار الضمائر الثائرة :

هذه هى النار التى لا تهدأ أبداً ! ، إنها مثل النار المشتعلة فى حقول الزيت ، تجد دائماً ما يغذيها ، ويمدها بمزيد من اللهب ! .

إنها نار ذات إشتعال ذاتى ، لا يستطيع المرء أن يتستر عليها ، أو يقهرها ، فمواد الإطفاء المعروفة لا حيلة لها معها .

إن الضمير الثائر مخزن للوقود ، ضاع صمام الأمان فيه ، فأصبح بيتاً للهيب .

وكثيراً ما تخرج من بين شفتينا كلمات ضجر أو تمرد أو شكوى ، هى فى جملتها

مجرد إشارة الى النار التى فى داخلنا . نار الضمائر المعذبة بسبب خطيئة ما .

وقد تخرج من بين شفتينا كلمات تبرير لخطايانا ، هى مجرد محاولات يائسة لإطفاء نار ضمائرنا المتأججة فى دواخلنا .

إن الله - سبحانه - هو القادر وحده على إطفاء هذه النار . فقد وضعها فينا لتبكيتنا على شرورنا وخطايانا ، ولينبهنا قبل فوات الأوان إلى حاجتنا لقوة علوية خارجة عنا ، تنتشلنا من طين الحمأة ، ووحل الخطيئة والشهوة .

لذلك فإن كلماتنا تظل حريقاً فى شفاهنا ، حتى ننطق بضراعات التوبة ، ونسكب دموع الندم ، فإذا صدقت توبتنا ، فإن الله يكشف لنا سبيل الخلاص .

عربون الغضب

إن فى داخلنا نيران كثيرة ، هى عربون غضب الله ، على عالم الشر الذين صرنا عبيداً له .

والنار بين شفاهنا ، صورة مصغرة للحقيقة المتأججة فى قلب الكون - بركان الشر - عالم الفجور والآثام .

لكن سلام الله حقيقة يعرفها الكثيرون ، الذين أطفأ الله نار عذابهم ، وأعطاهم فيض روحه القدوس ، وسكب عليهم ينابيع السلام الداخلى ، واليقين الراسخ بالحياة الأبدية السعيدة التى يهبها الله لمن يجد السبيل للخلاص من دينونة الاشرار أبناء الغضب .

صرخة إنسانية

يارب

إننى أحترق بنار الغيرة ،
الريح الصفراء ، التى افسدت ربيع
الخير فى حياتى .

وأتعذب بشهوات نفس لا تشبع ،
جائعة أبداً .

وعلى شفتى تتفجر ينابيع الغضب ،

وتكتوى أيام العمر ،
بلهيب ضمير ثائر ،
لا يهدأ ...
لا ينطفئ .

إمتلأت أنفى برائحة الحريق
دخان الغضب .
جفت فى شفتى كلمات التوبة ،
أكاد أرى نار غضبك
تأكل عظامى .

لكننى أعلم أنك رب الرحمة .
وأن هناك طريقاً ،
لينابيع غفرانك وسلامك .

فاكشف لى كيف أنال رضاك .
وبمن أتشفع عندك ،
حتى يغمرنى سلامك .
فتصير الارض المحروقة ،
جنات الخير .
وتهب على النفس المحرومة ،
نسمات رضاك ،
ربيع العمر .

يارب

٣٢ - مبادئ إنسانية ..

قد تختبئ " الكبرياء القاتلة " وراء ستار " الكرامة الشخصية " حتى تحطم صاحبها !!

مات " سويلم " فى غرفة العمليات . ولكن موته أصبح على كل لسان ، فقد مات معه " عرفان باشا " عمدة قريتنا ، وقبل أن يحين أجله !!

كان الباشا رجلاً واسع الثراء ، يملك زمام القرية ، بيوتها وأراضيها - ويعمل فى خدمته رجالها ونساؤها .

فحول بيته الكبير يعيش مئات العاملين مع أسرهم ؛ فالرجال يخدمون فى الحقول ، والنساء يخدمن فى " دوار الحريم " والأطفال يترددون على المدرسة الإبتدائية التى بناها الباشا ، وأطلق عليها إسم ولده " ناجح " .

وفى قريتنا - ورغم الفقر الشديد - فإن كثيرين من أبناء القرية إستطاعوا أن يواصلوا تعليمهم ، فى مراحل التعليم المختلفة . وحصل الكثيرون على درجات جامعية عالية .

لكن " ناجح " إبن الباشا المدلل ، لم يكن له جلد أو مثابرة على التعلم . فكان على أبيه أن يستأجر له المدرسين الخصوصيين - يلقنونه العلم ، وييسرون له الصعاب ، ويتحملون عنه مشقة البحث ، وعناء الدرس .

وبالكاد - إستطاع ناجح أن يتم دراسته الثانوية ، لكن الدرجات التى حصل عليها ، لم تكن كافية لإلتحاقه بالجامعة ، على حين إلتحق بها كثيرون من أبناء الفقراء الكادحين الذين يعمل أباؤهم فى خدمة الباشا .

ورأى الأب أن يرسل إبنه إلى إحدى الجامعات الأوروبية ليدرس الطب ، ويعود ليدير المستشفى الكبير الذى شرع فى بنائه لعلاج أهل القرية .

وأختفى ناجح إبن القرية سبع سنوات فى أوروبا ، كان يتردد خلالها على القرية فترات صغيرة ، فيتجمع حوله أهل الدائرة ، يستشيرونه فى أمور صحتهم ، وصحة

عيالهم ، فيقدم لهم المشورة ، ويوزع عليهم بعض الأدوية المقوية ، فيدعون له بطول العمر .

لكن الحقيقة التى ظلت خافية عن الأب - المحدود التعليم - وعن أهل القرية البسطاء ، هى أن ناجح لم يستمر فى تعلم الطب سوى شهور معدودة ، ثم لفظته الجامعة ، حين فشل فى إستيعاب دروسها .

وجاء الوقت الذى عرف فيه العمدة القصة الكاملة عن إبنه الفاشل ! ، لكن هذا النبأ الصاعق جاء متأخراً ، بعد أن كان الإبن قد عاد إلى الوطن . وأخذ يمارس هوايته الطبية ، فيشخص الداء ويوزع الدواء ، ويتلقى الدعوات - ويخدم القرية لوجه الله !!

وحين تكشفت الحقيقة المرة - كان لقاء عاصف بين الرجل وولده ، ولم يكن أمام الإثنين سوى واحداً من إختيارين صعبين : إما أن يعترف الرجلان بالحقيقة المرة أمام أهل القرية . أو أن يستمر الإبن فى تمثيل دور الطبيب . وإختار الإثنان الحل الأخير .

ثم مات " سويلم " .. قتله الطبيب المزيف . ولم تستطع أموال العمدة أن تشترى صمت أم سويلم ، لم تغلق فمها حتى دخل الطبيب فى السجن ، ودخل العمدة - إلى بيته مقهوراً ، فلم يخرج منها إلا إلى مثواه الأخير ! .

لقد أبت " كرامة " العمدة أن يعترف بأنه خدع لسنوات طويلة ، وأبت كرامة الإبن المدلل أن يعترف بفشله أمام عامة الناس - الذين هم فى مكانة الخدم والأتباع .

وإستكثر الإثنان أن يقال إن إبن الباشا طالب فاشل ، على حين يحمل أبناء العامة الدرجات العلمية العالية ! .

فأى كرامة هذه التى تهدم نفوس الناس ؟ .

" كرامة " أم " كبرياء " ؟

كثيراً ما يخلط الناس بين " الكرامة الشخصية " بمعناها الحميد ، وهى عزة النفس - التى لا تقبل المهانة والمذلة ، وبين " الكبرياء الذاتية " التى تهدم النفس ، وتقود إلى المهانة والمذلة ! .

فكرامة النفس هى أن يضع الإنسان نفسه فى موضع الكرامة ، فلا يفعل ما يجعل الآخرون يحتقرونه ، أو يستبيحون إهانته جزاء فعله .

ويستطيع كل إنسان - مهما كان قدره ، ومهما كان عمله ، أن يحفظ لنفسه مكانتها ، وأن يدعو الناس إلى إحترامه وتقديره ، حين يرتفع فوق الصغائر ، فلا يتدانى إلى ما فيه الهوان .

وليس من الكرامة فى شئ أن يكون الإنسان مخادعاً ، أو كاذباً ، أو مدعياً ما ليس له ! ، فالكرامة ليست هى الترفع الكاذب واختلاس الهيبة أو المكانة العالية ! .

وليس ضد الكرامة أن يعترف الإنسان بذلاته أو أخطائه أو خطاياه .

لكن " الكبرياء " كثيراً ما تلبس ثياب الكرامة ، فتحول بين الإنسان وبين الإستقامة والحق ، وتظل تخادع حتى تقود صاحبها إلى الهلاك ! .

فهذه الكرامة الكاذبة وليدة الكبرياء المقنعة . إذ بينما يتحدث المرء باستعلاء عن كرامته ، يكون فى حقيقة الأمر صريعاً لكبريائه ، عاجزاً عن مواجهة حقيقته ! .

والكبرياء صفة مكروهة ، لذلك لا يستطيع أحد أن يعترف أنه متكبر . ولذلك يسرب الشيطان إلى عقله صفة أخرى يستطيع أن يعلنها للناس ، حين يقول لهم أن كرامتى لا تسمح بهذا أو بذاك . وهنا يستطيع أن يجد تبريراً ذاتياً لكثير من خطاياه .

هذه الكبرياء المتنكرة !

ومن صور هذه الكبرياء المتنكرة فى صورة الكرامة الشخصية أنها :

١ - تمنع الإنسان من الإعتذار عند الإساءة للآخرين :

كنا ونحن صغار لا نستطيع أن نقول : أنا متأسف حين نخطئ ، وبخاصة إذا كان هذا القول موجهاً إلى واحد من الصغار من زملائنا . وكنا نعتقد أن هذا الإعتذار ينتقص من كرامتنا ، ويجعلنا فى مركز أدنى من الطرف الآخر . ولكن الأيام علمتنا أن عدم الإعتراف بالخطأ ليس من الكرامة ، لكنه الكبرياء .

وأن عدم الإعتذار يخلق مرارة داخلية ، ويقطع أواصر الصداقات ، ويسجن

الإنسان فى قاع وحدته وكراهية الناس له . وهذا مطلب الكبرياء ! .

٢ـ تمنع الإنسان من الإعتراف عند الخطأ :

كثيراً ما نسمع عن إحدى شركات الأدوية أو أحد المصانع الكبرى يعلن عن سحب أحد منتجاته من الأسواق ، لإكتشاف خطأ فيها . وهذا الإعتراف ليس ضد مركز الشركة ، بل على النقيض ، هو يرفع من شأنها فى عيون المتعاملين معها ، ويزيد الثقة بها .

وقد رأينا علماء أجلاء يعترفون بأخطائهم وينشرون على الناس تفاصيل أخطائهم ، فلم تنتقص هذه الإعترافات من كرامتهم .

٣ـ عدم طلب المساعدة :

كثيراً ما تمنعنا الكبرياء من طلب مساعدة الآخرين ، فإننا نظن كل مساعدة ضد عزة النفس . وهذا التفسير فيه تأليه للذات ، فكأننا آلهة لا نحتاج إلى الآخرين . وهذه قمة الكبرياء .

لقد خلق الله هذا الكون ، وفيه تتكامل إحتياجاتنا ، فكل منا يحتاج إلى شئ يملكه إنسان آخر ، وهكذا تتكامل وحدة الكون . وهى صورة متكررة فى عالم الأحياء ! .

لكن الكبرياء تقتل صاحبها ، فيموت فى حاجته التى قد تكون بين يدى أخيه ! .

الكبرياء : سلاح الشيطان

والكبرياء هى صفة الشيطان ، وهى السلاح الذى يستخدمه لتحطيم الناس . فكما هدم نفسه بالكبرياء ، هكذا يهدم البشر ، وكما قطعت الكبرياء صلته بالله ، هكذا يقطع بها صلة الناس بالله ، وكما طردته الكبرياء من رحمة الله ، يريد أن يحول بالكبرياء بين الناس ورحمة الله ! .

إن رحمة الله واسعة ، وإرادة الله هى لخير البشر أجمعين ، لكن عدالة الله تطالب الإنسان أن يعترف لله بخطاياه جميعها ، ولا يستهين بالصغائر ، لانه قدوس طاهر لا يحب الخطيئة والشر . ولكن الشيطان يوسوس فى صدور الناس ، فيهون الخطيئة فى عيونهم ، فلا يعترفون . ويلفت أنظارهم إلى خطايا وعيوب الآخرين فيستكبرون .

والشيطان يعلم أن طريق الخلاص الأبدى - أوله الإعتراف بالخطيئة ، وبأننا نستحق الدينونة الأبدية الرهيبة ، لذلك يحول الشيطان بيننا وبين محاسبة النفس أمام الله - والتوبة بين يديه .. حتى يغلق علينا باب الهلاك الذى نصنعه بكبريائنا .

إن كرامة النفس الحقيقية هى نوال الخلاص من يد الشيطان ، والتحرر من عبوديته وأسره .

إن كرامة النفس الحقيقية ، هى اللجوء إلى الله ليرفع نفوسنا من عبادة الذات ، والحياة المادية إلى عبادة الله الحى ، وهداية روحه القدوس .

إن الطريق إلى الهلاك الأبدى له باب موصد إسمه الكبرياء الذاتية .

والطريق إلى الحياة الأبدية السعيدة له عتبات أولها الإعتراف بالخطيئة وطلب الخلاص .

فهل نموت صرعى كبريائنا ؟ .

صرخة إنسانية

يارب

لقد إمتلأ قلبى بالكبرياء ،
لم أعد قادراً على مواجهة الحق ،
لم أعد قادراً على الإعتراف
بالذنب .
أصبحت أعيش تحت قناع لامع ،
أخفيت خطاياى عن عيون
الناس .
لكنها - بكل يقين - ليست خافية
عن عينك الفاحصة .
فماذا ألجم لسانى
عن الإعتراف بين يديك ؟

يارب

سامحنى .. أنا الخاطئ

وأكشف لى شرى وعيوبى ،
ومصيرى ..
إذا أنت لم تغفر ذنبى !
كفانى خداعاً
كفانى إختباء وراء كبريائى
الزائفة .

سامحنى
وأكشف لى بروحك القدوس
طريق الحياة

يارب

الضمير هو الآله التى يستخدمها روح الله لتوجيه الإنسان ، لكنها كثيراً ما تكون معطلة !!.

ضمائرنا آلة الله فى داخلنا

قال صاحبى : الساعة توقظنى من أحلى أحلامى ، دقاتها تهاجم إذنى فى منتصف الليل ، وتتركنى قلقاً معذباً حتى الصباح ! ، مستقبلى كله تهدده هذه الساعة المشئومة . هل لديك حل ؟ .

قلت لصاحبى : إذا لم تكن تمزح ، فان الحل بسيط . أخرج الساعة من غرفة نومك ، أو ثبتها على حائط بعيد ، أو إستبدلها بساعة رقمية ليس لها دقات .

قال صاحبى : إنها ليست ساعة حائط كبيرة كما تتصور ، إنها ساعة يد صغيرة معطلة منذ زمن بعيد ! .

قلت لصاحبى : لو لم أكن أعرفك جيداً ، لشككت فيك . لكنى واثق من جديتك ورجاحة عقلك ، فأسرع برواية قصتك قبل أن ينتابنى القلق والخوف من وجودى معك فى غرفة واحدة ! .

وإبتسم صديقى وقال : ثق أننى بخير ، لكن ما يقلقنى لا يخلو من الغرابة . فقد حدث من سنوات كثيرة أننى كنت أعبر الطريق ، فرأيت رجلين يتشاجران ، وقد أمسك كل منهما بخناق الآخر ، وتشابكت أيديهما ، ثم ألقى أحدهما الآخر أرضاً ، فأفلتت ساعة يده من حول معصمه ، وقفزت فى الهواء لتسقط تحت قدمى . وبدون أن أدرى إنحنيت ، والتقطت الساعة ، وظللت واقفاً إلى أن يهدأ الشجار ، لأعطى الساعة لصاحبها . ولكن المتشاجرين إندفعا بعيداً عن الساحة ، وظللت أنا ممسكاً بالساعة فى يدى ! .

وبالطبع كان يمكننى أن أتبعها إلى الشارع المجاور ، حتى أسلم الساعة لصاحبها ، خاصة وأننى تبينت بوضوح ملامح وجهه ، ومكان الساعة الخالى فى

معصم يده اليسرى . لكننى لم أفعل . ظللت واقفاً حتى إنفض الجمع ، ويدى قابضة بشدة على الساعة ! .

وفى طريق جانبى وضعت الساعة فى جيبى ، وأخذت دقات قلبى تضرب بشدة ، وأسرعت إلى المنزل . وعندما دخلت حجرتى أغلقت الباب من الداخل ، ثم أغلقت النافذة ، ونظرت فى كل إتجاه حولى لأتأكد أن أحداً لا يرانى ، ثم أخرجت الساعة من جيبى . ونظرت إليها بنظرات تائهة .

ومضت لحظات لم أكن أعرف فيها أين أضع هذه الساعة ، وأغمضت عينى ، وألقيت بجسدى على فراشى ، وتصبب العرق على جبينى ، وأحسست بمهانة اللص وهو يواجه عيون الناس . كانت مواجهتى مع نفسى قاسية للغاية . وعندما إلتفت إلى المرآه أدرت وجهى سريعاً فقد كان أمامى شخص آخر غير الذى عرفته فى حياتى .

وتنهد صاحبى وقال : الغريب أن الساعة معطلة ، ولا تدق ، لكن دقاتها توقظنى بالليل .. ضميرى ثائر ، ونفسى قلقة ، ولا أدرى كيف أستعيد راحتى .

هذا المتحدث بغير صوت !

لقد كان من رحمة الله بالإنسان ، أن جعل فى داخله جهاز إستقبال حساس - إصطلح على تسميته بالضمير ! .

ومن خلال هذا الجهاز يتحدث الله إلى قلوب الناس ، فينبههم إلى مواقع الخطر ، وينذرهم كلما جنحت نفوسهم إلى موارد الهلاك . وهذا الجهاز الحساس - الذى ندعوه الضمير ، يقوم بعملين أساسيين ، فهو يقوم بدور **جرس الإنذار** الذى يدق للتنبيه قبل الوقوع فى الخطأ . وهو **كمطرقة التأنيب** يبكتنا إذا تعمدنا الخطأ .

وهذان العملان للضمير ، يهدفان إلى حماية الإنسان حتى لا يسقط ، ثم حثه على النهوض إذا هو سقط .

صوت الأبدية

ولكن الضمير له دور آخر . **إنه صوت الأبدية فى داخل الإنسان** . الصوت الذى يوجه أنظارنا إلى آفاق كونية أبعد من حدود الماديات الملموسة ، وأبعد من حدود العمر القصير .

إن الضمير الطاهر هو الرادار الحساس الذى يلتقط الرسائل التى يبعثها روح الله القدوس ، ليفتح أمام الإنسان أفاق الأبدية والخلود . إنه الصوت الداخلى الذى يستخدمه روح الله ليكشف لنا طريق الحياة الأبدية ، ويوضح لنا ما يصعب علينا إدراكه من أسرار الخلود .

نحن وضمائرنا

لكن ضمائر الناس ، ليست دائماً كالأجهزة الحساسة الدقيقة ، التى تلتقط الإشارات ! . إن لبعض الناس ضمائر يقظة ، تستمع إلى ما يبثه روح الله ، وتفهم إشاراته وتوجيهاته ؛ فتدرك بوضوح طريقها إلى الله ، وتمتلئ نفوس أصحابها بالسلام الداخلى ، واليقين الكامل بالسعادة الأبدية والخلود .

ولكن بعض الناس لهم ضمائر بليدة الحس ، لا تلتقط همسات روح الله ، ولا تفهم إشاراته ، وتظل خامدة فى مادياتها المحسوسة .

ولبعض الناس ضمائر نائمة .. فقد إستحسنوا أن يغلقوا هذا الجهاز الحساس ، حتى لا يبكتهم على أخطائهم ، فيعيشون فى دناياهم ، غير عابئين بأمر حياتهم الأبدية .

وبعض الناس ماتت ضمائرهم . إنها ليست نائمة إلى حين ، بل أصبحت ضمائرهم ميتة لا تتأثر بصوت إنذار ، أو بصوت تبكيت . لذلك فإن روح الله يتحدث إليهم ، لكنهم لا يتجاوبون ، حتى تنتهى حياتهم ، فيهلكون فى جهلهم .

لذلك يقول " ولتون " : " من يفقد ضميره ، لا يمتلك شيئاً يستحق الحفظ " .

صرخة إنسانية

يارب

أشكرك من أجل صوتك ،
الذى يتحدث فى داخلى .
الوتر الذى تعزف عليه يدك
ألحان الحب .
أحمدك من أجل همساتك ..

نبضات حبك..
اللغة التى لم ينطق بها لسان.
أشكرك من أجل صوتك فى ضميرى ،
"جرس الإنذار" الذى أيقظنى ،
يدك التى حالت بينى وبين
السقوط مرات كثيرة !
وأحمدك من أجل "المطرقة"
التى لم تهدأ
حتى حطمت قسوتى وجمودى.
فمع أننى تخطيت الحدود ،
وقفزت فوق الحواجز الخطرة ،
فانك لم تتركنى لضلالى.
والآن..
أعود إليك بقلب تائب.
أغفر لى بلادتى
وأعطنى ضميراً حساساً نقياً
فقد دفنت ضميرى
تحت ركام العقائد البالية !
وصممت أذنى
بأصوات التقاليد والمأثورات
البشرية !
أعطنى أن أسمع صوتاً واضحاً -
بلا تشويش.
يكشف لى طريق خلاصك ،
ويوضح لى الطريق الحق ،
نحو الحياة الأبدية والخلود.

يارب

٣٤ – مبادئ إنسانية ..

فى صفحة الحياة كتابات واضحة .. قد يقرأها الأميون ، ويعجز عن قراءتها المتعلمون

يحكى عن صبى صغير ، لم يكن قد نال شيئاً من التعليم ، لكنه أوتـى بصيرة نافذة وعقلاً مستنيراً .

والقصة تقول أن الصبى كان واقفاً فى خدمة أحد الأمراء ، وهو يملى رسالة على كاتبه . فلما بلغ الكاتب نهاية الخطاب ، إعتدل فى جلسته ، وأصلح قلمه ، ثم كتب إسم الأمير ، وسلمه له ليضع عليه خاتمه .

ولكن الصبى نظر إلى الأمير وإستمهله قائلاً : يبدو أن الكاتب قد أخطأ فى كتابة الإسم يا سيدى . فلتراجعه فى ذلك قبل أن توقع الخطاب .

ونظر الأمير فى الورقة ، فإذا بالإسم مغلوط كما أشار الصبى ، فأخذته الدهشة ! ولم يدر كيف إستطاع صبى صغير أن يكتشف هذا الخطأ ، وهو لم يلتحق بمدرسة ، ولم يقرأ حرفاً .

قال الصبى : لقد كنت أراقب الكاتب ، وأتابع حركة القلم فى يده ، فلاحظت أن إهتزازات القلم عند كتابة إسم الأمير فى نهاية الخطاب ، إختلفت عنها عند كتابة الأسم فى أول الخطاب . فعرفت أن هناك خطأ فى إحدى الكتابتين ! .

ولما كان الكاتب فى نهاية الخطاب مجهداً ، فقد رجحت أن يكون الخطأ فى المرة الأخيرة ! .

وهذه القصة الطريفة تؤكد حقيقة واضحة ، هى أن الفطنة ، والإدراك ، وحسن التأويل ، والقدرة على التعلم - لا تتوقف عند باب المدرسة . لكنها ملكات مستقلة ، قد تظهر فى الأميين كما فى المتعلمين ، وقد تختفى فى كليهما .

ومع أن " العلم نور " ، والجهل ظلام ، لكن الظلام الأكبر هو أن يكون الإنسان متعلماً ، ولا يستطيع أن يقرأ دروس الحياة ، أو يعجز عن تفسير أوليات الوجود .

متعلمون لا يقرأون !

فالعجيب فى هذه الحياة ، أن بعضاً من المتعلمين ، الذين نالوا أعظم الدرجات العلمية ، يتصرفون فى حياتهم ، بما يؤكد أنهم لم يقرأوا شيئاً من صفحات كتاب الحياة المفتوح ! .

ونحن نذكر أن رجل الفضاء الأول " جاجارين " الذى صعد بمركبة الفضاء إلى خارج دائرة الجاذبية الأرضية . وتيسر له أن يرى - أكثر من غيره عظمة هذا العالم الذى أبدعه الله . هذا الرجل لم يستطع بعلمه ومعرفته ، وبرغم الفرصة النادرة التى أتيحت له ، لم يستطع أن يقرأ إسم " الله " مكتوباً واضحاً على صفحة هذا الفضاء الفسيح ، وظاهراً فى كل ذرة من ذرات الكون ! .

أليس هذا عجيباً ؟

ألم يستطع ملايين البشر البسطاء فى كل العصور إدراك وجود الله ، والوصول إلى الله برغم بساطتهم ، وتواضع تعليمهم ؟ .

ولكن إدراك وجود الله ليس هو الشئ الوحيد الذى قد لا يقرأه كثير من المتعلمين ، بل هناك أشياء كثيرة جداً لا يقرأوها الكثيرون ، وهى واضحة جداً فى صفحات الحياة ! .

إن طفلتى الصغيرة كثيراً ما تلاحظ أشياء لا أراها أنا فى المجلة التى أقرأها ! فهى ترى تفاصيل الصور ، وملامح الوجوه ، وتقرأ فى ذلك معان كثيرة لا أقرأها أنا ، ذلك لإنشغالى بالكلمات والحروف التى هى مجرد رموز لا تستطع أن تعبر عن الحقائق الكامنة .

إن المتعلمين كثيراً ما يقرأون الأوليات ، على حين تمتد بصائر البسطاء إلى ما وراء الرموز ، فيكتشفون الحقائق .

كتابات على صفحة الحياة

إن صفحة الحياة غنية بالمعانى ، مليئة بالحكمة ، تحمل فى طياتها دلالات وعلامات كافية لترشيد الإنسان ، وإضاءة الطريق أمامه منذ ولادته وحتى يغادر الحياة الدنيا .

فعلى صفحة الحياة نقرأ **معنى الحياة والوجود** . وتتضح الحقائق أمام عيوننا عن قيمة الإنسان ، و هدف وجوده .

وعلى صفحة الحياة نقرأ عن الله - القوة الظاهرة والحكمة البالغة وراء الوجود والزمن .

وعلى صفحة الحياة نقرأ عن " **الأزل** " ، البعد السحيق فى أعماق الماضى ، " **والأبد** " البعد السحيق فى أعماق المستقبل .

فى صفحة الحياة يقرأ الحكماء - متعملون وأميون - كل الحقائق عن أنفسهم وعن الله وعن الحياة الأبدية .

حقائق عن النفس

يستطيع الإنسان العادى البسيط أن يقرأ ما وراء الظاهر من أمر الإنسان . فهذا الإنسان الذى هو أنا وأنت ، له عقل يفكر ، ويميز ، ويختار .

وكان المفروض أن يظهر تميزاً عن كل الخلائق الأخرى لما هو عليه من إدراك أفضل .

لكن هذا الإنسان أثبت على مر الأيام ، أنه أنانى ، ميال إلى الشر ، مستعبد للخطيئة - حتى لو أخفى أمره عن الناس ! .

● وبين سطور كتاب الحياة نقرأ بوضوح أن الإنسان الذى يدعى القوة ، مهزوم أمام نفسه التى تأمره بالسوء ، وهو عاجز حتى عن التوبة حين يريد ، لأن شهواته المادية تستعبده وتأسره ! .

● وعلى صفحة الحياة نقرأ أن الإنسان - كل إنسان سيموت ، ويترك ما إدخره وما بناه ، ومع ذلك فالإنسان مستعد أن يسرق ويقتل ليجمع المال الذى سيتركه فى وقت قريب ! .

● وعلى صفحة الحياة نقرأ أن هناك حياة وراء القبر ، ومع ذلك فإننا نتجاهلها - ونخشى التعمق فى إستجلائها ، وننشغل بأمر عشرات السنين ، هى حياة الدنيا ، ونغفل الحياة الأبدية التى لا تنتهى أبداً .

ويستطيع الإنسان العادى - متعلماً أو أمياً - أن يقرأ على صفحة الزمن **أن الله - الذى لا تراه العين - هو ملء الوجود** ، وظاهر فى كل الكون .

● ويستطيع كل إنسان أن يرى **أن الله يحبه** ، لذلك خلقه خليقة مميزة ، وهيأ له أسباب الحياة من حوله ، فلم ينقصه شئ من الخير . ولازال الإنسان حتى يومنا هذا يكتشف - كل يوم - أشياء جديدة صنعها الله منذ الأزل ، ليستفيد الإنسان بها .

● ويستطيع الإنسان العادى أن يقرأ على صفحة الحياة المكشوفة ، أن الله قد أوجده لا ليعيش سنوات قليلة ويموت ، **بل أن لحياته الأرضية القصيرة إمتداداً فى أعماق الأبد . وأن الحياة فى الأرض ، هى فترة الإستعداد للحياة الأخرى التى نرحل إليها .**

● لكن أوضح ما يستطيع الإنسان أن يتعلمه من معانى الحياة هى **أن الله قد أعد له الطريق إلى الحياة الأبدية** ، التى لا يستطيع الإنسان أن يدخلها وهو ملوث بخطايا البشر .

فالله الذى صنع عالماً مليئاً بالخير ، بالغ الدقة ، ليحيا الإنسان فيه سنوات قليلة ، لابد أنه قد أعد عالماً أفضل ليحيا الإنسان فيه إلى الأبد ! .

وكما أن ولادة الإنسان بالجسد تؤهله لدخول الحياة الجسدية ، كذلك فإن ولادة الإنسان ولادة روحية تؤهله للحياة الأخرى وراء حدود الجسد .

هذه الولادة الروحية - هى عمل روح الله القدوس ، الذى لا تدركه العقول بالتعلم والمعرفة البشرية ، بل تدركه القلوب المفتوحة التى تقرأ كتاب الحياة الذى خطته يد الله على صفحات الزمن ! .

صرخة إنسانية

يارب

أشكرك لأنك علمتنى

كانت عينى مفتوحة على الباطل ،

فلم تبصر الحق .

كان عقلى مليئاً بالكلمات
والحروف ،
لكنه ظل مغلقاً أمام لغة السماء.
أدركت الكثير من المعارف
والعلوم ،
وخدعتنى بصيرتى فى أوليات
الأمور.

أشكرك لأنك عرفتنى ،
أن الطريق إليك
لا يتوقف على حكمتى وعلمى
وتعليمى ،
بل على رحمتك وحبك وإعلانك السرى !

أشكرك لأننى أعرف الآن :
أن الحياة الأبدية ،
لها طريق مرسوم ، صنعته يداك.
وتعلنه أنت - بروحك
للقادمين إليك من أعماق ظلام
الكون.

فعلمنى الخفيات
وخلصنى من قيود الكلمات
المتكررة.
التى تصم الآذان ،
ولا تصلح الحياة.
خلصنى من الحروف الجافة ،
التى لم تغير قلبى الأثيم على مر
الأزمان.

وأرشدنى إلى طريق الخلاص
من قيود الحكمة الكاذبة

وانر أمامى سبيل النجاة ،
من أسر العبادات الجافة .

وأنقلنى إلى رحاب وجودك
وحضورك ،
وخلاصك ،
ورضاك .

يارب

صديقك من يقول لك الصدق
وعدوك يخفى عنك الحق

فى العمل الأدبى الرائع الذى كتبه الأديب المصرى الراحل " على أحمد باكثير " عن حياة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، يكشف الكاتب عن السر وراء التصرفات الغريبة التى كان الحاكم يأتيها ، والتى جعلت الناس يتهمونه بالجنون .

فالكاتب يقدمه لنا رجلاً تقياً ، زاهداً فى العيش ، عازفاً عن مباهج الحياة ، يكثر من الرياضة الروحية حتى تشف روحه ، ويدعو الله ليلاً ونهاراً أن يجعله أهلاً للحكم ، وأهلاً للقرب منه .

لكن نفس هذا الرجل عاد فأعلن ربوبيته ، ودعا الناس إلى عبادته ! .

وكان وراء هذا كله سراً خفياً ؛ ذلك أن رجلاً من المقربين إليه يدعى " حمزة بن على " ، أخذ يتقرب إليه حتى صار أقرب أصدقائه ، ثم أخذ يتملقه ، ويرضى غروره ، حتى أقنعه بأنه إله ، عالم بالغيب ، كاشف للسر ، وظل يمالئه حتى دعى الناس لعبادته ! .

ومهما يكن من أمر هذا التفسير - الذى يمكن أن يكون تفسيراً صحيحاً أو مجرد خيال كاتب ، إلا أن الفكرة الأساسية هى أن الصديق الذى لا يصارحك بعيوبك ، إنما يدخل الغرور إلى نفسك ، فيكون أخطر عليك من العدو الذى يهاجمك .

- فهل تجد الصديق الذى يحرص عليك ، ويحميك - حتى من نفسك ؟ .

- هل يتسع عالمنا لمعانى الصداقة والوفاء ؟ .

- هل نجد اليوم الصديق الذى ينتشلنا من دائرة الإحباط ،

ويفتح لنا صفحات جديدة من الأمل ، فى عالم ملئ بالخيانة والأنانية ؟ .

- هل هناك قوة أخرى توفى مطاليب الصداقة حين لا يقدمها الأصدقاء ؟ .

• الصداقة - كأى بناء - لابد أن تقوم فوق أرض صلبة ..

لأن البناء لا يثبت فوق أرض رخوة أو رملية . وكثير من الصداقات تعصف بها الأمواج ، لأنها كالنباتات الضحلة الطافية على وجه الماء ، بلا أرض تثبت فيها جذورها ! .

أقم صداقاتك فوق مبادئ قوية ، وقواعد راسخة حتى لا تميل ولا تنجرف ! .

• والصداقة - كأى بناء - لابد أن تكون لها أساسات قوية ..

فالصداقة التى ليس لها أساس - هى صداقة سطحية خالية من العمق . وكثير من الصداقات تتحطم لأنها تفتقر إلى الأساس ، إنها كالنباتات المتسلقة ، ترتفع بلا قوام ، فتضربها حرارة الشمس - المواقف الصعبة - فتحترق وتتلاشى .

الصداقة ذات الأساسات القوية تواجه الزلازل ، وتصمد أمام الصعوبات .

أقم صداقاتك على أساسات عميقة ، حتى لا تنهدم فوقك ! .

• والصداقة - كأى بناء - لابد أن تحمل أساساتها المختفية جسماً ظاهراً ..

هو جسم البناء المستخدم . فالأساسات لا تحفر لكى تطمر فى الأرض بلا فائدة ؛ بل لكى يقوم فوقها البناء النافع .

لذلك فالصداقة التى لا تقوم على هدف ، ولا تعود على أحد بفائدة ، هى كالبناء المهجور ، يشغل الأرض عبثاً .

إجعل لصداقاتك أهدافاً ، فلا معنى لصداقة عاطلة ! .

• والصداقة - كأى بناء - لابد أن يكون لها نوافذ تطلع منها على الآخرين ..

تتابع منها أحداث الطريق .

والصداقة المغلقة صداقة خانقة ، تقتل أصحابها ، حين لا يتجدد هواؤها ! .

وبعض الأصدقاء يغلقون نوافذهم ، ويرفضون الهواء المتجدد ، يعزلون أفكارهم ، فيدب الملل فى حياتهم .

إجعل صداقاتك منفتحة ، متجددة ، لها أبواب ونوافذ ومراوح حتى لا تختنق .

● **والصداقة - كأى بناء - لابد أن نجملها ..**

أن نضع فيها مفروشات مريحة ، مستلزمات الأقامة ، نلونها بالألوان المناسبة ، ولا نترك جدرانها خشنة .

نحن مسئولون عن تجميل صداقاتنا ، وإعادة ترتيب محتوياتها ، وطلائها ، حتى تكون مريحة ، تشجعنا على الأقامة فى ظلالها ، ولا تدفعنا لهجرتها .

إجعل صداقاتك حديقة عامرة ، بيتاً نظيفاً ، حتى لا يهجره أصدقاؤك إلى الشارع ، أو إلى صداقة أخرى أكثر راحة .

● **الصداقة - كأى بناء - لابد أن تصان ..**

الصداقة تحتاج إلى صيانة ، وإلى ترميم . مهما كان البناء قوياً ، فالزمن يضعف من قوته . لا تظن أن صداقاتك من القوة بحيث لا تؤثر فيها أحداث الحياة اليومية إلى الأبد . إنها تحتاج إلى مراقبة وإصلاح قبل أن تنهدم .

أشياء تهدم الصداقة

قد تنشأ الصداقة على كل الدعامات السابقة : المبادئ الصلبة ، الأساسات القوية ، الأهداف النافعة ، الأفكار المتجددة ، البيئة النظيفة .. الخ . وبالرغم من ذلك ، فإن هذه الصداقات لا تأتى بنتائجها المرجوة ، ما لم يتحقق فيها :

● **الصدق والمصارحة :**

فالصديق الحقيقى هو الذى يصدق معك فى كل ما يقول . إنه لا يكذب ولا يخدع ، ولا يخفى الحقائق . إنه يصارحك بأخطائك ، ويواجهك بضعفاتك ، لا ليجرحك بل لينقذك . لا ليشهر بك بل ليسترك .

● **الثقة :**

فالصداقة لا تعيش إلا فى أجواء الثقة الكاملة . الحذر والشك والريبة ، هى التى تبدد سلام الإنسان وتجعل المحيط الذى يعيش فيه جحيماً . أما الصداقة فهى بر الأمان الذى نتعامل فيه بلا حذر ، فنردد ما يدور فى أذهاننا بلا خوف فى مسامع أصدقائنا .

● العطاء :

الصديق الحقيقى لا يسعى إلى منفعة ذاتية ، لكنه يستمتع بالعطاء كما يستمتع الآخرون بالأخذ . الصداقة منفعة أكيدة لأطرافها ، لكن فوائدها تأتى كثمار طبيعية ، إذا كانت الشجرة جيدة . والأنانية كالحشرات الضارة تأكل كل الثمار الحلوة فى شجرة الصداقة .

حين نفتقد الصداقة

يقول كثير من المتشائمين أن الصداقة الحقيقية قد ماتت . قتلتها المادية والأنانية .

ويتشكك الكثيرون فى وفاء الأصدقاء ، فيقولون أن الفرق بين الصديق المخلص والصديق الخائن ، أن الأول لم تحن له الفرصة بعد لإكتشافه ، على حين أظهرت الصدفة حقيقة الآخر .

ويقول آخرون أن أشر اللدغات التى أصابتهم كانت بأنياب أقرب الأصدقاء إليهم ، ثم يروون لك قصصاً كثيرة تؤيد أقوالهم .

- إذا كانت فى حياتك قصة مؤلمة عن صداقة غادرة .
- إذا كنت لم تجد بعد الصديق الذى تستريح إليه ، والذى يفضلك على نفسه .
- إذا كنت قد تعرضت لإحباط ، أو خيبة أمل .
- إذا كنت تحتاج إلى من يستمع إليك قبل أن تفتح فمك ، ويعطيك دون أن يسألك ، وينصفك قبل أن تشكو ، فدعنى أقول لك ، **أنظر إلى فوقك ...**

إن الله هو النبع الذى يشبع إحتياجاتك ، ويريح قلبك ، ويطمئن نفسك .

إن روح الله القدوس هو الصوت الوحيد الصادق - العارف أبعاد نفسك ، الذى يصارح بكل ما لك ، وما عليك ! .

إن أجواء القداسة الإلهية هى التى يحترق فيها الغش والخداع ، وتظهر الحقائق ! .

إن أنوار الأعلانات السمائية هى التى تتكشف فيها سبل النجاة ، وتتبدد فيها مخاوف المستقبل .

أنظر إلى فوق .

إملأ قلبك بالثقة فى محبة الله ، وإفتح لـه قلبك ، إعترف بأخطائك بين يديـه ، أطلب صفحة جديدة وقلباً جديداً .

إذا كنت تستمتع بأصدقائك حيناً ، وتضيق بهم أو يضيقون بك حيناً آخر . فالسماء هى الرحب الذى لا ضيق فيه ولا ألم .

إذا كنت تحس بالمرارة من غدر البشر ، فالسماء هى الشفاء من مرارة الحياة .

اللحظة التى فيها تقول يارب ، ستجد اليد التى تنشلك ، والصوت الذى يرشدك ، والنور الذى يكشف لك ذاتك ، والطريق الذى يهدى خطواتك .

السماء لا زالت صديقة التائبين .

صرخة إنسانية

يارب

آتى إليك بعد أن جفت الينابيع التى
لجأت إليها !
كان قلبى واحة لأصدقائى ،
ظلا لأجسادهم .
لكنى إكتويت بنار وشايتهم !
وحين ضربتنى الشمس ،
لم أجد من يضع يده على رأسى .
إغفر لهم .
أما حاجتى فلن يشبعها غيرك.
القلب الذى صدعته خيانة
الأصدقاء ،
لن يجبره أحد سواك.
أفكارى لم تعد صديقتى ،
فهى تجلب لنفسى القلق .
وعبادتى لم تستقطب خوفى ،

ولم ترح قلبى التائه .
حتى كلمات صلاتى وأدعيتى ،
يملأوها الزيف .
فكيف أستريح إن لم ترحنى ؟
هذه صفحة حياتى المكشوفة أمامك ،
بكل أخطائى وخطاياىا ،
فاقبل توبتى .
وأكشف لى الطريق الصحيح ،
نحو حياة هادئة بين يديك .
ومستقبل آمن فى أبديتك .
أنت ينبوع الحب ،
حين يخون الأحباء ،
وانت كاشف الزيف ،
حين يضلنا الأصدقاء .
وأنت وحدك الحق ،
الذى تعرف الزيف والحق ،
والذى تصارح المخلصين بالحق ،
فارشدنى إلى الحق .

يارب

عالمنا البشرى ..
بيئة روحية ملوثة تحتاج إلى تطهير !!

فى قرية صغيرة هادئة على ضفاف إحدى الترع ، ولد " رزق " إبن الشيخ عبد الرازق معلم القرية . أسمته أمه رزقاً قائلة : " جعله الله من أصحاب الرزق الوفير ، وعوضنا به خيراً عن معيشتنا الضيقة ، ورزقنا القليل الذى لا يكفى طعامنا " .

وإستاء الشيخ عبد الرازق من كلام زوجته ، وتمتم قائلاً : " أستغفر الله العظيم ، إن لله فى خلقه شئون ، هو يعطى من يشاء بغير حساب ، ويقبض يده عمن يشاء . وفقنا الله فى تربيته تربية صالحة " .

وتعهد الشيخ ولده بالرعاية . باع من أجله قراريط الأراضى التى ورثها عن أبيه ، أراد أن يسلحه بالعلم ، ويجعل منه نموذجاً حقيقياً لأحلامه . كما أراد أن يقيمه مثالاً وقدوة لصبيان القرية ، فى معرفة أصول اللغة والدين ، والحرص على القيم والتقاليد .

وعندما أكمل رزق تعليمه فى القرية ، كان لابد أن يغادر القرية إلى المدينة - لينزل ضيفاً على بيت خاله ، ويكمل تعليمه ، ولم يكن هذا التغيير سهلاً على الشاب الصغير الذى تعلق بكل شئ فى القرية : ببيوتها ، وحواريها ، رجالها البسطاء ، ونسائها الوديعات ، قطعان الغنم ، وأسراب الطيور . كان يحب كل شئ فى القرية حتى رائحة التراب تحت أقدام الماشية العائدة إلى البيت عند الغروب ، ونقيق الضفادع فى الترعة الصغيرة الناعسة فى ضوء القمر .

أخر ما فعله وهو يترك القرية أنه إستنشق بعمق رائحة " نوار البرسيم " . ومسح عن عينيه دمعة خفية ، ومضى إلى المدينة .

ومرت أيام كثيرة ، وتحقق للشاب ما أراده له أبوه من العلم ، وما أرادته له أمه من الرزق . ولم يسقط فى رحلة الأيام سوى ما ألقاه عليه الأب من المبادئ والقيم ! ففى ربع قرن من الزمان إبتلعته المدينة تماماً ، وأسكرته نشوة النجاح ، وباعدت بينه

وبين جذوره فى القرية الصغيرة . حتى صارت علاقته بها عبئاً عليه ، فقطع كل ما يربطه بها ، وبمبادئها ! .

عندما صار رزق فى الأربعين من عمره ، كان قد أصبح صاحب إحدى شركات الإستيراد والتصدير المعروفة ، والتى تحوم حولها الشبهات . فقد تضخمت أموال الشركة بصورة تثير الريب . وكثرت الأقاويل حول إتجار الشركة فى الممنوعات ، وتحايلها على القوانين ، وإتصالها بالمهربين .

وإلتقطت أذن الشيخ عبد الرازق بعض هذه الأقاويل - وهو فى شك منها - فتحامل على نفسه ، وسافر إلى العاصمة ، حيث إقتحم على ولده منزله الفاخر وهو جالس إلى عدد من أصدقائه وصديقاته ، يحتفلون بإحدى المناسبات الإجتماعية .

لم يسمع الشيخ شيئاً من الحوار ، فقد تقدم به السن وفقد حاسة السمع ، لكنه وهو يخطو نحو ولده إشتم رائحة الدخان الأزرق . ورأى فى العيون الشرهة ملامح الخطيئة .

وخرج الأب حزيناً ، وتبعه الأبن ، ولم يقل أحدهما شيئاً للآخر ، لكن شيئاً صغيراً جعل لهذا اللقاء تأثيراً كبيراً على الأبن ذلك أنه وهو يودع أباه إشتم فيه رائحة " **نوار البرسيم** " ، رائحة القرية ، أرض نقائه الأول .

وإسترجع رزق أيام القرية الصغيرة على شاطئ الترعة ، **وأحس كما لم يحس من قبل أنه تلوث من هامة الرأس إلى باطن القدم ! .**

أرض النقاء الأول

حين خلق الله أبانا آدم وأمنا حواء ، فإنه وضعهما فى أجواء الجنة النقية ، يتنسمان رائحة الصفاء والطهر ، ويستمعان فى نشوة أنغام الجنة الحالمة ، ويناجيان الله فى سلام فائض ، وسعادة غامرة .

هذا النقاء ، والصفاء ، والطهر ، وعشرة الله ، هى التى جعلت من هذا البستان جنة حقيقية .

لم تكن وفرة الطعام هى الجنة ،

ولم تكن أغاريد الطيور هى الجنة ،

ولم تكن جداول المياة هى الجنة ،

ولم تكن زهور الربيع هي الجنة .

فكثيرون فى أيامنا ، لهم بساتين زاهرة ، وحياة ميسرة رغدة ، لكن هناك جحيماً يعتمل فى داخلهم ! .

لقد كانت الجنة هى وجود الإنسان فى حضرة الله فى بيئة طاهرة مقدسة ! .

ونحن لم نحيا فى جنة أبينا آدم ، ولم نختبر قط نقاء الإنسان الأول الذى صوره الله فى بدء الخليقة ، لكن كل واحد منا يذكر أياماً أفضل فى طفولته ، قبل أن يتلوث تماماً بخطايا الأرض ، أيام بساطته الأولى قبل أن تستيقظ فيه الخطيئة الرابضة فى أعماق كيانه الإنسانى .

لقد تلوثت البيئة النقية الأولى بالخطيئة ، ثم تتابعت البقع السوداء على صفحة الحياة ، حتى إختفت تماماً صورة النقاء ! .

وتلوثت الأعماق !!

منذ شهور قليلة قادت جماعة من المفكرين الأوروبيين حملة ضارية ضد المسئولين السياسيين فى عدد من الدول المطلة على نهر الراين ، وحملوا شعار **" وفاة نهر "** .

وتتلخص قصة هذه الحملة فى أن بعض مصانع الكيماويات صرفت مخلفاتها الكيماوية فى النهر . وهذه المخلفات تحتوى على رواسب زئبقية سامة وثقيلة ، ترسبت فى قاع النهر ، حيث تعيش الأسماك الضخمة فقتلت الآف الأطنان ، وطفت على وجه النهر ملايين من ثعابين السمك الميتة ، معلنة بذلك **وفاة النهر نفسه ! .**

ونلاحظ هنا أن النهر لازال يتدفق كما كان ، ويبدو من كل الوجوه وكأنه حى ، لكن الحقيقة **أن الموت قد إندس فى أعماقه ، وقتل الحياة فى داخله ! .**

وهذا ما حدث تماماً للإنسان الأول . **فقد لوثت الخطيئة بستان آدم وحواء ، وعكر العصيان صفاء عيون الجنة . فصار تغريد الطيور نواحاً ، وأصبحت الزهور أشواكاً ، ولم يعد الإنسان الملوث قادراً على التواجد فى حضرة الله ، فخرج إلى شقاء البعد عن الله .**

فكيف صار الإنسان منفصل عن الله ؟ .

إنه يبدو - فى الظاهر - إنساناً عادياً سليم البنية ، يفيض بالحياة . ولكن الواقع أنه ميت فى أعماقه . **يبدو حياً بالجسد ، لكنه مات روحياً ، فالخطيئة موت ! .**

وينطبق هذا علينا جميعاً ، فنحن إذ ننظر إلى أنفسنا ، فقد نرى لنا فى الظاهر وجوداً حياً متدفقاً . **ولكن الحقيقة أن جرثومة الخطيئة إندست فى داخلنا ، ولوثت بيئة عبادتنا ، وأفسدت حياتنا ، وعكرت أجواء إتصالنا بالله ، فإنفصلنا عن روح الحياة . وهذا هو الموت الروحى الذى ولدته الخطيئة . فالموت هو الإبن الشرعى للإنفصال عن الله .**

لم تكن حياة أبينا آدم فى ذاته ، بل فى إتصاله بالله . فالإنسان هو " **نفس حية** " ، أما الله فهو " **الروح المحيى** " ، الذى يهب الحياة لكل النفوس .

وحين إنقطعت العلاقة الروحية بين الإنسان ومصدر حياته ، إنقطعت معها أسباب الحياة . وتسلط علينا سلطان الموت ، الذى يتخبط فى دروبه المظلمة جميع بنى البشر ! .

تطهير البيئة

كيف يمكننا إذن أن نخرج من أغلال الموت الروحى الجاسم على صدورنا .

الجواب لهذا السؤال هو أن يسكن في داخلنا **روح الحياة** الذى يهزم الموت وينتصر فينا ، ويقيمنا من موتنا الروحى .

إن الإنسان الميت روحياً بسبب وجود جذور الخطيئة والموت فى حياته - لا يستطيع أن يحيى نفسه روحياً . هل سمعنا أن ميتاً أحيا نفسه ؟ .

إن الله وحده هو الذى يحيى الموتى ، وهذا بالطبع ينطبق على الموت الروحى كما على الموت الجسدى .

إن روح الله القدوس هو الذى يحيى الموتى روحياً ، حين يحتل قلب الإنسان ، ويطهره من جذور الموت ، ويبعث فيه الحياة ، ويصل الإنسان بالحياة الأبدية الممتدة ، ويؤهله للتواجد فى أجواء السماء المقدسة .

الإنسان الملوث بالخطيئة لا يقدر أن يعيش إلا فى بيئته الملوثة برغبات الجسد . ولا يمكنه أن يعود إلى الجنة - حيث يرى الله ، لأن الله قدوس والجنة مقدسة ، فبدون هذه القداسة لا يرى أحد الله ويعيش .

ونحن نحتاج إذن إلى تقديس القلب ، وهو عملية تطهير وتغيير يستطيع أن يعملها الله فى داخلنا بالروح القدوس - قوة الله المحيية .

فإذا لم نختبر هذا العمل الإلهى الخاص فى داخلنا ، فستظل حياتنا ملوثة بالخطيئة ، التى يتبعها الموت الروحى ، والإنفصال عن الله القدوس ، وهذا هو الهلاك .

فهل تدعو الله لتغيير الحياة وتطهير البيئة ؟ .

صرخة إنسانية

يارب

إنى أشتاق إلى الطهر ،
أتطلع إلى النقاء.
إنزلقت قدمى فى أرض الخطيئة
فى يوم مظلم ، حين خدعنى قلبى ،
وجذبتنى شهوتى .
أذكر أنى خجلت
صغرت نفسى فى عينى ،
لكنى لم أتراجع !
كان مذاق الشر اللاذع حلواً ،
فرضيت هوان النفس .
حين رأيت الطين يلوث قدمى ،
لم أتراجع ،
لم أغسل قدمى فى ينبوع التوبة ،
وتدانيت ،
فى الوحل ، رأيت الناس تمر

فنزلت إليهم ، وسبحت
في قلب بحور الشر .
يارب
إني غمرت قلبي في طين النجاسة ،
وأحنيت هامتي لسلطان الشهوة ،
غطت الأوحال أرض واقعي ،
وملأ الدخان أجواء تطلعاتي ،
وشوهت الخطيئة صورة البراءة
الأولى في أعماقي ،
وتشردت نفسي في صحراء ضلالي .
وخسرت جنتي ،

والآن ..
طهر قلبي ، قدسني ،
أغسل نفسي من أوحال الشر ،
إجعل روحك القدوس
يحرق زيف إيماني الكاذب .
فإذا أردت أن تعيدني إلى جنتك ،
إلى أرض حضورك ووجودك ،
فأكشف لي كيف أعود
إلى حياة القداسة ،
التي بدونها لا يراك الإنسان .
إنتشلني الآن من بيئتي الملوثة
وأنقلني إلى أجواء البر

يارب .

٣٧ - مبادئ إنسانية ..

حين نكذب على الناس نخسر ثقة الناس ،
حين نكذب على نفسك تخسر نفسك ذاتها !

قالوا عن الكذب :

- د . حسين مؤنس : " الكذب هو أساس قانون الحياة فى الغابة ، والصدق أساس الحياة فى مجتمع الحضارة " .
- ميخائيل نعيمة : " من كذب عليك مرة كيف تأمن جانبه ما دمت لا تدرى متى يصدق ومتى يكذب " .
- " الصدق صعب .. الكذب أصعب " .
- " إكذب على الآخرين تحدث بلبلة .. إكذب على نفسك تحطم حياتك ! " .
- محسن محمد : " شيئان متساويان : الأكذوبة الكاملة ونصف الحقيقة ! " .
- أ. يوسف مظلوم : " كثير من الناس لديهم المهارة أو الذكاء أو الحيلة ، أو لديهم هذه جميعها ، ولكنهم يفتقدون الصدق ، فلا تغنيهم عنه شيئاً " .
- د . هارون بيك : " الكذب لا يحل المشكلات ، بل يزيدها تعقيداً " .
- م . باسيليا شلنيك : " علينا أن نقاوم الكذب ، فليس له أى حق فى أن يبقى فى حياتنا " .
- مثل سائر : " لسان الكذاب ينشر الضلال ، ويخلط الحرام بالحلال " .
- د . يحيى الرخاوى : " جيوش الزيف تلبس حللاً براقة ، ولكن مدافعها لا تحوى إلا الذخيرة الفاسدة " .

لم يحترم التاجر الفرنسى مبادئ الأخلاق ، فقد أعماه الجشع ، فارتكب جرماً عظيماً حين إستغل براءة الهنود الحمر ، فأقنع شيخ القبيلة أن لديه بذوراً سوداء دقيقة جداً ، يمكنهم زراعتها فى مساحات واسعة ، فتأتى بمحصول وافر ، ويجعل

الأرض خصبة غنية . وأضاف التاجر قائلاً إن هذه البذور غالية جداً ، ولكنه - حباً لهم - سيقدمها فى مقابل أشياء عينية مما لديهم كالذهب والفضة والعاج .

وإستطاع التاجر المخادع أن يجمع مدخرات القبيلة فى مقابل أكياس كبيرة من البارود ، تسلمها الهنود شاكرين فضله عليهم ، حالمين بمحصول وفير ! .

ونثر الرجال مسحوق البارود الأسود على وجه الحقول ، وإجتهدوا فى العناية بالأرض والسهر على فلاحتها ، لكن إنتظارهم طال وطال ، ولم تنبت الأرض شيئاً ! .

وأدرك شيخ القبيلة أن التاجر الفرنسى قد خدعه ، فالتزم الصمت والترقب ، ودعا أفراد القبيلة إلى الإنتظار الهادئ إلى أن يعود التاجر يوماً ، فالمجرم لابد أن يعود إلى موقع الجريمة .

ولم يعد التاجر ، بل عاد شريكه خفية ليبيع للناس ما جلبه بما لهم من أرض الحضارة ! .

وأقبل الهنود على شراء البضاعة الفرنسية ، أخذوا كل ما كان لدى التاجر من السلع الغالية ، والثمن الذى حدده دون مناقشة ! . غير أنهم إستسمحوه فى إمهالهم بعض الوقت قبل دفع الثمن . وقال زعيم القبيلة للتاجر فى دهاء :

" أنت تعلم يا سيدى أننا زرعنا مساحات واسعة بالبارود ، وأنها ستأتى كما قلت لنا بمحصول وفير ، فأصبر علينا قليلاً حتى نجنى المحصول ، وحينئذ سنوفيك حقك " .

وأدرك التاجران أنهما فقدا المال والسوق والثقة والإسم ، وكان عليهما أن يهربا قبل أن يفقدا حياتهما أيضاً ! .

إن حبال الكذب قصيرة جداً ، فالكذب لابد ينكشف فى وقت قصير ، ويترك خلفه أثاراً سيئة ! .

للكذب ألف شكل وشكل !

يختلف الناس فى تقدير الكذب . فما يراه أحدنا كذباً صريحاً ، قد يراه آخر نوعاً من الحكمة أو اللباقة ... إلخ .

وأقصر تعريف للكذب ، وأبسط تحديد له ، هو أن يقول الإنسان ما هو مغاير للصدق ، أو يفعل ما هو مخالف للحق ، فى كثير أو فى قليل ، سواء أكان عن طريق القصد والعمد ، أو عن طريق المغالطة والمراوغة ، أو المبالغة ، أو التضليل ! .

فمن أشكال الكذب ما يلى :

- الصمت وإخفاء الحق .
- إظهار نصف الحقيقة .
- التهويل والمبالغة .
- ترديد كلام غير مؤكد .
- التغطية والتمويه .
- تحريف المعنى .
- التورية والإيهام والتعريض :

وهو نوع من الكذب المتعمد ، يقول فيه الكاذب كلاماً يوحى ظاهره بغير معناه أو يطلق لفظاً له معنيان - قريب الظاهر ، وبعيد خفى . والكاذب يوجه سامعه للمعنى القريب المتبادر ، فى حين يريد البعيد الذى لا يخاطر بالبال ! .

- إختلاق الأحداث :

هذا هو الكذب الصريح . الخطيئة السافرة بلا غطاء . إنه سوء النية ، وإضمار الشر . يمارسه كذابون مدربون أو مبتدؤن خائفون .

كذب وأخواتها !

قرأت عن عصابة من اللصوص إستطاعت أن تدخل الكثير من المنازل دون أن تحطم باباً أو تكسر نافذة ! ، وتحير رجال الأمن زمناً ، حتى إكتشفوا أن العصابة تضم قزماً صغيراً ضئيل الجسم ، ينسل إلى داخل البيوت من خلال النوافذ الضيقة وفتحات التهوية . ومتى صار داخل البيت فتح المزاليج من الداخل ، ليندفع إلى المنزل كبار اللصوص ! .

والكذب هو ذلك القزم الصغير ، إنه يفتح الباب لجبابرة الخطايا التى تندفع خلفه ، فتفسد الحياة كلها ! .

فللكذب إخوة من جنسه ؛ **فالكاذب يجد نفسه مضطراً أن يكذب ألف كذبة وكذبة ، لتبرير كذبته الأولى ! .**

وله إخوة من غير جنسه يفسح لهم الباب مضطراً ! ، فحين ينكشف خداع الكاذب ، قد يلجأ إلى العنف والتحدى ، بل وقد يلجأ إلى القتل . فمن أجل إخفاء كذبه تسوّد وجوه كثيرة ، وتحترق قلوب كثيرة وتتلطخ سير أبرياء كثيرين .

ما أبشع " كذب وأخواتها " إنهن يرفعن الأدنياء ويصلبن الأبرياء ! .

إن الكذب على صغره ، هو نافذة الشر على حياة البشر ! .

أخطر الكذب !

لكن أخطر الكذب هو أن يكذب الإنسان على نفسه ! .

فالإنسان حين يكذب على الناس يخسر ثقة الناس ، وحين يكذب على نفسه يخسر نفسه ! .

فهل يكذب الناس على أنفسهم ؟ نعم ، كثيراً ما يفعلون .

ولعل أشهر ثلاث كذبات فى حياة الناس يكذبونها على أنفسهم هى :

- **أن يدعى أحدنا أنه برئ لم يرتكب خطيئة فى حياته .**
- **أو أن يدعى أنه قادر بقوة إرادته أن يعيش صالحاً منتصراً على جميع ميوله وغرائزه .**
- **أو يدعى أنه حين تنتهى سنين عمره ، سيقف أمام الله مطمئناً بسبب أعمال الخير التى عملها على الأرض .**

هذه الكذبات الثلاث تتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل ، وهى تخدع النفس ! ويريد الإنسان أن يصدق نفسه وهو يرددها . ويحاول كل البشر تبريرها ، رغم أن الحقيقة الظاهرة تشهد بغير ذلك .

● فمن حيث ماضى حياتنا ..

نحن نعلم أن كل واحد فينا قد أخطأ عشرات المرات فى السر والعلن والنية ، وسقط مئات المرات فى شهوات نفسه الأمارة بالسوء سواء كان مدركاً أو ساهياً ! .

ومن يدعى لنفسه براءة الملائكة يكذب على نفسه ! .

● ومن حيث الحاضر ..

فنحن نعلم كم تضاءلت إرادتنا ووهنت عزيمتنا أمام غرائزنا وشهواتنا آلاف المرات . وكم سقطنا فى جحور الخطيئة سراً وأخفينا خطايانا . إن الخطيئة ساكنة فى أجسادنا ، قادرة وقاهرة لنا ، وكل قتلى الخطيئة كانوا أقوياء .

● من حيث مستقبلنا الأبدى ..

فنحن نعلم بضمائرنا وعقولنا أن الله قدوس لا ترى عينه الشر ، وهو ساكن فى نور من نور وسط أجواء القداسة والطهارة المطلقة ، فكيف نقف أمامه بصلاحنا المهلهل ، وسلوكياتنا الناقصة ، وحياتنا الملطخة ؟ ! .

إن رجاء قبولنا عند الله فى سمائه على أساس صلاحنا ، هو رجاء كاذب وخدعة ذاتية ، وهى أخطر ما نكذب به على أنفسنا ! .

إننا حين نكذب على الناس ، نخسر ثقة الناس فنخسر دنيانا ، لكننا حين نكذب على أنفسنا ، نخسر أنفسنا ذاتها ، فنخسر آخرتنا ! .

كم نحتاج إلى صدق مع النفس ، تتبعها صلاة إعتراف وتوبة وإبتهال بين يدى الله .

كم نحتاج أن نعترف بخطايا الماضى بلا تغطية أو إخفاء أو تبرير .

كم نحتاج أن نعلن أمام الله عجز إرادتنا ، وإنهيار عزيمتنا ، وضعف حاضرنا .

كم نحتاج أن نسكب الدموع ، ونمزق القلوب بين يدى الله ، ليكشف لنا سبيل النجاة من عقاب خطايانا ، وطريق التطهر من آثام نفوسنا ، حتى نمتلئ بيقين روحى صادق يجعل نفوسنا مطمئنة بحق مستندة إلى وعد الله لا إلى خداع الذات .

يارب
سامحنى ، فقد كذبت عليك ،
سامحنى ، فقد كذبت على إخوتى ،
وسامحنى ، فلقدكذبت على نفسى أيضاً !
كدت أصدق أنى شخص صالح ،
فلقد شجعنى أن الشر
قد لوث كل الناس !
وحياتى مثل جميع الناس !
كدت أصدق أنى
صاحب عزم لا يتزحزح ،
وبأنى سأشق طريقى نحو رضاك ،
بقوة عزمى الصامد ،
وإرادة نفسى الفولاذية ،
وإذا بى أرزح مثل العبد
مكتوف مقهور اليد ،
والشر يعربد فى صدرى
مثل الطوفان الجامح ، مثل السد
بل كدت أصدق أنى ..
وبنفس راضية مرضية -
أدخل جنات الخلد !
سامحنى :
إمنحنى غفراناً لخطايا ماض أسود
إمنحنى قوة روح
لحياة طاهرة تتجدد .
إمنحنى خلاصاً أبدياً ،
ويقيناً لحياة أمجد .
يا رب .

٣٨ - مبادئ إنسانية ..

ما أقل الأشياء التى يشتريها المال
وما أكثر الأشياء التى يضيعها !

قالوا عن المال :

- " يزداد إحساسك بالقلق فى حالتين : عندما تجمع أكثر مما تنفق ... وعندما تجمع أقل " .
- " المال لا يشترى الأصدقاء ... ولكنه يحدد لك طبقة عالية من الأعداء " .
- " دلونى على إنسان لم يفسده المال " .
- " المال ليس كل شئ ، ولكن بعض الناس إذا جردتهم من المال لا يبقى لهم شئ " .
- " المال يقود إلى الغرور ، ومن الغرور للخطيئة " .
- محسن محمد : " لا تنفق رأس مالك ، الكلب لا يأكل ذيله " .
- هنرى وارد بيتشر : " صاحب الرصيد الضخم فى البنك ليس دائماً غنياً ، فالإنسان غنى بقلبه وليس بماله . الثراء هو من أنا وليس ماذا أملك " .
- سانت بول : " لقد دخلنا العالم بلا شئ وواضح أننا نخرج منه بلا شئ " .
- " متى يكون المال حسناً ؟ إن من لا يملك المال يتعب فى السعى إليه ، ومن يملك المال يتعب فى المحافظة عليه ، ومن فقد المال يتعب فى إسترداده ، ومن إسترد المال يتعب فى تخزينه وحراسته " .
- هـ . و. لونجفيلد : " من زاد ماله تهدده الخسائر ، ومن قل ماله تهدده الحاجة ، ومن ضاع ماله يهدده اليأس ! ، فمتى يكون المال راحة للبال " .
- بن فرانكلين : " المال لم يجعل إنساناً سعيداً ، ولن يفعل أبداً ، فليس شئ فى طبيعة المال ينتج السعادة ، فكلما إمتلك الإنسان من مال كلما زاد طلبه عليه . فبدلاً من أن يملأ الفراغ ، فإنه يصنع الفراغ . بدلاً من أن يشبع الإحتياج فإنه يضاعف الإحتياج " .

فى ليلة من ليالى الشتاء الشديدة البرودة ، وفى شارع جانبى من شوارع مدينة لندن ، جلس السيد بيتس وحيداً داخل محله الصغير ، الذى يبيع الآلات الموسيقية .

كان الشارع خالياً من المارة - إذ لم يكن أحد يجروء على الخروج فى هذا البرد القارس ، إلا لحاجة لا تؤجل - لذلك لم يتوقع بيتس أن يأتى أحد إلى دكانه الصغير . لكن بيتس فوجئ بدخول رجل عجوز - يرتدى حلة قديمة ممزقة ، لا تكاد تستر جسده النحيل . ويطل من عينه حزن شديد ! .

وفى كلمات ذليلة قال الرجل لصاحب المتجر : لقد جئت لأبيع لك هذا الكمان العتيق ، إنه قديم لا يستحق شيئاً ، لكننى أكاد أهلك جوعاً ، فهل تتكرم بشرائه ، حتى أستطيع أن أبتاع شيئاً من الطعام ؟ .

وتناول بيتس الآلة القديمة ، وألقى للرجل بجنيه واحد ، أخذه شاكراً ، وإندفع خارجاً ليختفى فى برودة الليل .

وأمسك بيتس بالكمان القديم يعبث بأوتاره ، فما أن حرك القوس ، حتى تصاعد من الكمان القديم نغم قوى ساحر أثار دهشة البائع الخبير ! .

وبسرعة أوقد صاحب المحل شمعة صغيرة ، ونظر بتدقيق داخل الكمان ليقرأ الأسم السحرى لصاحبه : أنتونى ستراديفارى ، وتحت الإسم كتب التاريخ ١٧٠٤ ! .

وأدرك التاجر فوراً أن هذه الآلة القديمة ، هى الكمان الشهير الذى ظل مفقوداً لأكثر من مئة عام ، والذى ظلت غرف الموسيقى الأوروبية تبحث عنه بلا جدوى - فى كل مكان .

وإنتقل الكمان القديم من يد إلى يد ، حتى بيع بملغ مئة ألف جنيه استرلينى ! .

لقد ظل الكمان القديم فى يد رجل مفلس جائع سنوات كثيرة ، دون أن يعلم قدر الثروة التى يحملها ، فعاش فقيراً على حافة الهلاك ! .

ما أكثر ما يملك الفقراء !

كثيراً ما نظن أن المال الذى لم ندركه ، هو أفضل ما فى الحياة . وإذ تسيطر هذه

الفكرة على عقولنا ، فإننا نفقد إحساسنا بقيمة الأشياء العظيمة التى نملكها ، وهى أقرب الأشياء إلينا .

فالهواء الداخل إلى صدورنا ، والنور فى عيوننا ، والعمل اليومى بين أيدينا ، والخبز العادى فى أفواهنا ، حتى الأرض التى ندوسها بأقدامنا فتطعمنا ، هذه جميعها وعشرات غيرها ، نملكها نحن الفقراء ، وما أكثر ما يملك الفقراء - من دون المال ! .

إن الفقير الذى يملك النوم العميق فى العراء ، خير من الثرى الذى يملك الفراش الناعم - ومعه القلق ! .

والفقير الذى يأكل الخبز الجاف بشهية مفتوحة ، خير من الغنى الذى يملك طعاماً فاخراً لا تهضمه أمعاؤه ! .

إن بعض أصحاب العقول من الفقراء ، أكثر ثراء من أصحاب الجيوب المنتفخة ، والعقول الفارغة .

إن السعادة لا تبحث عن أصحابها فى القصور ، بل كثيراً ما تغمر البسطاء فى أكواخهم المتواضعة ! .

الذين يبيعون المال !

يندفع كثير من الناس وراء المال - يشترونه ، ويدفعون فيه ثمناً هائلاً ، هو كل العمر ، وكل الجهد ، وكل الراحة ! . ولا يدرك الكثيرون فداحة الثمن الذى يدفعونه مقابل جمع المال إلا بعد فوات الأوان . لذلك أوصى أحدهم أن يكتب على قبره : هنا يرقد " فلان " الذى ولد إنساناً ومات تاجر جملة ! . لقد أحس الرجل أنه فقد إنسانيته وهو يجرى وراء الكسب فى تجارة الجملة ! .

وعلى النقيض من ذلك ، فهنالك من يبيعون المال ، ويشترون ما هو أعظم من كل أموال الدنيا ! .

فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، إختطف المهاجمون البيض سيدة من العبيد مع طفلها الصغير ، حيث ألقوا بالسيدة بعيداً ، وباعوا الطفل لأحد السادة مقابل فرس من فرسان السباق .

وفى خدمة هذا السيد ، أقبل الطفل - رغم ضعف جسده - على الدراسة حتى حصل على درجة الماجستير فى الزراعة ، وصار رئيساً للقسم فى كليته ! ، وأصبح " جورج كارفر " عالماً شهيراً . وكان من الممكن أن يعوض أيام الفقر والحاجة ، ويحصل على ما يشاء من مال ، لكنه قرر ألا يبيع حياته بالمال ، بل يبيع المال بحياته الحافلة .

وعلى مدى ٤٧ عاماً ، كرس نفسه تماماً لخدمة الفقراء السود وتأهيل شبابهم لوجه الله والوطن . فلم يتعد دخله الشهرى على مدى سنوات عمره مبلغ ٢٩ دولاراً فقط فى الأسبوع ! ، إذ رفض أن يتقاضى أكثر من ذلك ، قائلاً إن لديه ما يكفى إحتياجاته القليلة ! .

الغريب أن المخترع العظيم توماس أديسون عرض على جورج كارفر أن يعمل معه مقابل ١٠٠,٠٠٠ دولار سنوياً كبداية تعيين ، لكن كارفر رفض العرض لأنه يريد أن يكمل رسالته فى رفع مستوى الحياة لفقراء الطلبة المنبوذين ! .

ما أكثر الأشياء التى لا يستطيع المال أن يشتريها . وما أكثر الأشياء التى يستطيع المال أن يضيعها ! .

- **يستطيع المال أن يشترى الفراش الوثير لكنه لا يمنح النوم ! .**
- **يستطيع المال أن يشترى الطعام الشهى لكنه لا يفتح الشهية ! .**
- **يستطيع المال أن يشترى الثياب الفاخرة ، لكنه لا يمنح الجمال ! .**
- **يستطيع المال أن يشترى الكتب النادرة ، لكنه لا يصنع العقول ! .**
- **يستطيع المال أن يشترى الدواء لكنه لا يمنح الصحة ! .**
- **يستطيع المال أن يشترى أدوات التسلية ، لكنه لا يمنح السعادة ! .**

جواز السفر

قال أحدهم : **المال جواز سفر إلى أى مكان فى الدنيا** . وأضاف أخر قائلاً : **إلا السماء ! .**

إن المال قد يفتح أبواباً كثيرة ، لكنه لا يفتح باب السماء ، فالذين يعشقون المال

لا يعبدون سواه وهو إله لا يملك لعبيده جنة أو نعيماً .

ما أسعد العيون التى تتطلع إلى السماء الصافية ، فترى الله خلف غيوم المادة ، وتدرك يقيناً أن الحياة الإنسانية فى ذاتها جوهر روحى أثمن من كل معطيات الدنيا .

فإن كنا نحيا فى قصر ، أو نبيت فى كوخ - فجميعنا ضيوف نرحل إلى حياة أخرى وراء حياتنا القصيرة . فهل نجد مكاناً لأرواحنا فى السماء ؟ هذ هو الثراء الحقيقى .

صرخة إنسانية

يارب ...
إنى أحتاج لبعض المال ،
لكن المال مخادع ماكر ،
بحوره مالحة لا تروى
حدوده صحراء مترامية ،
تتوه فيها بقايا إنسانيتى !
بريقه يغتال قناعتى .
ما اتعسنى ..

لو صار الذهب بديلاً لصفاء الروح ،
لو صار الذهب بقلبى بديلاً للإنسان !
ما أشقانى ..

لو صار اللون الفضى ستاراً ،
يغتال شفافية الرؤيا ..
من عين الإيمان !
أعلم أن المال
ليس طريق سمائك ،
فإرفعنى فوق المادة ،

إرفعنى فوق الزيف ،
إرفعنى فوق خداع الناس ،
وخداع النفس.
إمنحنى قلباً - يتطلع للأبدية ،
يدرك فيك يقين المجد ،
وطريق المجد ،
وحين تزول الأرض ،
وكل كنوز الأرض ،

يارب.

٣٩ - مبادئ إنسانية ..

كل نار لابد أن تنطفئ ،
وتظل نار الشر تحرق القلوب !

لم يكن أسوأ طالعاً من " أم السعد " إلا بطتها السوداء ! بل ربما كانت البطة أوفر حظاً ، فهى على الأقل ماتت وإستراحت ، أما " أم السعد " فإن متاعبها تتكاثر يوماً بعد يوم ، فأهل القرية لا يرحمون ضعفها ، والأطفال يتبعونها أينما مضت ، ويسبونها بأقبح الصفات .

و " أم السعد " فلاحة مصرية ، عاشت سنوات عمرها تمارس حياتها اليومية فى هدوء وصبر داخل بيتها الصغير ، الذى لا يختلف عن أى بيت فى القرية . فبيوت الريف جميعها متشابهة تماماً ؛ فهى تتكون من حجرة واحدة للنوم والمعيشة ، تتصل بغرفة أخرى تستخدم كحظيرة للحيوانات وعشة للطيور . ويقع فى أحد أركان البيت " الفرن " الذى تعد فيه أرغفة الخبز البلدى كلما تيسر لها الدقيق .

ويوم " الخبيز " ليس يوماً عادياً مثل كل الأيام ، بل هو يوم متميز ، تحتفل فيه الأسرة بتناول الخبز الساخن مع حساء العدس ، فضلاً عن البيض الطازج والجبن . وما أسعده من يوم فى حياة البسطاء ! .

غير أن يوم السبت الأول من شهر أمشير الماضى ، لم يكن كغيره من أيام الخبيز ! . فشهر أمشير هو أحد الشهور القبطية الذى تثور فيه الرياح والأتربة . وفى ذلك اليوم أشعلت أم السعد نار الفرن لتجهيز الخبز . فإذا برياح أمشير تحمل النار إلى عشة الدواجن . وتهتاج البطة السوداء حين تمسك النار بريشها الطويل ، فتطير سريعاً لتندس فى كومة التبن ، الذى يتطاير بدوره ليشعل القرية كلها .

فى ذلك اليوم الحزين ، فقد الجميع بيوتهم وممتلكاتهم ، أما " أم السعد " فكانت خسارتها فادحة جداً ، فقد إتهمها الجميع بالإهمال والقصور . وإستباح الصغار كرامتها ، فصاروا يتبعونها أينما ذهبت ، ويذرونها بالتراب ، وينادونها بالملعونة ، أو المجنونة ، أو غير ذلك من اللعنات القاسية ! .

مسكينة " أم السعد " فالنار التى إشتعلت يوماً وإنطفأت فى كل البيوت ، لم تزل متقدة فى صدر الفلاحة المسكينة ، لا تهدأ ولا تنطفئ ! .

النار فى الصدور

كل نار نعرفها لابد أن تنطفئ يوماً ، حين ينفد الوقود . لكن النار التى تشتعل فى قلوب الناس لا تنطفئ . وما أكثر النار فى الصدور ! .

فالغضب نار ، والحقد نار ، والغيظ نار ، والحسد نار ، والغيرة نار ، والشهوة نار ! وجميعها نيران متقدة فى الصدور ، لا تهدأ ، ولا ترحم ، ولا تنطفئ ، ولا تنام ! .

والنار الكامنة فى الصدور لا تشبع ، فهى وإن بدت يوماً ساكنة خامدة ، فإنها فى حقيقتها ملتهبة كالجمر الحارق - تمتد وتنتشر تحت السطح البارد ، إلى أن تقوض الإنسان من الداخل ، وتهدم سلامه النفسى وعلاقاته الإنسانية .

الكثير من الجرائم والحماقات التى يرتكبها أناس عقلاء ، هى نتيجة نار فى القلب ، ألهبت مشاعرهم ، فإندفعوا بلا عقل يرتكبون حماقات طائشة ! .

فالغاضب قد يقتل أخاه ، والطامع قد يسرق صديقه ، والحاقد الحاسد يشوه سمعة جيرانه أو زملائه ، ويتعمد الإضرار بهم ، لعل ذلك يطفئ نار حقده وحسده ! .

وتمر الأيام ، ويفنى الحاسد والمحسود ، والظالم والمظلوم ، والغالب والمغلوب ، وتبقى النار المتقدة ، الخطيئة الكامنة ، ألسنة الشر المتصاعدة .

نيران الشر الكامنة

شاهدت فى طفولتى رجلاً يشعل النار فى قطع صغيرة من الخشب بقصد الإستدفاء . ولما كان هذا المشهد مثيراً لطفل صغير مثلى ، فإنى وقفت قريباً منه أتابع خطواته ! .

ورأيت الرجل يبنى قطع الخشب واحدة فوق الأخرى ، ثم يلقى عليها قطرات قليلة من الكيروسين ، ويشعل عوداً من الثقاب ، ويقربه من الخشب المبلل . فإرتفعت فجأة ألسنة النار إلى مستوى رأسى ! ، ففزعت وجريت ! .

غير أن الفضول أوقفنى لأرى ما سيحدث ؛ فأدهشنى أن رأيت الرجل هادئاً سعيداً ، يمرر يديه فوق ألسنة النار الصاعدة - بلا خوف ، حتى ظننت الرجل ساحراً ! . لكننى فهمت حين كبرت أن النار الحارقة ، هى تلك الكامنة عند القاع فى قلب الجمر ، أما الألسنة المتصاعدة فى الهواء ، فهى مجرد علامات خارجية تشير إلى وجود نار حقيقية فى الداخل .

وقد تعلمت من ذلك درساً مفيداً ، حين أدركت السبب الذى من أجله تفشل كل محاولات الإنسان لإصلاح ذاته من خلال تهدئة الإنفعالات والمشاعر ، وممارسة الأخلاقيات والرياضات الروحية ؛ فهذه جميعها تتعامل مع الشكل الخارجى - مع المظهر - مع ألسنة النار الصاعدة فى الهواء ، لكنها لا تقترب من النار الحقيقية المتقدة كالجمر فى داخل القلب .

" فطبيعة الشر " هى مصدر خطايانا ، ومنبع شرورنا الدائم الذى يغذى يومنا بالشهوة والحقد والأنانية والغضب ! . أما جميع ما نرتكبه فى حياتنا من آثام ، فهو مجرد ألسنة الدخان التى تعلن عن النار الحقيقية المتأججة فى الداخل ! .

ولذلك - فنحن نخفق حين نحاول أن نطفئ ألسنة اللهب ، أو نطارد سحابات الدخان ، لأن النار تظل مشتعلة ، والقلوب تظل مكبوتة ، والشهوة تبقى متجددة ! .

إن طبيعة الشر التى فينا هى الجمر المتوقد ، فلا خلاص من الشر ما لم تحاصر جذوته الكامنة فى القلب .

إننا نحتاج إلى حكمة رجل الإطفاء الذى يقتحم النار الهائجة فى الهواء ، ويتجاوزها متجهاً إلى الداخل ، ليحاصر النيران المتقدة فى العمق ! .

ولكن .. هل نستطيع ؟

فى مرات كثيرة ، لا يحتاج الإنسان إلا إلى عزيمة قوية ليفعل أشياء صعبة ، وقد ينجح فى ذلك مراراً .

غير أن العزيمة القوية لا تكفى وحدها لحل جميع المشكلات .

فإننا نحتاج أحياناً إلى قوة خارج أنفسنا ، وذلك حين يكون الداء قد أصاب طبيعتنا ذاتها .

وهذه هى حالة الإنسان - أى إنسان من بنى البشر - **فلقد أصاب الشر طبائع الناس ، أى أن الشر صار ميلاً طبيعياً ورغبة فطرية فى أعماق البشر . فالإنسان قد يرفض الشر بعقله وإدراكه ، لكنه يسقط فيه بإرادته المهزومة .**

إن النار إذا اشتعلت فى بيت خشبى مدهون بالزيت ، فإنها لا تتوقف حتى تأتى عليه تماماً . وليس منطقياً أن نتصور أن مثل هذا البيت قادر أن يطفئ نفسه بنفسه ! فهو - وإن أراد - لا يستطيع ! . وكذلك الإنسان ، الذى يحاول إطفاء نيران الخطيئة والشر فى قلبه بقدرته الذاتية فإنه يقدم نفسه وقوداً للنار بلا جدوى ! .

من يطفئ النار ؟

فى أحد مراكز البحوث الخاصة بالغابات ، أجريت الأبحاث لإستخلاص مادة سائلة ، يمكن حقنها فى الأشجار ، فتمنحها مقاومة ضد الحريق ! .

وكانت التجارب الأولية تعتمد على رش السائل على الشجرة ، بحيث يغطى جذعها وفروعها وأوراقها جميعاً . وكان من عيوب هذه المحاولة أن السائل كان يتبخر سريعاً ، ثم تأتى الأمطار لتغسله تماماً .

وتوصل أحد العلماء إلى أسلوب أفضل ، يقوم على عمل ثقوب فى جزوع الأشجار قرب جذورها ، ثم يحقن السائل على عمق معين ، بحيث يتسرب مع العصارة التى تمتصها الجذور ، وينتشر فى كل أجزاء الشجرة حتى أطرافها البعيدة ! .

والواقع أن هذه التجربة تختلف تماماً عن تجربة الرش الخارجى ، لأنها لا تعتمد على التغيير الظاهرى ، بل هى - فى الحقيقة - تغيير داخلى لطبيعة الشجرة ذاتها ، إذ تحولها من مادة قابلة للإشتعال ، إلى مادة مقاومة للحريق .

وهذا هو ما نحتاجه تماماً ؛ **فإننا نملك طبائع بشرية ميالة للخطيئة ، ولا تستطيع إرادتنا أن تحمينا من السقوط فى الشر . وكل ما نحيط به أنفسنا من تأدب وتدين ومثل عليا ، يتبخر فى شمس الغواية ، ونار الشهوة ، فنعود نشتعل شراً حتى الفناء .**

وما نحتاجه هو تغيير داخلى ، يغير طبائعنا . نحتاج قوة تمنحنا سلطاناً على إرادتنا . وتطفئ نار شهواتنا المتقدة ، ورغباتنا الساقطة .

وهذه القوة المغيرة هى قوة روح الله القدوس ، التى تملأ القلب ، وتشع فيه النقاء ، وتخمد فيه جذوة الشر .

وعلى مدى التاريخ - عرف ملايين البشر ، هذا الإختبار الفريد ، حين غير روح الله حياتهم ، بينما تعذب الملايين أيضاً فى طريق المحاولات والإجتهادات والممارسات الدينية ، التى لم تغير القلب ، ولم تجدد روح الحياة .

وستظل القلوب المسكينة تتقد من الداخل بنار الشهوة ، والحقد ، والغضب ، وعذاب الضمير ، ما لم تترك عنادها ، وتخضع لصوت الله - الذى يستطيع وحده أن يطفئ النار . ويهب السلام .

صرخة إنسانية

يارب

فى قلبى نار متقدة :
تظهر ألسنتها أحياناً ،
فاثور ، وأغضب ، وأعتدى .
وتخبو نارها أحياناً ،
فاكتوى بها فى صمتى وخلوتى !
ويتصاعد دخانها أحياناً ،
فاختنق بهجير أنفاسى اللاهثة !

فالشهوة فى أعماقى - نار حارقة ،
والأنانية فى داخلى - نار جائعة ،
والحقد فى قلبى - نار آكلة ،
والغضب فى لسانى - نار ممتدة ،
والعذاب فى ضميرى - نار مستعرة .

ولقد كرهت الخداع والكذب ،
فعبادتى ، وتدينى ، وتهذبى ،
وأخلاقى -

جميعها أوراق صفراء جافة ،
جاهزة للحريق.
فأنا غصن جاف -
وسط أغصان جافة ،
وأنا شجرة يابسة -
وسط غابة مدخنة !

إنى أحتاج إلى روح قدسك ،
ليطهر خباثات نفسى.

أحتاج إلى نسمات رضاك
تطفئ لهيب قلبى.

أحتاج إلى ينابيع سلامك ،
تبرد جفاف عبادتى.

أريد تغييراً فى داخلى..

يارب.

٤٠ - مبادئ إنسانية ..

إذا كنا لا نغفر إساءات الناس القليلة لنا ، فكيف يغفر الله لنا ذنوبنا الكبيرة ؟ !

خرج العامل الفقير فى الصباح الباكر ، يسعى من أجل لقمة العيش له ولعياله الصغار . وظل يعمل فى الصباح ، والضحى ، والظهيرة ، وحتى غروب الشمس .

وفى المساء عاد الرجل مكدوداً ، يجر ساقيه حيناً ، ويجلس على حافة الطريق حيناً ، ليريح قدميه المجهدتين .

وأراد أن يختصر الطريق ، فاتجه إلى الممر المظلم بين إسطبلات الخيل التى يملكها أغنى أغنياء المدينة .

وفى داخل الممر المظلم أدركه الإعياء ، فأسند جسده النحيل إلى الحائط ، ووقف يلتقط أنفاسه اللاهثة بصعوبة بالغة .

وبينما هو على هذه الحال ، فاجأه صوت أجش ، يصرخ صرخات مرعبة ، وإلتف حوله عدد من الحراس الأقوياء الذين طرحوه أرضاً وإنهالوا عليه ضرباً وتعذيباً . وسمع صوت الرجل الغنى يزمجر ويهدد ، ويتهمه بسرقة الخيول ، ويتوعده بأشر العقاب .

وحاول الفقير المسكين أن يرد الإتهام عن نفسه دون جدوى ، فقد كان صوته واهناً ضائعاً ، وصوت الحراس قوى متجبر ، فإستسلم لصفعاتهم ودفعاتهم لجسده المكدود .

والحق يقال ، فقد كان شكل الرجل مثيراً للريب ، فشعره معفر بالتراب ، وخطواته بطيئة حذره ، وهو يسير فى الظلام يحمل فأساً فى ساعة متأخرة من الليل ، وهذه جميعها لابد أن تثير حوله الشكوك ! .

قال له الأمير فى قسوة بالغة : لابد أن أجعلك عبرة لكل اللصوص ! . ثم أمر أن تقطع يده ! .

وبالطبع فقد حاول الفقير أن يسترحم الغنى ، أو يسترق قلبه قائلاً إن الفقراء لا

يملكون غير أيديهم ، التى هى عدتهم ومؤهلاتهم ووسيلتهم للكسب ، وهى رأس مالهم وخزانتهم وقوت عيالهم ! .

لكن الغنى لم يرحم .

وتجرع الرجل آلامه ، وسلم لله أمره فيما أصابه ! . ومن غير الله عزاء للمقهورين ؟ .

حين إنقطع رزق الرجل كعامل فى المدينة ، هجر كوخه ، وإنتقل مع زوجه وأولاده ليحيا فى الصحراء ، يرعى بعض الماعز عند سفح الجبل ، ويحيا حياة ضيقة تتناسب وعجزه ..

ومرت سنوات كثيرة ، وبينما الرجل جالساً أمام الكهف الذى يأويه ، فوجئ بالرجل الثرى يسير فى ظلام الليل تحت حضن الجبل ، تائهاً مجهداً بعد أن ضل الطريق ، وإبتعد عن خيله وحراسه . فأسرع إليه ، وأمر زوجه بإعداد الطعام ، وتهيئه مكاناً للمبيت ، وإعتذر للغنى عن رقة حاله وقلة طعامه ، وترك الغنى ، وإنصرف ليبيت أمام الكهف حتى الصباح .

وفى الصباح قام الغنى وإغتسل ، وتناول الطعام الذى قدم إليه ، وخرج يحيى صاحب الدار ويشكره . فلما فعل ، وقف الفقير أمامه ورفع يده يرد التحية ، فإذا باليد المرفوعة بلا كف ! ..

وهنا تداعت الصور القديمة فى عقل الغنى الذى تذكر كل شئ عن مضيفه ، فامتقع وجهه ، وخاف وإرتعب ! .

وقال الفقير فى هدوء : لا تضطرب يا سيدى ، فلم أكن أود أن أزعجك بتذكرى ، فأنا رجل أعرف الله ! .

الغفران .. صعب !

من الصعب أن يغفر الإنسان لمن يسئ إليه ، أو يضر به ، أو بأهله ، أو بمصالحه أو بكرامته .

فالإنسان يميل بطبيعته إلى الإنتقام ، ورد الإساءة بما يفوقها ، فالعين بعينين ، والسن بسنين لو إستطاع إلى ذلك سبيلاً ! .

وحين يعجز الإنسان عن الإنتقام المباشر ، فإنه يتوجه إلى حين يستطيع ، ويظل حاملاً غيظه وحنقه حتى يتمكن من الإنتقام ! .

وإذا كان المسئ قوياً ، يستحيل علينا مواجهته ، فإننا ننتقم منه فى الخفاء ، بالتحريض عليه ، أو التشهير به ، أو بالدعاء عليه لنستمطر على رأسه غضب السماء ! .

وهذه جميعها صور مختلفة من الإنتقام ، وعدم القدرة على الغفران .

والأكثر من ذلك أننا **حتى لو تسامحنا ، لا نستطيع أن نحب أو نقبل أو نتعامل مع من أساء إلينا ! .**

أربعة أعداء للغفران !

حين تهدأ ثورة غضبنا ممن يسيئون إلينا ، فقد نفكر فى الغفران والتسامح .

ولكن هناك أربعة أعداء يحاربوننا ، ويعيقون تسامحنا ، هؤلاء الأعداء الأربعة هم :

● **الكبرياء :** وهى قوة هدامة تمثل العدو الأول للتسامح .

فالكبرياء تؤجج الغضب وتستثيره كلما خمدت جذوته ، مدعية أن الإنتقام كرامة ، والتسامح هوان ! .

إن الكبرياء تبعث فى داخلنا الرغبة فى الثورة من أجل إسترداد كرامتنا التى أهينت وهيبتنا التى سقطت ! .

والواقع أن التسامح يزيد كرامة الإنسان ، ويرفع قدره وشأنه .

● **الشيطان :** وهو قوة هدّامة خارج الإنسان ، تحرضه على مقابلة الشر بالشر ، والعين بالعين ! . وهى دعوة تلقى صدى جيداً فى قلب الإنسان الضعيف .

والشيطان يريد أن يشعل الدنيا ناراً ، وغضباً ، وحنقاً ، وكراهية ، وموتاً . فكيف لا يحارب روح الحب والغفران فى داخلنا .

إنه حاضر أبداً يلقن الألسنة كلمات السخط والغضب واللعنة ، ويوغر الصدور للحنق والمعاندة والإصرار .

- **إنتقاد المحيطين :** كثيراً ما يتعرض المتسامح لنقد شديد من المحيطين به ، الذين يحرضونه على رد الإساءة ، وإظهار القوة ، حتى لا يصبح ألعوبة فى يد أعدائه ، أو حائطاً وطيناً يدوسه الجميع ! .

فإذا لم يستجب لهم ، إتهموه بالضعف والجبن ، والخوف ، وإنعدام الكرامة ! .

- **عدم تجاوب المسئ :** وهذه عقبة رابعة فى طريق التسامح ، فكثيراً ما لا يتجاوب المسئ مع روح الغفران ، ولا يستطيع أن يرتفع إلى مستوى المتسامح .

عوامل تساعدك على الغفران

بالرغم من صعوبة الغفران ، وبالرغم من الميل الطبيعي للإنتقام ، فإن هناك بعض العوامل التى قد تساعد على إتخاذ موقف إنسانى أفضل :

- **حاول أن تجد عذراً لمن أساء إليك :** فربما يكون قد أساء إليك تحت ظروف نفسية قاسية ، أو يكون قد خدعه أحد ونقل إليه معلومات خاطئة عنك ! .

- **إهزم كبرياءك :** تذكر أنك بشر ككل البشر ، تصيب وتخطئ . وربما أخطأت إلى آخرين وأسأت إليهم من قبل بأكثر مما أسئ إليك ! .

تذكر أنه كان من الممكن أن تفعل ما فعله الطرف الآخر لو أنكما تبادلتما الظروف والمواقع ! .

أذكر أنك لست بلا خطيئة ، فلا ترجم الخطاه بحجر .

- **غير فكرك عن التسامح :** لا تظن أن التسامح ضعف ، فالتسامح دليل نضج ، ووعى ، وضبط للنفس ، وقوة إرادة ، وإتساع أفق ، ونظرة شمولية للحياة ! .

إن الإنتقام هو سقوط فى شبكة الذات ، أما الغفران فهو إنطلاقة فوق الذات .

لذلك فالمظلوم حين يغفر للظالم ، يكون أكثر منه قوة ، وأرفع منه شأناً .

- **أطلب من الله قوة الغفران :** إن القدرة على الغفران ، لا تدخل فى ملكات النفس الطبيعية ، لذلك نحتاج إلى قوة من السماء لتقهر فينا روح النقمة ، وتملأنا بروح الغفران .

إن الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يقدر أن يغفر للمخطئ إليه ، ويمنحه نور شمسه وخير عطاياه ، لأن طبيعة الله هى الحب والغفران ، كما أن طبيعتنا هى الغضب والإنتقام . لذلك فهو وحده يمنحنا قوة لنغفر ، وننسى الإساءة أيضاً .

وليغفر الله لنا

هناك قصة عن رجل غنى كان له خادمان ، فإستدان أحد الخادمين من زميله مبلغاً ضئيلاً من المال ، وفى ذات الوقت إستدان الخادم الآخر من سيده مبلغاً عظيماً.

ومرت الأيام ، ولم يقدر الخادم أن يسدد لسيده ذلك المبلغ الكبير ، فجاء إلى السيد ، وبكى ، وطلب أن يسامحه ، ولا يلقه فى السجن ! . فعطف السيد عليه ، وسامحه بمديونيته ، وأطلقه حراً .

ولكن هذا الخادم ، بمجرد خروجه ، ذهب إلى رفيقه ، وطلب إليه أن يرد المبلغ الضئيل الذى إقترضه منه ، فلما إسترحمه ليعفيه رفض ، وجره مع أبنائه إلى السوق ليبيعهم مقابل دينه ..

فلما علم السيد ، إستدعى خادمه هذا . وقال له : لقد رحمتك ، ونزلت عن المبلغ الكبير الذى أخذته ، **أما كان ينبغى أن تسامح رفيقك ؟ .**

إننا نسئ إلى الله فى كل يوم ، حين نكسر وصاياه ، ونهين شرائعه ، ونتغافل عن دعوته ، ونمضى فى طريق إبتعادنا عنه ، ولكنه سبحانه لا يحنق ، ولا ينتقم من الإنسان الضعيف ، رغم قدرته المطلقة أن يبيد الإنسان من وجه الأرض بكلمة من فمه ، لكنه على العكس يحنو علينا ، ويقبل عذرنا ، ويمحو آثامنا ، ويضمنا إليه فى حب متغاضياً عن جهلنا وحماقتنا . لكنه وهو يغفر لنا ، يود أن نغفر نحن أيضاً للمسيئين إلينا .

فإذا لم نغفر الإساءة البسيطة التى يسئ بها إلينا الآخرون ، لا يغفر الله لنا الذنوب الكبيرة التى نسئ بها إليه .

أغفر .. واطلب الغفران

إذا كنت لا تستطيع أن تغفر للآخرين ، وتتحمل إساءتهم .. فأنت تحتاج إلى قوة تساعدك ، وهذه القوة لا يمنحها إلا الله .

فاغسل قلبك أمام الله . إغسله من الأحقاد والنقمة ، سامح وإنس وإرتفع فوق غضبك .

أطلب من الله أن يغفر لك ما أسأت به إليه بعصيانك عليه سنيناً وأياماً ، وبإتباعك له بالقول لا بالقلب .

تذكر أن كل خطيئة تصنعها ، تسئ إلى الله خالقك القدوس .

أطلب تغييراً فى القلب ، حتى يمنحك الله قلباً يغفر . وأطلب أن يمتلئ قلبك من روح الله - روح الغفران ، فتحب عدوك ، وتحسن لمن يسئ إليك .

صرخة إنسانية

يارب

يا من تشرق على الجميع ،
بضياء وجهك وحبك .
يا من ترسل الأمطار ،
وتطعم الأخيار والأشرار -
من فضل عطاياك ،
علمنى أن أحب الجميع ،
وأغفر للجميع .
أحتاج أن تغير قلبى الحاقد ،
وطبيعتى القاسية ؛
فإمنحنى روحك القدوس ؛
فأحمل طبيعة حبك ورضاك .
إفتح عينى على آفاق واسعة ،
لأمتلئ من معرفتك .
فأكون إنساناً جديداً ،
غير الذى كان ..

يارب .

" ... وبعد أن يبدد الإنسان طاقاته الهائلة فيما لا يفيد ... ندركه قوة الله المجددة ! "

فى داخل أحد مصانع توليد الطاقة الكهربائية من مساقط المياه ، شاهد أحد الزوار عشرات من الآلات الضخمة ، التى تدور بسرعة شديدة ، وتصدر فى دورانها ضجيجاً مرعباً .

وعند خروجه من الموقع ، شاهد مساقط المياه التى تمتد إلى مسافة ميل كامل ، وتتدفق منها كميات هائلة من المياة الغزيرة .

وسأل الزائر مرافقه عن كمية الطاقة التى تستثمر من هذا الحجم الهائل من الماء ؛ فأجاب المرشد قائلاً : إن ما نستخدمه لا يزيد عن واحد بالمائة ، أما التسعة والتسعون فتنحدر نحو المحيط بلا فائدة ! .

- ما أكثر الطاقات التى تحملها الأمواج إلى الضياع ! .
- ما أكثر المتاهات التى تتبدد فى سراديبها طاقات البشر ! .
- ما أكثر السدود التى تحجز طاقاتنا ، وتعوّق انطلاقنا نحو تحقيق هدف الحياة ! .

لا تبدد طاقتك

الطاقة هى القوة ، والقدرة على بذل الجهد ، وإنتاج العمل .

ولقد وهب الله الإنسان طاقات ضخمة ، يستطيع أن يحقق بها مسئوليات الحياة . لكن الإنسان - عادة - يبدد طاقته فيما لا يفيد ! .

هناك قصة قديمة عن البطل الأسطورى سيسيفورس ، تقول القصة إنه إقتلع كتلة ضخمة من الصخر ، وإستطاع أن يدحرجها من فوق قمة الجبل إلى سطح الوادى ، باذلاً فى ذلك جهداً عظيماً ! .

لكنه عاد يدفع هذه الصخرة إلى أعلى الجبل ! ، وما كاد يصل إلى القمة حتى إنحدرت الصخرة نحو السفح مرة أخرى ! ، ليتبدد الجهد المبذول ! . كان الرجل يبدد طاقته ، ويستنفد قوته فى كل إتجاه ، ولو أنه وجه طاقته فى إتجاه واحد لحقق شيئاً يذكر ! .

وكل واحد منا يبدد بعض طاقته فى شئ ما - لا يعود بالفائدة على أحد ! .

ومثال لذلك نرى :

● الذين يلقون البذور الحية فى أرض بور :

كثير من الناس لا يعرفون تماماً ماذا يريدون تحقيقه ، وبالتالى ، فهم لا يضعون لأنفسهم منهجاً ، ولا يتبعون أسلوباً واضحاً ، ولا يبرمجون أوقاتهم .

وأغلب أولئك الناس ، يضيعون أيام العمر الغالية ، وطاقة الحياة ، يضيعونها فى السعى التائه بلا هدف ! . يقفون أمام كل نافذة ، ويطرقون كل الأبواب ، ويميلون إلى كل الطرق .

ومن خلال التيه والضياع ، وعدم الإلتزام بمناهج الحياة ، قد تتعثر الأقدام فى مزالق العادات الرديئة التى تتبدد فيها طاقاتهم ، كالسهر ، والتدخين ، والإدمان ، والعبث ، واللهو ! .

إنهم يبذلون جهداً ، ويبذرون بذوراً حية - هى طاقاتهم الغالية ، ولكنهم يبذرونها فى أرض بور - تموت فى جوفها البذور - وتتبدد الطاقات .

● الذين يبددون طاقاتهم فى الصراع والخصام والقتال :

لعل من أشهر حيل الشيطان للكيد لبنى البشر - محاولاته الدائمة ، لإثارة الأحقاد والخلافات بينهم .

وقد يتحول الخصام إلى قتال ، فتفنى الأجساد ، وتخمد القوى .

وما نراه من حروب قائمة بين الدول المتجاورة - ما هى إلا إستنفاد للقوى ، وتبديد للطاقة ، التى - لولا الصراع - لكانت مصدراً للخير لصالح الجميع .

● الذين يحبسون طاقاتهم فى قماقم الأحزان :

يستطيع بعض الناس أن يواجهوا الألم بقوة وعزيمة وصبر ، فيرتفعون فوقه فى

عزة وإنتصار . لكن أغلب الناس يصعقهم الحزن ؛ فيمزقهم ، ويحطم جوانبهم ، ويصدّع أركانهم ، فتتبدد قواهم ، وترتخى أياديهم ! .

إن الحزن سجّان قاس ، يقيّد طاقات الخاضعين ، ويبدّد آمالهم ، ويكسر أجنحتهم ، فينطرحون - خائرى القوى - على شطوط الحزن ! .

حرر طاقتك ..

فى إحدى الجامعات الأمريكية فوجئ المسئولون بإنقطاع المياه عن مبانى الجامعة . وبذل عمال الصيانة جهداً كبيراً فى محاولة إستكشاف السر وراء الإنقطاع المفاجئ ، ولكنهم لم يجدوا عيباً يذكر فى الخطوط الداخلية .

وقام مرفق المياه بالمدينة بدراسة الشبكات الأرضية ، وفحص التوصيلات ، إلى أن إكتشفوا السر . ولم يكن السر سوى وجود جسم كبير لعلجوم (ضفدع جبلى) ضخم ، محشوراً فى مدخل " الماسورة " الرئيسية التى تغذى الجامعة بالمياة ! .

وقال خبراء " البيولوجيا " إن هذا الضفدع لا يمكن أن يصل إلى هذا الموقع وهو بهذا الحجم ! ، فلابد أن يكون قد أخذ طريقه داخل الأنابيب وهو بعد " ذنيباً " صغيراً ، ثم كبر حتى صار سداً يمنع تدفق المياه ! .

ولعل هذا يحدث أيضاً فى حياتنا ، حين تتسرب إلى إرادتنا أجسام صغيرة ، تنمو لتصبح عائقاً يعطل قوانا ، ويقيد طاقاتنا .

وعلينا أن نطلق هذه الطاقات المقيدة ، ونحررها ، ننتزع كل السدود والحواجز التى تعطل إنطلاقنا .

ما يفوق طاقة البشر

لكن هناك أشياء فوق طاقة جميع البشر ، إذ لا تدخل فى حدود إمكاناتنا الطبيعية . فقد خلق الله الإنسان محدود الطاقة ، حتى لا يتجبر ، فيضر بنفسه ويؤذى الآخرين ! .

ولكن الله فى رحمته وحبه لبنى البشر جعل للإنسان باباً مفتوحاً ، يستطيع من خلاله أن يلجأ إلى قدرة الله - لتفعل ما لا يستطيعه البشر ! .

وقوة الله تنتزع من حياتنـا السدود التى لا نـستطيع نـحن أن ننزعها . وقـوة الله ترفعنا بأجنحـة القدرة الإلهيـة إلى موقـع رضا الله الذى لا نستطيع نـحن أن نبلغه بقوتنا .

فهناك سد منيع فى حياة كل واحد فينا يمنع عنه بركات الله - هو " سد الخطيئة " ، السد الذى يغلق وريد الحياة ! .

فالخطيئة فى قلوبنا تعطل تدفق الطاقة ، وتجعل الإنسان عاجزاً مشلول الإرادة . فهو بعقله يريد أن يعبد الله ، لكنه بإرادته عاجز عن ذلك ، مغلوب بشهواته وميوله البشرية . فتأتى عبادته روتينية جافة ، وتظل روحه جائعة عطشى ، لأن " علجوم الخطيئة " يسد منافذ المياه إلى نفسه الظامئة .

وقوة الله لا ترفع السدود فقط ، لكنها تمنح الإنسان طاقة جبارة ، هى قوة الروح القدس - روح الله - القوة المطهرة ، التى تجدد الإنسان ، وتهبه مبدأ الحياة والخلود .

ويستطيع الإنسان - أى إنسان أن يلجأ إلى الله معترفاً بعجزه وضعفه - ليطلب هذه القوة التى تؤهله للحياة الأبدية .

إمتلك طاقة الحياة

أمسك أحد علماء " البيولوجيا " بحبة صغيرة ، وقال : هذه الحبة تحتوى على كميات ضئيلة من الأيدروجين والنيتروجين والكربون . وأنا أعرف تماماً النسب التى تتكون منها ، وأستطيع أن أصنع فى معملى حبة تشبهها تماماً ! ، لكن الحبة التى سأصنعها لا يمكن أن تنبت إذا غرستها فى الأرض ، بل تتحلل ، وتمتص التربـ محتوياتها ؛ على عكس الحبة التى خلقها الله ! ، والسر أن حبة الله تحتوى على سر الحياة الغامض - أو ما نسميه ب " مبدأ الحياة " .

إن الحبة الصغيرة ، التى لا تكاد تراها العين تحمل القوة التى تفجر فيها الحيا الجديدة ، وتطلق من جسمها اليابس عوداً أخضر ! .

ونحن نحتاج إلى تلك القوة عينها ، لتبعث فينا الحياة ، وتنبت فى أصولنا الميتـ غصناً ربيعياً نضراً ، ينبت إلى حياة أبدية .

يارب

وبرغم الجهد المبذول ،
وبرغم الإخلاص ،
فإننى أقف ضعيفاً عاجزاً -
لا أجد طريق الحياة.

ما أكثر الطرق التى بحثت فيها ،
وما أكثر النوافذ التى أطللت منها ،
ما أكثر الأبواب التى طرقتها ،
ما أوسع الدوائر التى أدور حولها -
ثم أعود - إلى حيث بدأت !

تتجدد أحلامى
من المساء للصباح ،
وتتبدد طاقتى
من الصباح للمساء !

كم أحتاج إليك !
كى تبعث فى روح القوة ،
كى ترفعنى فوق العجز -
وفوق الضعف ،
كى تطلقنى للحرية.
كى أعلو
فوق سدود الأرض -
فوق عباداتى الشكلية ،
فوق العادات الموروثة ،
والآراء الجدلية.

أحتاج إلى الروح القدوس
يخلقنى .. يملأنى .. يرفعنى
فوق الأطماع البشرية .
ويفجر فى قلبى الحائر
أبعاد حياة أبدية .

يارب .

٤٢ - مبادئ إنسانية ..

أقسى ألوان العبودية، نفرضها علينا خطايانا !

يوم جلس الملك الشاب على كرسى العرش ، فى بلاده الواسعة ، لم يكن يعلم ما تخبأه له الأيام . فبعد سنوات من الحياة المترفة ، دخل الحرب ، وأخذ أسيراً فى أرض الأعداء . وحين وضعت فى يده القيود ، تألم كثيراً ، ولكنه لم يكن يعلم أيضاً أن هذه القيود مجرد البداية ! .

وفى زنزانة السجن ، عرف لأول مرة فى حياته معنى الحياة المقيدة ، والحركة المحدودة ، والنوم على أحجار خشنة ، والهواء الفاسد الرطب ! . ولم يكن له أن يشكو أو يرفض ، أو حتى يطلب شيئاً ، فهو الآن مجرد عبد فى مملكة معادية ! .

الشئ الوحيد الذى خفف عليه مأساته السوداء كانت تلك النوافذ الصغيرة فى أركان الحجرة الأربعة . فمنها يدخل بعض الهواء وشئ من النور .

ونام الأسير ليلته الأولى على ضوء القمر . ولكنه إستيقظ فى الصباح ، ليجد فى الحجرة ثلاث نوافذ فقط ! ، وضاقت نفسه بالنافذة المغلقة ، لكنه صمت مرغماً .

وفى اليوم التالى وجد الأسير نافذتين مغلقتين ، وفى ثالث يوم لم تبق سوى نافذة واحدة ! ، وإبتلع الأسير المرارة فى حلقه ، وجلس مكتئباً .

وحين أشرقت شمس اليوم الرابع كانت النافذة الأخيرة قد أغلقت تماماً ، وأصبح الأسير غارقاً فى ظلام زنزانته الدائم ، فى ليل طويل لا يعرف له نهاية ! . وقيل له : إن على العبد أن يعيش فى الظلام ! .

آلام العبد

عرف العالم نظام الرق منذ زمن بعيد ، فى مختلف أرجاء العالم . وتجرع العبيد جميع ألوان الذل والهوان ، وعرفوا كل صنوف الألم :

- فالعبد غريب بلا وطن ،
- وحيد بلا أهل ولا بيت ،

- مستباح الكرامة والشرف ،

- ليس له حرية الإختيار أو الحركة ،

- يعيش بلا أمل ولا أحلام ،

- لا شأن له ولا قيمة ،

- معرض للضرب الشديد حتى القتل .

وكثيراً ما تعرض العبيد لصنوف من الأذى ، وضعها أناس قساة القلب متعطشون للدماء ، فكثيراً ما عومل العبيد معاملة الحيوان ، يسخرون للعمل فى أقسى الظروف وأخطرها ، بلا طعام ولا نوم ولا علاج . ومن يهاجمه المرض تدوسه الأقدام حتى يموت . فالعبد رخيص الثمن .

ألوان العبودية

والعبودية ألوان ، ولكنها جميعاً ألوان قاتمة شديدة السواد ، إبتدعتها ظلمة الإنسان وشروره على مدى التاريخ ، فهناك من صنوف العبيد :

● **العبد المهزوم :** وهو أسير الحرب فى المعارك القديمة ، فقد إعتاد الملوك المنتصرون أن يقيدوا أعداءهم المهزومين ، ويسوقونهم خلفهم حفاة الأقدام ، عراة الرؤوس - إلى العار والذل .

● **العبد المديون :** وكان هذا النوع من العبودية معروفاً بين القبائل الأفريقية ؛ فحين يعجز أحد أفراد القبيلة عن سداد ما عليه ، فإن صاحب الدين يأخذ الزوجة والأبناء رهائن لديه يفعل بهم ما يشاء . فإذا لم يقدر صاحبهم على الوفاء ، صاروا عبيداً دائمين .

● **وعبيد التسلية :** وهم نوع من العبيد البؤساء الذين إعتاد الأباطرة القدماء إستخدامهم فى الحفلات للتسلية ، فهم يدفعون إلى حلقات المصارعة لمنازلة الوحوش ، أو لمصارعة المبارزين الأشداء حتى يموتون بطعنات السيوف وسط تصفيق الجماهير ، كما يحدث فى حلقات مصارعة الثيران فى أيامنا - للأسف الشديد ! .

● **العبد المسروق :** وهم عبيد بؤساء ، أوقعتهم ظروفهم السيئة فى أيدى قراصنة

البحر ، الذين كانوا يغيرون على السواحل ويخطفون أقوى وأجمل الفتيان - يبيعونهم للأثرياء ، يستخدمونهم فيما يشاءون .

● **عبيد التفاخر :** ففى هذه الدنيا الظالمة ، أصبح الإنسان فى عصر من العصور يستخدم للزينة ، كقطع الديكور المتحركة . فقد كان إمتلاك حاشية كبيرة من العبيد علامة من علامات الترف والأبهة . فالأثرياء يشترون الفقراء ، ويقتنوهم كما يقتنون الأرض والبيوت والبهائم وغيرها .

● **والعبد المثقف :** وهو نوع متميز من العبيد يطلق عليهم العبيد المعلمون . وهم يستخدمون فى تربية وتعليم أبناء الطبقات العليا . لقد إستعبد الإنسان أخاه الإنسان جسداً ونفساً وعقلاً .

وهناك بعد ذلك صنوف كثيرة من العبيد ، كعبيد الدعارة ، وعبيد المنزل وعبيد الحقل ، وعبيد الأشغال الشاقة ... إلخ .

وما أكثر المنسحقين فى عالم الهوان ، فى أرضنا الباكية . وما أكثر المنكفئين فوق تراب الضياع ، الساقطين تحت أثقال الكبت المرهق ، الغارقين فى بحور اليأس والدموع ، المذبوحين بلا ثمن فى أسواق الضمائر الميتة ! .

عبودية القلب

لكن أخطر ألوان العبودية ، هى تلك التى تستعبد القلب . فالعبيد التقليديون فى الماضى ، كانوا ضحية العصور المظلمة ، التى لم تعرف قيمة الإنسان . وجاء عصر التنوير ليرد لهم حريتهم ويمنحهم حقوق البشر . ولم يعد أحد يجرؤ فى زماننا أن يستعبد إنساناً جهراً .

لكن العبودية السوداء التى تملأ أطراف الأرض فى كل الأزمنة هى عبودية القلب ، حين يصبح القلب خاضعاً لسيد جبار شديد القسوة ، يحركه كما تحرك الريح قصاصات الورق .

وعبودية القلب - عبودية روحية ، ليس فيها سجون وحوائط ، أو قيود وسلاسل مادية . لكنها تخضع معنوياً لجميع أشكال العبودية . والسيد المتسلط فيها لا يأتى من بعيد ، لكنه يسكن داخل القلب ! .

ففى عالم الروح - هناك أيضاً قراصنة أشرار يترصدون بنا ، فهناك كائن شرير هو إبليس ، يسعى لإستعبادنا والسيطرة على أغلى ما نملك : إرادتنا الغالية ، وحريتنا الروحية .

وهذه القوى الشيطانية الشريرة ، تستخدم رغباتنا وأطماعنا ، فتلهب فينا الشهوة ، وتشعل فينا الرغبة ، وتتلاعب بضعفاتنا البشرية ، حتى تصبح إرادتنا مهزومة أمام شهواتنا . ويسقط الإنسان الحر فى عبودية روحية مظلمة أشد فتكاً به من العبودية المادية .

فالإنسان المخلوق حراً ليعيش لله ، يصير عبداً لذاته ولشهوته .

● وحين يصبح الإنسان عبداً لخطاياه ، يتجرع كل أصناف الهوان ، ويفقد كل ملامح الكرامة الإنسانية :

- يصبح - فى بعده عن الله - غريباً بلا وطن ، وحيداً بلا أهل ،
- يتلاعب الشيطان بقلبه وفكره ،
- يصير بلا حرية ولا إختيار .

● وحين تستعبدنا رغباتنا الجسدية نعرف ألوان العبودية المختلفة :

- نصير كالعبد المهزوم الذى خسر معركة العمر .
- نصير كالعبد المديون الذى باع نفسه بثمن رخيص .
- نصبح كالعبد المسروق من مركزه ومجده الإنسانى .
- يتفاخر بنا إبليس وجيوش الشر حين يحركوننا كقطع الديكور فى مملكتهم البغيضة .
- نصبح كالعبد المثقف - يستخدم الشيطان عقولنا وذكاءنا فى أغراضه الملوثة .

العبودية لله وحده - كيف ؟

لقد عرفنا جميعاً صنوفاً من الشهوات ، وسقطنا جميعاً فى صنوف من الخطايا . وقليل من خطايانا يراه الناس ، لكن أكثره خفى عن البشر ، معروف لنا ، مكشوف أمام الله .

ولابد أننا جميعاً نذكر مرات كثيرة ، حركتنا فيها شهواتنا الداخلية نحو أحاسيس ، وأفكار ، وأعمال ، نخجل أن نعلنها .

وربما إستطعنا أحياناً أن نسيطر على إرادتنا ، ولكننا فى أحايين كثيرة - دفعتنا رغباتنا الجامحة إلى حيث لا نريد .

إن الشهوة حين تكتمل فى داخلنا ، تلد الخطية ، والخطيئة حين تملك تصبح سيداً قاسياً لا يطاق .

وكما كانت أجساد العبيد قديماً تسقط تحت أقدام السادة الجبارة ، كذلك نحن أيضاً - كثيراً ما ننسحق روحياً تحت ثقل خطايانا وشهواتنا الأرضية الفاسدة .

لكننا لا نحتاج إلى بطل يحرر العبيد فى عالم الروح . ولا نحتاج إلى زعيم يحررنا من عبودية القلب . ففى عالم الروح تموت البطولات البشرية ، وتنتفى قوة الإنسان . إن عالم الروح هو عالم الصراع بين قوى الشر والموت المرتكزة فى عمق طبيعتنا البشرية ، وقوة الحياة التى يبعثها الله فينا من روحه القدوس .

لذلك فتحرير القلب من الخطيئة والشهوة ، ليس جهداً بشرياً ، لكنه عمل إلهى .

والله يريد أن ينقذنا مما آلت إليه حياتنا الروحية من عبودية خفية للشر ، نعيشها فى السر ، ونعانى منها كل أيام العمر .

إن الله يستطيع أن يطلقنا فى أجواء الحرية ، وينتشلنا من أغلال خطايانا ، وقيود شهواتنا وعبودية أرواحنا . ليصبح هو وحده الرب المعبود ، والإله الذى له كل الخضوع والسجود .

صرخة إنسانية

يارب

يا من لك الخضوع

ولك السجود

ولك الطاعة

سامحنى ،

فقد جذبتنى شهوتى ،

فسرت وراء البريق .
كنت أظن أننى أمارس حريتى ،
واكتشفت - بعد فوات الأوان -
أننى كنت أساق إلى مهانتى .
إن خطاياى الرابضة فى أعماقى
هى التى تمسك الآن بزمام إرادتى .
إننى أقاسى ألواناً بغيضة -
من العبودية والذل .
تدفعنى خطيئتى إلى عالم غريب
بعيداً عن مسكنك .
تدفعنى بشهواتى إلى عالم مظلم
لا أبصر فيه نورك .
وليس من ينقذنى سواك !

إننى أفتقد يدك الحانية ،
فقد ثقلت علىّ يد الشر !
أريد أن أخرج من الفخ البغيض
الذى دفعتنى إليه طبيعتى الساقطة ،
وليس من يكسر الفخ سواك !
وليس من يحرر الأسير سواك !
وليس من يمنح الحرية غيرك !

أسجد أمام جلالك ،
فإبعث قوة من روح قدسك -
تحرق قيود الشر الساكنة فى قلبى .
وتطلق روحى فى حرية عبادتك .

يارب .

٤٣ - مبادئ إنسانية ..

قد لا يكون الإنسان ملحداً ،

لكن الإيمان لا يعنى مجرد الاعتراف بوجود الله

قالوا عن الإلحاد :

- إبراهيم المصرى : " إن إعتقادنا بما يقوله الملحدون بأن لا شئ وراء هذه الحياة ، فلابد أن هذا الإعتقاد سيخنق فى نفوسنا كل شعور بالسعادة ؛ إذ كيف لا يسمم طعم الرماد سعادتنا - مادام العدم هو مصيرنا ؟ ! " .
- " الملحد لا يرى الله ، كاللص الذى لا يرى الشرطى ! " .
- " البعض لا يؤمن بالله ، ومع ذلك ينتظر رحمته ! " .
- محسن محمد : " إذا كان هذا هو حال البشرية الآن ، فكيف يكون حالها بلا دين " .
- د . يحيى الرخاوى : " إذا إنتصر الملحد على أوهامه فى داخله ، آمن بنفسه ، فآمن بالله " .

ذهب أحد الملحدين لزيارة مصنع لأدوات التقطيع ، يديره رجل بسيط . ولاحظ الزائر أن صاحب المصنع قد وضع ملصقات كثيرة تشير إلى إيمانه بالله . فضحك فى سخرية وقال لصاحب المصنع : " أراك تؤمن بالأوهام ، مع أنك صانع مشهور وناجح ، كنت أظن أنك تحكم عقلك ، ولا تصدق ما لا تراه بعينيك ! " .

وأثارت هذه الكلمات دهشة الرجل ، وقال للزائر : " إنى أؤمن بالله لأنى - كما تقول - رجل عاقل . فإيمانى ليس وهماً ، إنه يرتكز على حقيقة أراها واضحة أمام عينى وهى أن الله موجود ، وهو الصانع الأعظم الذى أبدع هذا الكون الرائع الدقيق ، إن كل ما فى الوجود يشهد بوجود الله وعظمته " .

وهنا - قاطعه الزائر قائلاً : " إسمع إن هذا الكون لم يصنعه أحد ، لقد صنع

نفسه ، فربما بدأ بعناصر صغيرة مفككة ، ثم تقاربت وإلتحمت ، وإتخذت لنفسها مواقع ثابتة على مدى ملايين السنين ، حتى صارت على هذه الصورة من الدقة والإنضباط ! " . ثم نظر الفيلسوف بكبرياء وقال : " وبالطبع فإن هذا شئ لا يقدر أن يفهمه صانع بسيط مثلك ! " .

وإلتفت الصانع إلى منضدة قريبة ، وكانت إحدى العاملات تربط أجزاء صغيرة لسكينة لقطع اللحوم ينتجها المصنع . وقال الرجل : " إن العاملة التى تربط أجزاء هذه السكينة يتم تدريبها لمدة يومين فى تجميع وربط الأجزاء السبعة عشر . ومع الوقت تصبح قادرة على تجميع السكينة فى دقائق محدودة . هذا ما أعرفه تماماً ، لكنى على يقين بأن هذه الأجزاء لو تركت هنا ملايين السنين ، أو وضعت مثلاً فى غسالة الملابس لتقلبها نهاراً وليلاً إلى الأبد فإنها لا يمكن أن تتجمع وتترابط ثم تخرج لنا فى غلافها الأحمر مطبوعاً عليها إسم المصنع ! . لذلك فأنا على يقين أن أجزاء الكون لا يمكن أن تكون قد تقلبت على مدى ملايين السنين حتى إستقرت فى هذه الصورة المتكاملة ! " .

ملحد ... لماذا ؟

لماذا ينكر البعض وجود الله سبحانه وتعالى ؟ .

وحتى إذا لم يكن هذا الإنكار عقيدة يجاهرون بها - فلماذا يجد له مكاناً سرياً فى قلوب بعض الناس .

هناك صور كثيرة نستطيع أن نرى فيها سبب هذا الإلحاد منها أن :

- **الإلحاد جهل :**

وقف أحد الملحدين فى حفل غداء يدعو فيها الحاضرين إلى التخلى عن الدين ، ويتحدث ضد الله . ثم دعا الحاضرين لمناقشته . فتقدم أحدهم - وكان قبلاً ملحداً ثم آمن - تقدم وهو يمسك بيده برتقالة ، وأخذ يأكلها بهدوء وهو واقف بجوار الملحد دون أن يتحدث ! . فقال له الملحد : " ما سؤالك ؟ " . أجاب الرجل : " أريد أن تقول لى هل البرتقالة التى أكلها حلوة أم مرة ؟ " . قال الملحد فى دهشة : " كيف يمكن أن أعرف ذلك وأنا لم أتذوقها بعد ؟ ! " . فقال الرجل : " هذه إجابة صحيحة ، لا يجب أن تحكم على الله وأنت لم تتذوق بعد الحياة معه ! " .

إن جميع الملحدين يجهلون الله ، فهم قد عرفوا عنه بعض الأشياء ، لكنهم لم يعرفوه ولم يتذوقوا طعم الحياة معه .

● الإلحاد هروب :

كان الطفل الصغير يلهو مع أصدقائه ، فسقط فوق ملابسه كوب العصير ، فضحك عليه الأطفال ، وحاول الطفل تنظيف البقعة الكبيرة فلم ينجح ، وإستمر الأطفال يضحكون ! ، فجرى سريعاً إلى غرفة مظلمة ، وهناك أحس بالراحة ، فلم يكن يرى ثيابه الملوثة .

إن كثيراً من الملحدين يهربون بإلحادهم إلى غرف مظلمة . فالله هو النور والبر والصلاح ، والوجود فى محضره يكشف البقع على ثوب الحياة الملوثة . لذلك يوهم الملحد ذاته أن الله غير موجود حتى يستريح من خجله وعاره الذى يتنامى فى ضوء قداسة الله .

إن الإنسان وهو ساقط فى الشر ، يستطيع أن يأتى بحياته الملوثة إلى نور الله ، معترفاً بشره حتى يحرره الله من سلطان الخطيئة عليه . وهذا ما يفعله العقلاء . لكن البعض يهرب من مسئوليته بإنكار وجود الله ، كاللص الذى يضع رأسه فى الرمال حتى لا يرى الشرطى .

● الإلحاد مغالطة فكرية :

كان إسحق نيوتن جالساً فى مكتبه ، وأمامه نموذج مصغر للمجموعة الشمسية . وجاء أحد زملائه العلماء لزيارته ، فأدهشه جمال ودقة النموذج المجسم ، وسأل عن صانعه . وأجاب نيوتن : " لم يصنعه أحد - لقد صنع نفسه ! " . وقال العالم : " أنا لست غبياً ، فلماذا تجيبنى هذه الإجابة الساذجة " . وقال نيوتن : " هل يدهشك أن تكون هذه اللعبة الصغيرة قد صنعت نفسها ، فى الوقت الذى تزعم فيه أن هذا الكون كله قد صنع نفسه ؟ ! " .

إن الإلحاد مغالطة فكرية .

يقول بعض الملحدين إنهم لا يصدقون ما لا يرونه بأعينهم ، فما لا أراه ليس موجوداً ! . وقد علق أحد الحكماء على ذلك قائلاً لفيلسوف ملحد : " هناك أشياء كثيرة لا تراها لكنها موجودة ، فمثلاً : عقلك - إنك لا تراه ! ، فإما أن تكون نظريتك كاذبة ، أو تكون صادقة فلا يكون لك عقلاً ! " .

- **الإلحاد قصور فى الإستدلال :**

من القصص الطريفة التى قرأناها فى الصغر ، قصة روبنسون كروزو . الذى ظل يعتقد أنه يعيش فى جزيرة مهجورة ، لا يعيش بها أحد سواه . لكنه فى يوم من الأيام رأى آثار أقدام على الرمال بجانب البحر ، فأدرك أنه لابد أن يكون هناك شخص آخر قريب جداً منه ، لأنه لو كان هذا الشخص قد مر على هذه الرمال منذ ساعات لكانت مياه المد قد أزالت أثار خطاه ! ، فلابد أن يكون موجوداً وقريباً .

ونحن فى حياتنا اليومية ، وفى كل لحظة نرى الدلالات الواضحة لوجود الله - وهو أيضاً قريب جداً منا - إنه ليس إلهاً بعيداً فى السماء ، لكن حضوره دائم بيننا ، وبصماته تملأ حياتنا ! ، ومن السهل أن نستدل على الله فى دقائق الحياة ، من خلال شعاع نور أو قطرة ندى ، أو تغريدة طائر أو إبتسامة طفل . لكن يبدو أن الملحدين لديهم قصور فى الإستدلال .

- **الإلحاد بلادة روحية :**

أطل أحد المفكرين من نافذة غرفته على الحديقة ، فرأى فوق إحدى الأشجار عشاً به فرخان صغيران خرجا منذ قليل من البيض . ورأى العصفورة الأم تقترب من العش ، ففتح الفرخان منقاريهما ومدا عنقهما لتضع الأم فيهما الطعام . وتعجب الرجل - فالعصافير الصغيرة لا ترى الأم ، ولا تعلم إذا كانت تحمل إليهما طعاماً أو سماً ، ومع ذلك فإن غريزتها النشطة تدفعها إلى التجاوب مع حنان الأم .

والملحدون ليس لديهم الحاسة النشطة التى تتجاوب مع محبة الله ورحمته . إن بلادتهم الروحية تجعلهم ينكرون الله - ينكرون الحب - ينكرون الحنان ! .

أكثر من مجرد الإعتراف !

قد لا يكون الإنسان ملحداً ، وقد يكون إيمانه بوجود الله راسخاً قوياً . ومع ذلك فإنه يمارس شكلاً من الإيمان الجاف ! . فالإيمان ليس مجرد الإعتراف بوجود الله ، لان الشيطان نفسه يؤمن بذلك ! .

إن الإيمان هو الحياة الممتلئة بحضور الله . إنه وجود الله فى القلب والفكر والضمير . إنه الوجود الإختبارى العميق وليس الوجود النظرى .

فقد يحدث أن أرى قارباً من قوارب النجاة بجوار الشاطئ ، وأعرف أنه من أفضل القوارب وأسرعها ، ويتكون فى وجدانى يقين راسخ بصدق ما سمعته عن هذا النوع من القوارب . ولكن قد لا يحدث أن أحتاجه قط ! . فإذا تصورنا أننى كنت يوماً فى وسط البحر ، أواجه الموت غرقاً بعيداً عن الشاطئ . ثم رأيت هذا القارب يخترق الأمواج ويأتى ليلتقطنى فى آخر لحظة قبل الموت ، فإننى لابد أن أرى فى هذا القارب شيئاً لم أره من قبل - إن إيمانى به لا يكون إيمان التصديق فقط ، بل إيمان الإختبار .

أحياناً نظن أننا نتمتع بإيمان عميق ، بينما يكون الشيطان قد أفرغنا من مضمون الإيمان ، وترك لنا الشكل الخارجى فقط .

دخل أحد اللصوص المحترفين محلاً تجارياً ، وأستعرض البضائع الثمينة داخل صناديقها ، ثم مضى إلى سبيله بعد أن فرغ بعض هذه الصناديق فى جيبه ، وأعاد الصناديق الفارغة إلى مواقعها . ولم يلحظ صاحب المحل شيئاً ، فعدد الصناديق كامل كما هو . لكنه بعد أيام إكتشف أنه يحتفظ بالأغلفة دون الجوهر .

إننا قد نلوم الملحدين - ونحس بالفخر لأننا نؤمن بوجود الله - غير أن هذا الإيمان قد يكون صندوقاً فارغاً ، غلافاً خارجياً ليس بداخله جوهر الإيمان الإختبارى الثمين .

إن أكبر أخطائنا أن نقف عند العقيدة ، فالعقيدة وحدها لا تخلصنا من خطايانا - إننا نحتاج الإيمان الحى الذى يغير القلب ويغفر الخطايا ويهب الحياة .

صرخة إنسانية

يارب

أحمدك ،

وأسبح اسمك ،

لأنك أنت الإله الحى الحاضر ،

الذى يملأ الوجود .

أحمدك ،

لوجودك خلف إعجاز الخليقة ،
واحمدك أكثر
من أجل وجودك فى عالم البشر .

ولقد رأيتك فى كل ذرات الوجود ،
وفى كل دقائق الحياة ،
لكنى أريد أن أعرفك -
ملكاً على قلبى وفكرى وضميرى .
أريد أن أعرفك معرفة الإختبار !

إنى أستغيث بك ،
أرفع يدى من وسط بحور الشر -
لتمسك بى ،
لتنتشلنى ،
لتنقذنى من خطاياى ،
لتغفر ذنوبى ،
لتنقلنى إلى دائرة عشرتك ،

فلا أعود أردد الكلمات الجوفاء ،
بل يصبح روحك فيضاً فى داخلى ،
يرشدنى إلى الحق ،
ينقلنى إلى دائرة رضاك ،
ينقذنى من جفاف عبادتى الباطلة ،
ويرطب نفسى فى نهر نعمتك الغنية ،
ويعرفنى طريق الخلاص الأبدى .

يارب .

٤٤ - مبادئ إنسانية ..

لم يكن " أصل الإنسان " وضيعاً وارتفع ، لكنه خلق رفيعاً ... ثم إنحدر !

قرأت قصتين فى يوم واحد ، والقصتان حقيقيتان من واقع الحياة . الحكاية الأولى عن شاب فقير من أسرة معدمة ، مات أبوه وهو صغير ، تاركاً فى عنقه الأم وثلاث شقيقات صغيرات ، لا عائل لهم .

ولم يكن أمام الشاب الصغير إلا أن يودع أيام الدراسة ، ويلتحق بعمل ما ليعول الأم والأخوات . وكان الشاب الصغير طموحاً متطلعاً ، فلم يهجر دراسته ، بل إلتحق بعمل ليلى فى إحدى المستشفيات الخاصة ، وإستطاع أن يوزع وقته الثمين بين الدراسة والعمل والبيت والإستذكار ! .

فى داخل المستشفى الكبير ، مارس الشاب جميع الأعمال المتاحة : كالتنظيف ، والحراسة ، وأعمال الطهى ، وأعمال الصيانة البسيطة .. إلخ . كما حصل على كثير من الخبرات فى الأعمال المتخصصة : كمبادئ الإسعاف الأولية ، وبعض أعمال التمريض ، وتعقيم الثياب وأدوات الجراحة .. إلخ . وإستطاع فوق كل ذلك أن يكتسب ثقة الأطباء ، ومحبة المرضى ، وعطف العاملين ، فيسروا له وقتاً للإستذكار والراحة ، كما أنه حقق أجراً سخياً عن خدماته السخية المخلصة .

وأكمل الشاب الصغير مرحلة الدراسة الثانوية بتفوق ، فحسب هذا نهاية المطاف فى رحلته التعليمية . لكن أحد الجراحين الكبار العاملين بالمستشفى ، تعهده بالرعاية ، وشجعه على إكمال تعليمه ، والإلتحاق بكلية الطب ! . ووفر له عملاً مجزياً بعيادته الخاصة ، وسانده أدبياً وعلمياً ومادياً ، حتى صار فى يوم من الأيام جراحاً قديراً ، ومساعداً مخلصاً لأستاذه ، يعرف دقائق العمل الطبى : بدء من نظافة الأرض وتعقيم الأدوات ، وإنتهاء بالجراحات الفنية الدقيقة ! . هذه هى القصة الأولى .

أما القصة الأخرى ، فهى عن طالب فى كلية الطب أيضاً ، توافرت له كل الظروف الإجتماعية التى تؤهله للنجاح ، فهو ينتمى إلى أسرة قادرة ، ووالدين

متعلمين فى مراكز مرموقة ، وهو شاب مجتهد متفوق ، إستطاع أن يخطو خطوات واضحة فى طريق النجاح العلمى والإجتماعى - حتى كاد يكمل مسعاه . لكنه تحول فجأة إلى طريق شائك ، وأوقع نفسه فى مواقع التهم - حين قبض عليه أخيراً ، بعد أن إتهمته تحريات الشرطة بزعامة عصابة من اللصوص ، تهاجم الناس ، وتخطف حقائبهم أمام البنوك ! ، ودخل الطبيب الواعد قفص الإتهام ! .

وخلاصة القصتين أن هناك من يولد وضيعاً ثم يرتفع كما فى القصة الأولى ، و هناك من يولد رفيعاً ويسقط كما فى القصة الثانية .

والقصتان تصلحان كنموذجين للفكرين السائدين عن " أصل الانسان " : فالقصة الأولى تعبر عن الرأى القائل أن الإنسان كان فى أصله مجرد جرثومة أولية ، تطورت وإرتفعت بفعل الطبيعة حتى صارت الإنسان الكامل فى مرتبته الحالية ! والقصة الثانية تعبر عن الفكر الذى يرى أن الإنسان قد خلق كاملاً - فيه نسمة الإله الخالق وله العقل والإرادة الحرة ، لكنه سقط إلى ما هو عليه من هوان وشر الخطيئة .

فهل نشأ الإنسان وضيعاً ، ثم تطور بفعل الطبيعة وإرتقى كما يقولون ، أم أن الإنسان قد خلق بإرادة الله ، إنساناً حراً كريماً ، على صورة روحية ، وله وعى وإدراك وإرادة حرة ؟ .

هل الإنسان كغيره من الحيوانات ؟

منذ وضع الطبيب الإنجليزى تشارلز داروين كتابه : " أصل الأنواع " فى سنة ١٨٥٩ م ، تداول الناس نظريته عن التطور ، والتى إشتملت على ملاحظات كثيرة ، من بينها بعض الظواهر الطبيعية التى حملت داروين على الإعتقاد بأن الأشكال الحية جميعها تطورت من أصل واحد مشترك .

وقد تعرضت ملاحظات داروين لمزيد من الفحص فى ضوء المعرفة الحديثة بأصول الوراثة ، فتطورت نظريته على مدى السنين . لكن الفكرة الرئيسية تدعى أن الكون بكل ما فيه من الكائنات الحية نشأ بالتدريج مبتدئاً من أصوله الأولى فى الدهور السحيقة ، ومتقدماً من البسيط إلى المركب فى أدوار متوالية - بفعل الطبيعة وحدها - دون تدخل الخالق ! . أى أن الله - كما تزعم هذه النظريات - لم يخلق

الأنواع الكثيرة ، لكنه صنع فقط جرثومة الحياة الأولى ، ثم إرتقت هذه الجرثومة وتصنفت حسب الظروف المحيطة ! ، فكان الإنسان أحد أطوارها .

ويترتب على هذا الفكر أن الإنسان ليس له أصل إلهى ، بل أصله طبيعى ! . وإذا كان هذا ينطبق على تكوينه الجسدى ، فهو ينطبق أيضاً على عقله ! ، وهو بذلك لا يختلف عن سائر الحيوان - بما فيه من غرائز - إلا بكونه أعلى مرتبة فى مراحل التطور . فالإنسان والحيوان جنس واحد ، وأصل واحد ، ولكنها فى حلقات مختلفة من عبث الطبيعة .

وبالرغم من أن الحماس للنظرية القديمة قد قل بعد التطور الكبير فى علوم البيولوجى والوراثة ، إلا أن جميع النظريات المتطورة التى أخذت بفكرة النشوء والإرتقاء - جميعها تنتقص من قدر الإنسان ، ومن شأنه العظيم ، ومجده الخالد ! وتتجاهل أن الإنسان هو تاج خليقة الله ! .

الإنسان ... هذا العظيم !

على الجانب الآخر - نرى الإنسان عظيماً ، له من مقومات العظمة والمجد ما يجعله يرتفع فوق كل النظريات التى تبخس قيمته وقدره .

- **الإنسان عظيم فى قصد الله :**

لقد خلق الله الإنسان فى إطار خليقة جميلة طيبة ، وكلفه برعايتها ، فهو يزرع الأرض ويحفظها ، ويكون وكيلاً عليها . وهذه الطبيعة الجميلة هى محل إخضاع وسيطرة ، فالإنسان هو الذى يطورها ويحكمها وينميها ، وليست هى التى تطور الإنسان أو ترقيه .

ولقد صنع الله الإنسان ليكون عظيماً ، وليكون جميلاً ، وليكون خلاقاً ، وليكون سيداً على الطبيعة ، ومسيطراً على غيره من المخلوقات الحية .

- **والإنسان عظيم لأن فيه نسمة الحياة - نفخة الله - التى صيرت تراب الأرض نفساً حية :**

- فالإنسان (جسد) من لحم ودم - قابل للفناء .

- وهو (نفس) لأن فيه نسمة الحياة التى بعثت فيه الحيوية والوجود .

- وهو (روح) من حيث كونه منفتح على الله الخالق ومرتبط به . وهذا جانب ثالث فى عظمة الإنسان .

● **فالإنسان عظيم لإرتباطه الأصيل بالله :**

فلم يكن آدم روحاً منحدراً من عليائه ، ولم يكن روحاً هبط من السماء فى جسم من النور والنار ، لكنه مخلوق ترابى ، مأخوذ من أديم الأرض ، لكنه ليس واقفاً عند حدود الأرض ، فهو مرتبط إرتباطاً روحياً وثيقاً بالله الخالق ووجده مرتبط بروح الحياة التى بعثها الله فيه ، فصار نفساً حية ، وكائناً روحياً تابعاً لله ! . فإرتباط الإنسان بالله ليس إضافة (دينية) ، لكنه إرتباط أصيل داخل فى تكوينه ، ومن المستحيل أن نفكر فى الإنسان دون أن نأخذ فى الإعتبار علاقته الأصيلة بالله .

● **والإنسان عظيم لأن الله كلمه وحذره وأوصاه :**

فقد صنع الله الإنسان ، ليكون على صلة بالله ، وأودع فيه القدرة على التواصل مع الله ، والحرية أن يريد أو يرفض ، وأن يطيع أو يعصى . وجاءت كلمات الله الأولى للإنسان بشارة طيبة ، وعربوناً للحب الإلهى ، وفيضاً غنياً من النعم السخية ، ثم تحذيراً من العصيان والتمرد .

ومع أن الإنسان فى النهاية سقط فى الخطيئة ، وإختار العصيان ، إلا أن تواصله مع الله يتيح له دائماً أن يعود وأن يتوب . وهذا فضل لم يمنحه الله لغير البشر - فهذا جانب آخر من مجد الإنسان .

الإنسان : الأصل .. والقيمة .

إن النظريات الحديثة التى تناولت " أصل الإنسان " ، أهانت الإنسان ، وقللت من عظمته الأصيلة ، بإعتباره موضع تقدير الله وإكرامه من بين جميع خلائقه .

ولكن تفكيرنا فى عظمة الإنسان يجب أن يرتبط إرتباطاً حتمياً بمحبة الله ورحمته ومقاصده الطيبة لنا ! . فهذا الحب الأزلى هو الذى يعطى الإنسان قيمته .

فقيمة الانسان وعظمته ومجده ليست هى الأصل ، بل الأصل هو حب الله للبشر - حباً مجانياً - فالله لم يحبنا لأن لنا قيمة ، بل لقد أصبح لنا قيمة لأن الله يحبنا .

إن الإنسان فى أصله تراب . والتراب فى أصله عدم . ولذلك صدق من قال : " إن آدم أبونا ، والتراب جدنا ، والعدم هو جدنا الأكبر " ! .

ولقد أصبح لنا قيمة ، لأن الله وضع لنا هدفاً هو طاعته وعبادته وتمجيده ، فإذا نسينا الهدف - نفقد القيمة ، ونفقد معنى الحياة بجملتها ! .

الإنسان .. والإرتقاء

حين نتأمل ما وصلنا إليه - نحن البشر - فى أيامنا - من خطايا وأطماع وشهوات وصراع ، فإننا لا نجد الصورة المشرقة بالحب والسلام التى خلقنا الله عليها . وندرك كم إنحدرت بنا شهواتنا وعصياننا إلى عالم الأطماع .

وحين نخلو إلى أنفسنا ، نعلم كم نحن بعيدون الآن عن مقاصد السماء . فقد أراد الله لنا أن نكون شيئاً ، لكننا إخترنا أن نكون أصحاب أشياء . صار إمتلاك الأرض والتراب غايتنا ، وكان الله يريد لنا أن نكون أصحاب الحياة والخلود .

إن الإرتقاء فى حياة الإنسان ليس هو إرتقاء النوع بالإنتخاب الطبيعى الذى يزعمه أصحاب نظرية النشوء ، لكن الإرتقاء الحقيقى هو السمو الروحى بالعودة إلى أحضان الله ، وإلى خطة الله العظيمة لنا . فليس سوى الله يشبع تطلعات النفس الخالدة . فقد صنع الله القلب الإنسانى ، وهو وحده الذى يقدر أن يشبعه بالخير والرحمة والقيمة .

إن أعمق ما فى جوهر طبيعتنا ، وأعظم ما نعتز به فى إنسانيتنا ، هو أننا قادرون أن نعود خاضعين إلى الله .

فهل نلتمس من الله أن يفتح قلوبنا ، لنرى الطريق إليه - رغم الضباب الذى ينشره الشيطان ليعتم عيوننا ، ويعطل أذهاننا ! .

صرخة إنسانية

يارب

نحمدك لأنك أحببتنا ..

وظهر حبك من قبل أن تخلقنا ،

فقد خلقتنا فى جنة ،
وتحدثت إلينا !
جعلت لنا أرواحاً تتعلق بك ،
فلم نجد الشبع إلا فيك وحدك
وجعلت لنا هدفاً وغاية ،
فأصبح إرتباطنا بك هو المجد والقيمة .
ومن سواك ياإلهى
يجعل للتراب قيمة وثمناً ؟ !
أعترف لك
أننى لم أعرف قيمتى عندك !
فأهنت نفسى بين خلائقك .
هبطت إلى أدنى غرائز الحيوان ،
فصارت خطاياى فاصلة بينى وبينك !
وتاهت قدماى عن طريق العودة .
فأنا أحياناً أصلى ،
وكثيراً ما أخدع نفسى ؛
لكننى فى صلاتى لا استريح !
فهناك شئ مفقود ،
ولم تعبد عبادتى الشكلية تشبعنى !
والطريق إليك -
لم تفتحه أشواقى التائهة !
أحتاج نوراً لبصيرتى ،
فأرفع عن عينى غمامة الضلال ،
وأنر عقلى وقلبى وروحى وارادتى
وأكشف لى طريق الرفعة ،
طريق الإرتباط الخالد بشخصك ،
وأعدنى إلى المجد المنشود -
الذى أردته لتاج خليقتك .

يارب .

٤٥ - مبادئ إنسانية ..

قد لا نكون أشراراً ، لكن مفاهيمنا الخاطئة عن الله ، تجعلنا نضل الطريق !

منذ زمن بعيد ، غرقت إحدى السفن بالقرب من شواطئ أيرلنده ، بعد أن إصطدمت بالصخور ، فإنشقت وغاصت فى الأعماق فى لحظات قليلة ! .

وتعجب الناس ، فقد كان معروفاً عن القبطان أنه خبير محترف ، يعرف دقائق البحر . وهو رجل عاقل مشهود له بالحكمة والذكاء .

ونزل الغواصون إلى القاع ، يستكشفون الأمر ، ويبحثون عن السر ، فكان من بين ما صعدوا به ، جهاز التوجيه (إبرة الإشارة - التى تشير إلى إتجاه السفينة) . وعند فحص الجهاز ، وجد إنحراف بسيط للغاية فى المؤشر المغناطيسى ! . وإتضح أن أحد البحارة ، كان ينظف سطح الجهاز ، مستخدماً سكيناً صغيراً ، له سن مدبب ، وبينما كان البحار يحرك هذا السن الدقيق بين الزجاج والجسم المعدنى ، إنكسر الطرف المدبب ، وإنحشر فى بيت الإبرة ، فإنحرفت إنحرافاً بسيطاً ، دون أن يلفت الإنتباه . وفى خلال أربع وعشرين ساعة ، كانت السفينة قد خرجت عن مسارها وضلت الطريق ! .

إن حجم الخطأ هنا يبدو صغيراً للغاية ، لا تراه العين ، لكن النتيجة المؤسفة تثير الحزن والأسى - فقد يهلك الإنسان من خطأ صغير .

وإن كان الهلاك الجسدى مؤسفاً للغاية ، فإن الهلاك الروحى أكثر أسفاً . فقد يبدو أحدنا إنساناً روحياً ، حريصاً على العبادة والسلوك الحسن ، لكن خللاً صغيراً فى مفاهيمه الروحية قد يقوده إلى الضياع .

وكثير من مفاهيمنا الشخصية عن الله تحتاج إلى تصحيح . فنحن نحمل فى أذهاننا أفكاراً روحية كثيرة ، بعضها صحيح ، وبعضها خاطئ ! .

فقد إختلطت فى عقولنا المعانى الروحية بالتراث الثقافى بالمأثورات البيئية ، فتترسخ فى وجداننا مفاهيم خاطئة ، تكتسب مع الوقت مصداقية زائفة ! .

ونتناول فيما يلى تصحيحاً لبعض مفاهيمنا الخاطئة عن الله :

الله لا يعيش فى السماء

فى الأزمنة البعيدة ، نظر الناس إلى السماء ، حيث تسكن الشمس ويلمع القمر ، وحيث يسبح السحاب وينزل المطر . فعَبد الناس الكواكب والنجوم لأنها عالية تسكن السماء ! .

فلما إهتدى الناس إلى معرفة الله ، ظل فى وجدانهم أن الإله لابد أن يعيش فى السماء ! ، فهو الإله الذى " من فوق " ! .

وهذا صحيح بعض الشئ ، **فالإله الخالق القدير ، هو العالى فوق الخليقة كلها ، المرتفع فوق الجميع . ومع ذلك فإن الله لا يعيش فى العلاء فقط ، إنه يملأ الكون كله . فهو وإن كان فى السماء من فوق ، فهو موجود أيضاً فى الأرض والبحر والفضاء . إنه الروح الأعلى الذى يعمر الوجود ، ويملأ الزمان والمكان ! .**

قال الطفل الصغير لأبيه : " إذا كنت أنادى عليك من الغرفة المجاورة بأعلى صوتى ، فلا تسمعنى . فكيف يسمعنى الله ، وهو بعيد جداً خلف السحاب ؟ " ! فأجاب الأب : " إن آذاننا نحن البشر تسمع من مسافات قريبة ، لكن الله عظيم جداً ، لذلك فهو يسمع من مسافات بعيدة جداً . " ! . وإقتنع الطفل ! .

والحقيقة أن هذا القول معقول ، لكنه يعكس مفهوماً غير صحيح تماماً عن الله ! .

فالله لا يسمع همساتنا لأنه عظيم القدرة فقط ، بل يسمع همساتنا لأنه قريب جداً منا . إنه أمامنا ، وخلفنا ، وبجوارنا ! . الله ليس بعيداً فى الفضاء السحيق .

عندما تصرخ فلا يسمعك أحد ، لا تيأس . فالله يستمع إلى دقات قلبك - إلى همساتك ، إلى الكلمات الساكنة فى شفتيك من قبل أن تنطق بها . إن الله قريب . وهو يهتم بك .

الله لا يكره الخاطئين !

فى ملاعب كرة القدم ، يصوب اللاعب الكرة نحو المرمى ، فإذا لم يصل إليه . يكون قد أخطأ الهدف . وهذا هو معنى الخطيئة ، إنها الفشل فى إصابة الهدف .

وعدم إصابة الهدف شئ يجلب الأسف للاعب ولمشجعيه معاً ، ويحرم صاحبه من الفرح والسعادة . وهذا بعينه ما حدث لنا أيضاً . فنحن فى مسيرة الحياة أخطأنا الهدف ، ولم نحقق الخطة الصالحة التى أراد الله لنا أن نحققها حين خلقنا . وقد ترتب على ذلك أننا حرمنا السعادة الحقيقية ، وفقدنا السلام القلبى .

والله يأسف لفشلنا ، ويأسف لاكتئابنا ، لكنه أبداً لا يكرهنا . إنه يعرف أن لنا طبيعة بشرية تتعلق بأهداب الأرض ، وتميل إلى ماديات الحياة وشهواتها .

لذلك فإن الله - بالرغم من سقوطنا - يرعانا ويشجعنا ، ويجتذبنا إليه ، لكى يمنحنا طبيعة الإنتصار وروح القوة .

إن الله إله محب ، يظل يشجعنا ، ويتحدث بروحه إلى قلوبنا حتى يمنحنا الرؤية الواضحة للحياة كما يريدها لنا .

- هل أنت آسف على خطاياك وسقوطك فى شهوات نفسك ؟

- هل تحسب أن الله يكرهك لإرتكابك الخطايا فى السر ؟

- هل تظن أن الله يريد أن ينتقم منك ؟

هذه كلها مفاهيم خاطئة عن الله ،

فالله يعرف ضعفك وإحتياجاتك ،

وهو يريد أن يراك منتصراً على شهواتك ، مالكاً إرادتك .

إن الله قدوس طاهر يكره الخطايا والشرور ، لكنه لا يكره الخاطئين ، بل يفتح لهم أبواب الرحمة ، أبواب القبول ، حين يأتون إليه نادمين ! .

رحيم لكنه لا يتساهل !

يدرك البعض أن الله يحب البشر ، لكنهم يخلطون بين حب الله من جانب ، وعدله من جانب آخر . إنهم يطمعون فى رحمة الله المطلقة ، بإعتبار أن الله رحمان رحيم .

وهذا صحيح ، فإن الله حقاً رحمان رحيم ، ولكنه فى ذات الوقت إله عادل ، إله حق ، لا يتساهل مع المستهتر والمستبيح ! .

إن رحمة الله مفهوم صحيح ، لكن تساهل الله مع الشر مفهوم خاطئ خادع يحتاج إلى تصحيح .

لو تصورت - مثلا - أن نشالاً سرق حافظة نقودك ، واستطعت بالجهد أن تمسك به ، وتقوده إلى مركز الشرطة . وهناك رآه ضابط طيب رحيم ، فتأسف لحال اللص وأطلقة حراً ! ، فهل ترى أن الضابط قد تصرف حسناً ؟ ! ، هل يمكن أن يكون هذا الضابط مسئولاً عن حقوق الناس ! ، ويتهاون مع المجرم ؟ . أليس أول ما ينبغى أن يفعله هو أن يسترد ما حصل عليه اللص دون حق ، ثم ردّ الحق إلى صاحبه ؟ . أليس من واجبه أن يعاقب اللص ، ويدعوه إلى الإستقامة ؟ ! .

إن الله هو حاكم هذا الكون ، والمسئول عن سلامة الجميع ، لذلك فهو سبحانه لا يقبل الظلم ، أو الإستباحة ، أو كسر قوانين الحياة . وهو لذلك لابد أن يعاقب الشرير ، ويرده إلى الإستقامة . إنه إله الحب والرحمة للتائبين ، وإله العدل والحق للمستهترين والأشرار .

هل تستهين بعدل الله ؟ ،

إن الله حق لا يقبل الباطل .

صحح مفهومك عن رحمة الله ، إنها رحمة عظيمة رائعة واسعة ، لكنها محاطة بإطار من العدالة الإلهية التى لا تتهاون مع الباطل ! .

الله .. لا يبيع الجنة !

تغلبت على الناس روح التجارة ، فأصبح لكل شئ فى الحياة ثمناً . ولم يعد معقولاً أن يعمل الإنسان شيئاً مجاناً وبلا غرض خفى ! . لقد أصبح العالم متجراً كبيراً ، عالم بيع وشراء ! .

ونحن قد نجد متجراً يعرض البضائع الفاسدة أو الكاسدة ، أو السيئة الإنتاج ، يعرضها بأسعار مخفضة . لكننا لا نجد متجراً يقدم أفضل ما ينتجه مجاناً لكل من يريد ! . ولو حدث ذلك ، فربما نخاف أن نقترب من تلك البضائع ، خشية أن تكون ورائها حيلة أو سر خفى ، يعود علينا بالضرر ! .

فالعطاء المجانى ليس شيئاً مألوفاً ! .

لذلك فإننا لا نستطيع أن نفهم هذا الجانب من صفات الله . إن الله هو المعطى مجاناً . وهو يقدم أفضل الأشياء بلا ثمن ، ذلك لأن العطاء هو بعض صفاته سبحانه وتعالى ، لأنه هو المنعم .

ونحن لا نقدر أن نستوعب هذا المعنى ، فبسبب نزعتنا البشرية ، وعقولنا التجارية ، نسئ تفسير عطايا الله ، ونحسب أنه يعطينا الخير لأننا صالحون ، أو يمنحنا عطاياه مقابل حياتنا الصالحة ! ، بل نعتقد أنه سيمنحنا الجنة إذا عملنا أعمال البر والتقوى .

إننا نفكر دائماً بمنطق التاجر ، نظن أن الله يغنينا بقدر أعمالنا وصلاحنا . وهذا فكر يحتاج إلى تصحيح . ذلك لأن نعم الله علينا ، ورضاه عنا ، وقبوله لنا ، وجنته الخالدة ، والحياة بعد الموت ، هذه جميعها لا تقدر بثمن ، ولا نستطيع بأعمالنا وعطايانا أن ندفع مقابلاً لها ! .

هل نسينا أننا مجرد مخلوقات ضئيلة دقيقة فى عالم الله الواسع ، وأننا قطرة من محيط هذا الوجود ، وكل ما نعمله أو نبذله - مادياً أو معنوياً ، هو ذرات من تراب زائل ؟ ! . فكيف ندفع ثمن الجنة ؟ . وكيف ندفع ثمن الحياة الأبدية الخالدة ؟ .

إن الله لا يبيع لنا الحياة الأبدية مقابل الأعمال الصالحة ! .

إن الله يمنحنا الحياة والخلود لأنه إله محب يمنح كل شئ لمن لا يستحق شيئاً . وهذه هى قوانين الله الغنى عن عطايا البشر .

هل حاولت أن تجتهد فى أعمال الخير ، أو فى العبادات الشاقة ، كى تسترضى الله ؟ .

إن الله القدوس الطاهر ، لا يرى فى أعمالنا طهراً وقداسة ، فجميع أعمالنا - حتى ما نحسبه صالحاً - جميعها ملوثة بطبيعتنا الساقطة .

إن الله لا يحتاج إلى ثمن - فهو يمنح الغفران مجاناً لمن يعترف بخطاياه ويعلن إحتياجه لله فى تواضع وإنكسار .

خذ الحياة من الله مجاناً ! .

لا تصرف العمر فى البحث عن الثمن ! .

فالثمن هو الإعتراف بالحاجة والعجز .

إن غفران الله وسماءه ليسا للبيع ! .

يارب
أسالك أن ترشدنى إلى الطريق ،
فقد تشعبت أمامى الطرق ،
فإسترشدت بعقلى فلم يهدنى ،
وإسترشدت بضميرى فلم يرحنى ،
وإسترشدت بالناس ،
فوجدتهم مخدوعين مثلى !
يسيرون - كما أسير -
وراء مفاهيم خاطئة !

فقد صوروك لى :
الهاً بعيداً يسكن السماء ؛
ولا يبالى بالبشر -
لا يهتم بأفراحهم ودموعهم ،
ولا بمشاعرهم وإنفعالاتهم !

وقد صوروك لى :
إلهاً مشغولاً بشئون الكون الواسع -
وأنا تراب من الأرض - مجرد إنسان -
يولد ويموت فى لحظة -
ويختفى وراء الزمن البائد !

وقد صوروك لى :
إلهاً غاضباً ،
تترقب المتعثرين ،
وتنتقم من الساقطين !

ثم صوروك لى :
إلهاً رحيماً يتغاضى عن الشر ،
يقبل الوساطة ،
فيعفو عن المجرم "المسنود" !

قالوا :
إنك تمنح الجنة
فى مقابل الأعمال الصالحة !
فبذلت جهدى أن أستقيم ،
لكننى أدركت أن إستقامتى عوجاء ،
لا تستقيم فى نور قداستك ،
وبذلت جهدى فى عبادتك ،
فوجدتك غنياً عن عبادتى !

أريد أن تغير قلبى ،
أن تغسل حياتى ،
أن تصحح مفاهيمى ،
أن تنير فكرى ،
أن تهدى روحى ،
أن تقودنى بإرشاد من روحك ،
فاجد الطريق الحقيقى إلى الحياة ،

يارب .

٤٦ - مبادئ إنسانية ..

أخطر الأعداء فى حياتنا هو العدو الذى يعيش فى داخلنا !

كان الشاب الثرى معروف فى المدينة بقوته ، وصلابته ، وإقباله على الحياة . فهو لم يشكو فى حياته من مرض ، ولم تعترض أيامه مشاكل بدنية ، ولم يواجه تعباً عارضاً أو وعكة طارئة ! . فلما شوهد مرة فى زيارة طبيب ، تعجب الناس ودهشوا ، وتمازح أصدقاؤه وضحكوا ، وقال بعضهم مازحاً : " لعلها علامات الحب الذى يضنى القلب " ! .

وكان الأصدقاء على حق حين تفكروا فى القلب ، فقد تدهورت صحة الشاب القوى ، وفى خلال شهور قليلة أصابه الوهن ، وهاجمته أمراض القلب والدم ، ثم إمتدت المتاعب إلى المعدة والإمعاء والكلى وسط دهشة الجميع .

وبذل الأطباء جهداً عظيماً فى محاولة إنقاذه ، وبذلوا جهداً أعظم فى محاولة إكتشاف أسباب المرض المفاجئ الذى ألم به ! .

ولم يكن الداء هو الحب كما حسب الأصدقاء ، بل كان الداء هو " الكراهية " ! .

فقبل سنوات من المرض ، توفى والد هذا الشاب تاركاً ثروته لإبنه هذا ، ولإبنته الأصغر التى تعيش فى رعاية أخيها . ومع أن هذه الثروة كانت كافية لتوفير حياة ميسورة لكليهما ، إلا أن دوافع الأنانية وحب الذات إعتملت فى قلب هذا الشاب ، فأراد لو أنه إستطاع أن يستولى على الثروة كلها لنفسه ، دون أن يقاسمه فيها أحد - حتى لو كانت شقيقته ! .

ولما لم يكن هناك سبيل لتحقيق هذه الرغبة الجامحة ، فقد إمتلأ قلبه بمرارة حارقة ، ظلت تأكل قلبه بالنهار ، وتؤرق نومه بالليل . يصطحبها فى خلوته ، ويمضغها فى طعامه ، ويبتلعها فى جوفه ، وهو فى كل ذلك لا يبوح بها لأحد ! .

ومرت شهور كثيرة ، تقلب فيها على الأطباء والدجالين ، وإنتقل من الأدوية الطبية إلى الوصفات الشعبية ، وظل يصارع الداء حتى تعقدت الأمور وتراكمت الأوجاع ، وكانت النهاية القاسية .

وفى تعليق على حالته قال الطبيب : " من الواضح أنه مات بجرح قلبى أحدثته مشاعر حادة " ! .

لقد قتل المسكين نفسه ، حين أدخل إلى قلبه أشر الأعداء : المرارة والكراهية والطمع .

أعداؤنا

---

١ – **يعيش البشر - منذ بدء الخليقة - فى صراعات كثيرة . بعضها صراع مع الطبيعة** كالزلازل والبراكين والفياضانات والعواصف والأعاصير ... إلخ ، وجميع هذه الكوارث الطبيعية تمثل عداوات دائمة للبشر فى كل مكان ! .

٢ – **وهناك صراعات دائمة من أجل الحياة والبقاء** فقد كان على البشر أن يمهدوا أمامهم سبل الحياة ، فإستزرعوا الأرض ، وإعتلوا الجبال ، وعبروا البحار ، وحفروا الآبار والخنادق . وفيما هم يفعلون ذلك - واجهتهم الصعوبات والمتاعب والمشاكل العاصية التى مثلت لهم نوعاً من العداوات العنيدة ! .

٣ – **وهناك عداوات** سافرة واجهها الإنسان مع الوحوش الضارية ، والطيور الجارحة ، والزواحف الهائمة فى الظلام ! .

٤ – وفى الظلام أيضاً هناك جيوش من أعداء البشر يعدون بالبلايين ، **إنها الميكروبات الدقيقة ، بكل ما تحمله من أمراض وأوبئة وسموم ومعاول هدم لأجساد البشر ! .**

٥ – وهناك **أعداء من بنى البشر .** فقد تداخلت مسالك الناس وتعارضت مصالحهم ، وتربصت بهم أنانيتهم ، فإشعلت العداوة بين الأوطان ، وإمتدت العداوات لتأخذ لها مكاناً بين أبناء الوطن الواحد ، وأبناء البلد الواحد ، وأبناء البيت الواحد .

وفى جميع دوائر الصراع صارت للإنسان عداوات كثيرة ، بعضها من صنعه ، وبعضها مفروض عليه . فقد يكون الإنسان مسالماً محباً مخلصاً ، لكن بعض الأشرار يفرضون عليه عداواتهم ، ويحاولون هدم سلامه وإستغلال صلاحه وطيبة قلبه ونواياه ! .

وجميع هذه العداوات تأتى للإنسان من خارج نفسه ، وهو حريص أن يحتاط لها ؛ فيراقبها ويبذل أقصى جهده ليبعد عنها شرها ! .

لكن الإنسان يواجه نوعاً آخر من الأعداء ، لا يأتونه من خارج ذاته ، بل يعيشون فى داخله ، ويمارسون حروبهم ضده ، من مواقع حصينة إتخذوها فى أعماق قلبه وإرادته ! .

العدو الذى فى داخلنا !

العدو الساكن فى أعماقنا هو أشد الأعداء وأخطرهم علينا . ومصدر هذه الخطورة هى أننا نحسبه صديقاً ، ونمنحه الحرية والأمان ، فيفتك بنا ويحطمنا ! .

فمن هو هذا العدو المدلل الذى يعيش فى صدورنا ؟ .

للإجابة على هذا السؤال ، دعونا نعود إلى القصة التى بدأنا بها هذا المقال . فالقصة تشير إلى حافز داخلى فى قلب إنسان ، ظل يعمل فى داخله حتى قتله ! ، هذا الحافز كان يبدو فى ظاهره وكأنه يسعى لخير صاحبه وثرائه ، ولكنه لم يكن فى الواقع غير عامل الأنانية وحب الذات ! .

هذا الحافز الداخلى (أو العدو الداخلى) يتماشى ويتوافق مع طبيعة الإنسان ، لذلك فإن صاحبه قد رحب به وأبقاه ورعاه ونمّاه . ولم يدرك أنه أحد وجوه النفس الأمارة بالسوء ! .

قرأت عن سيدة أصابها طفح جلدى غطى مساحات واسعة من جسمها ، حتى أصابها الخجل الشديد ، فحبست نفسها فى بيتها ، لا يراها غير الطبيب . ولم يجد الطبيب سبباً لهذا الطفح الجلدى العنيد ، إلى أن حدثته عن غيرتها الشديدة من جارتها الجميلة ! ، وحين ساعدها الطبيب على التخلص من الغيرة ، شفيت تماماً من مرضها .

إن رغباتنا الشخصية ، وشهواتنا الكامنة تمثل قوة سلبية تعيش فى داخلنا ، وتتربص بنا وتعمل على هدمنا ! .

هذه القوة السلبية هى طبيعتنا الإنسانية الساقطة ، التى تميل إلى الشر ، وتباعد بيننا وبين الحياة الروحية القوية كما يريدها الله لنا ! .

الصراع الدائر فى داخل الإنسان بين رغباته السلبية وغرائزه وميوله وشهواته من جانب ، وبين رغبته فى إرضاء الله من جانب آخر ، هذا الصراع هو قصة العمر كله ! ، وهو مشكلة المخلصين فى كل عصر ! .

فالإنسان المخلص - حين تحركه أحياناً يقظة روحية أو حماساً دينياً ، فإنه يحاول أن يتصدى لغرائزه وشهواته ، وأن يلتزم بالصلاح والخير ، لكنه دائماً يعود ويسقط ، وتنهى محاولاته الإنسانية اليائسة بإنتصار الشهوة التى فيه ، وتتثبت فى داخله عوامل القوة السلبية - عدوه المدلل .

فكيف ينتصر الإنسان روحياً ؟

- إن الإنتصار لا يمكن أن يأتى بالحماسة أو الغرور ، أو الإندفاع أو التصدى للغرائز والطبيعة الإنسانية .

- والإنتصار الروحى لا يمكن أن يأتى عن طريق المحاولات البشرية الضعيفة .

- إن العدو الذى يحيا فى داخلنا كقوة سلبية هادفة ، لا تتصدى له سوى قوة إيجابية أعظم منه هى قوة روح الله ، الذى ينتصر فينا على الخطيئة وعلى ضعفات النفس .

صرخة إنسانية

يارب

إن فى داخلى نفس بشرية
ساقطة -
تأمرنى بالسوء !
وهى علامة ضعفى وصراعى ،
وهى العدو الغادر ،
الساكن فى أعماقى !
وأنا مهزوم أمام شهواتى ،

عاجز أمام رغباتى ،
أحتاج أن أنتصر ،
وإنتصارى مضمون فيك .
فلتملأ قلبى بنورك
وهدايتك ،
ولتغمر حياتى بروحك
وشخصك ،
أرشدنى إلى خلاصك وغفرانك ،
وأبعدنى عن أعدائى وأعدائك ،
فأنت وحدك إلهى ومنقذى ،
وأنت وحدك نصرى
وحمايتى ،

يارب .

٤٧ - مبادئ إنسانية ..

الجروح التى تصيبنا حين ننتقم أعمق كثيراً من الجروح التى تصيبنا حين نحتمل، أما الدواء الذى يطيب كل الجروح فهو الغفران !.

الانتقام طعام من نار ،

إذا اشتهيته - التهب حلقك

حكاية " نصر الدين " حكاية غريبة ، تناولتها الصحف الفرنسية والعربية ، وإختلفت بشأنها الآراء ، لكنها فى النهاية مأساة أليمة وقاسية ومفجعة ، تثير الذهول .

وسواء كان نصر الدين جانياً أو ضحية ، فإن ذلك لا يغير شيئاً فى حجم المأساة العنيفة التى راح ضحيتها أربعة رجال شرفاء - لم تخطر ببالهم قبل تلك اللحظة هذه النهاية المأساوية التى إنتهوا إليها . وكان ثلاثة منهم شباب فى عمر الزهور ، والرابع هو نصر الدين نفسه - المتهم والضحية ! .

وتقول القصة كما روتها وسائل الإعلام الفرنسية إن بطل المأساة عامل مصرى يدعى نصر الدين ، كان يعيش ويعمل فى جنوب أورلى بفرنسا دون تصريح بالإقامة .

ومنذ خمس سنوات تزوج نصر الدين من سيدة جزائرية الأصل تحمل الجنسية الفرنسية أملاً فى الحصول على تصريح الإقامة . وصارت الأمور فى مسارها الطبيعى حتى علمت الزوجة أن لزوجها قرينة أخرى ، وإبن صغير يعيشان فى مصر ، وأن زواجه منها لم يكن سوى وسيلة للخروج من مشاكله القانونية ! ، وهنا قررت الزوجة الثأر لكرامتها ، فتركت البيت بعد أن إستولت على جميع الأوراق الرسمية التى يحملها زوجها ، تاركة إياه بلا وثيقة يستند إليها ! .

وبالطبع فقد بذل الرجل كل مساعيه للحصول على أوراقه المفقودة ، وإستطاع أن يتفق مع زوجته على لقاء فى مكتب الشرطة تقر فيه بزواجهما ، للحصول على

" وثيقة الحياة المشتركة " التى تمنحه حق البقاء فى باريس . وكانت الشرطة قد حددت يوم السابع والعشرين من يناير (كانون ثان) لعام ٩٨ موعداً نهائياً لإثبات زواجه ، وإلا فإن إدارة الهجرة غير المشروعة تقوم بترحيله فوراً . وفى الموعد المحدد لم تحضر الزوجة ، وأدرك الرجل أنها تعبث به ، فقرر أن ينتقم .

وربما يكون الغضب شيئاً طبيعياً فى موقف كهذا يثير الغضب والحنق ، لكن الغضب عند نصر الدين إمتد إلى لون آخر من الإنتقام البشع ، فقد توجه إلى منزل شقيقة زوجته فى الطابق السادس من بناية ضخمة فى شارع بوليفار دى لاشبال ، وهو يحمل فى يده دلواً كبيراً مملوءً بعشرين لتراً من البنزين ! ، كما أخفى فى طيات ثيابه سكيناً كبيراً للإستخدام عند الحاجة . وبالطبع فإنه لم ينس أن يأخذ علبة الثقاب ! .

وكضيف معروف أستقبلته شقيقة زوجته ، وما كاد يدخل إلى شقتها حتى أخرج سلاحه الأبيض ، وأمرها أن تتصل بأختها وتدعوها للحضور فوراً .

وتعقدت الأمور سريعاً ، وفى خلال خمس دقائق من التوتر والتهديد والإتصالات المتوالية ، كانت نقطة الشرطة القريبة قد بعثت بثلاثة شبان أقوياء من فريقها المدرب على القتال ، فأقتحموا البيت ، وسيطروا تماماً على الموقف ، ثم بدأت مساوماتهم لتهدئة الرجل الثائر . لكن ما وقع بعد ذلك لم يكن فى الحسبان ؛ ففجأة ضرب الرجل وعاء البنزين بقدمه ، فإنساب الوقود على أرض الغرفة ، وفاحت رائحته الشديدة الخانقة ، فأحس رجال الشرطة المدربين بالخطر المحدق . وفى لحظة خاطفة إنقضوا عليه فى محاولة تقييد حركته ، لكن الرجل سقط على الأرض وسقطوا معه ، حيث إنزلقت أقدامهم جميعاً فوق الأرض المبتلة ، وتمرغت أجسادهم فى صوف السجادة المشبعة بالوقود ! .

فى تلك اللحظة - كانت نيران الغضب قد إشتعلت فى قلب الزوج وبلغت مداها ، فأشعل عود الثقاب لتتحول الغرفة إلى جحيم وتصير ككتلة من اللهيب - إلتهمت ضحاياها الأربعة ! .

هل نتعاطف مع نصر الدين ، الرجل الذى ضاقت فى وجهه السبل وهدده الضياع ، فأسقط جدران المعبد عليه وعلى أعدائه ؟ ! .

أم نتعاطف مع زوجة مخدوعة - مجروحة القلب ، أكتشفت أن الرجل الذى أحبته لم يتزوجها إلا لتحقيق أهدافه ؟ ! .

أم نتعاطف مع الشبان الثلاثة من رجال الشرطة النبلاء الذين كانوا فى ربيع العمر ، ثم فقدوا حياتهم فى لحظة إنتقام أحمق ، وماتوا هذه الميتة الشنيعة ؟ ! .

إننا نتعاطف مع الجميع ، ولا نضع اللوم على أحد بالذات ، فهذه ليست مهمتنا . لكننا نلوم هذا الدافع الردئ الذى يُدعى : الإنتقام ! .

روح الإنتقام

تكشف مأساة العروس الصغيرة (ن) ما يمكن أن تفعله روح الإنتقام فى حياة الناس ، فقد تزوجت هذه العروس من شاب أحبها كثيراً وبدأت معه حياة سعيدة . غير أن هذه المحبة المتبادلة بين العروسين لم تلق ترحيباً من والدة العريس ، التى خشيت أن تستأثر العروس الجميلة بقلب إبنها .

وبدأت الأم (وربما دون أن تدرى بحقيقة دوافعها) بدأت تشى بالعروس وتشكوها لزوجها ، وتحاول أن تقتنص لها الأخطاء ، وتوجه لها الإتهامات .

ولأن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً ، فقد تفهم العروسان ما وراءها ، وحرصاً على مقاومة الخلاف ، الأمر الذى أشعل الغيظ فى قلب الأم ، فإستسلمت تماماً للرغبة الجامحة فى الإنتقام ، ووضعت لذلك تخطيطاً محكماً ! .

وفى يوم التنفيذ ، أغلقت الأم باب غرفتها من الداخل ، وأشعلت النار فى ثيابها ، وأطلقت الصرخات لتجمع الشهود الذين قالت لهم إن زوجة إبنها أحرقتها ! ، فكانت هذه آخر كلماتها ، بينما دموع العروس تحكى الجانب الآخر من المأساة ! .

ولأن هذه القصة ليست سوى واحدة من الآف الحكايات التى تحدث فى كل يوم ، فإننا على يقين كامل أن **روح الإنتقام صارت تتملك الآن بقوة على حياة البشر ، وتحكم قبضتها بإقتدار على مشاعر الناس ، وترسل إلى أذهانهم بمخططات سوداء ، فتلون حياتهم كلها بدخان خانق وتطلق عليهم سحابات من الكراهية والحقد .**

إن روح الإنتقام تحول الخلافات البسيطة إلى عداوات طاحنة ، وتزرع الغل فى القلوب ، وتغذيه بالشرر ! . وهى روح قاسية لا ترحم ، وهى تدفع صاحبها إلى إيذاء غيره . لكن روح الإنتقام توقع بصاحبها ضرراً أفدح وأعظم مما يوقعه هو على الغير ! .

لذلك قال أحد الحكماء : " إن أقل إنتقام يسمم الروح ! " ،

وقال آخر : " الإنتقام طعام من نار ، إذا إشتهيته إلتهب حلقك ! " .

لماذا ننتقم ؟

الإنتقام من شخص ما يعنى إيقاع العقوبة بهذا الشخص لإرتكابه فعلاً ما ، نرى من وجهة نظرنا أنه يستحق عليه العقاب . ومع ذلك فإن العمليات الإنتقامية تتجاوز دائماً أى تحليل منطقى ، فهى تتم فى ظروف إنفعالية تفتقر إلى المنطق .

فهناك عوامل كثيرة تؤجج فى داخلنا الرغبة فى التصدى بالأذى لشخص ما ، وهذه العوامل هى التى تفسد منطقنا ، وتجعلنا نستبيح لأنفسنا القيام بمهمتى الهيئتين القضائية والتنفيذية كلتيهما ؛ فنصبح بذلك القاضى والشرطى معاً ! ، ولأننا طرف غير محايد ، فإننا غالباً ما نكون القاضى الظالم والشرطى الجائر ! .

إذن فالإنتقام فى حياتنا تسبقه إنفعالات كثيرة ، تتسبب فى مجموعها فى تأجيج هذه الرغبة فى داخلنا ! .

وأهم الإنفعالات التى تسبق الإنتقام هى : ثورة الغضب ، ونمو مشاعر الكراهية ، وإستيقاظ روح الخصام فى داخلنا ، فضلاً عن إستبعادنا لله الذى له وحده الحكم الصائب والقضاء العادل ! .

● **نحن ننتقم لأننا نغضب :** وقد قيل عن الغضب إنه نظارة سوداء ، وقيل " إذا كان الحب أعمى ، فإن الغضب أعمى جداً ! " . ونحن حين نغضب نطلق سهامنا الطائشة بلا تبصر أو وعى ، والطيش هو أحد ملامح الإنتقام ! .

● **وننتقم لأننا نكره ! :** وقيل إن الكراهية تلتقط الأشياء الصغيرة جداً وتصنع منها قذائف وهمية حارقة ! . مثال لذلك إننا قد نستمع إلى كلمات بسيطة وبريئة يقولها إنسان ما ، لكن كراهيتنا له تجعلنا نرى فى تلك الكلمات قذائف وإهانات وشتائم ومساس بالكرامة . وتتنامى مشاعر الكراهية فى داخلنا ، فتجعلنا ندبر للإنتقام ! ، ولو كنا نحب لفهمنا هذه الكلمات فى إطارها الصحيح .

إن الكراهية تعمل على تجسيم العداوة وتعميق الأحقاد .

● **وننتقم حين تستيقظ فى داخلنا روح الخصام :** إن ملامح الحياة القبلية التى

عاشها الإنسان قبل الحضارات تستيقظ أحياناً فى قلب الإنسان المتحضر . فبرغم التقدم الحضارى ، فما زالت فى قلب البشر تلك البذور القديمة - بذور الخصام التى هى واحدة من مقومات الحياة اليومية بين وحوش الغاب ! . ونحن للأسف نستنبت أحياناً بعض هذه البذور لتكون سنداً لنا فى توجيه الضربات الإنتقامية البغيضة ! .

● **ونحن ننتقم لأننا ننسى الله ! :** إن شهوة الإنتقام فى قلوبنا تكشف ضعفاً شديداً فى إيماننا . فنحن ننسى أن الله هو وحده المنتقم القادر العادل . فهو الذى يحكم بالحق ، وهو الذى يقيم العدل ، وله وحده العقاب والقصاص . لكننا تعودنا أن لا ننتظر عدل الله ، لذلك فإننا أيضاً لا نحصل على سلام الله ! .

كيف إذن نعفو؟

ليت للإنسان قدرة أن يعفو ! .

ليته كان قادراً أن يسامح ! .

الإنسان - بطبيعته - لا يقدر أن يغفر أو يتجاوز الإساءة أو يعفو ويتسامح مع الذين يسيئون إليه . من طبيعة الإنسان أن ينتقم وأن يسترد حقوقه مضاعفة ! ، لذلك فقد جاءت بعض الشرائع تنادى الإنسان أن يأخذ " سناً بسن " ، أو " عيناً بعين " . وهى بذلك تكبح جماح الإنسان المنتقم حتى لا يقلع عينين إثنتين لمن تسبب فى إقتلاع عين واحدة أو يكسر سنين لمن كسر واحدة ! . هذا هو الإنسان الجائر الملئ بالنقمة . فكيف إذن يعفوا ؟ .

إذا أراد الإنسان أن يعفو ، فلابد أن يسكب الله عليه قوة خاصة من روح الله . فإن الله وحده يستطيع بروحه أن يمنح الرضا ، ويمنح التعزية الفائضة ، والسلام الغامر - الذى يطفئ ثورة الغضب ويقتلع جذور الكراهية ويطهر القلب من روح الخصام . إن اللمسة الإلهية للقلب هى التى تملأ النفس ثقة ويقيناً أن الله حاضر فى حياتنا اليومية ، مدافعاً عن حقوقنا ، مهتماً بدقائق أمورنا ، وأنه خير وكيل نسلم إليه أمرنا .

ونعود إلى سؤالنا : كيف إذن نعفو ؟ ،

والإجابة هى أنه مادامت العداوة والكراهية والأنانية والتحزب والخصام هى طبيعتنا ، ومادام الغفران والسماح والحب والرضا والسلام ليس من طبيعتنا ؛

فليس أمامنا غير أن نطلب من الله أن يغير طبيعتنا ويجدد قلوبنا ، ويملأنا من روحه ، فيمنحنا حياة جديدة ! .

صرخة إنسانية

يارب
نحن نعيش فى عالم يتصارع ،
ويتقاتل ،
ويحقد كثيراً كثيراً ،
ويتآمر !
إمتلكتنا مشاعر الغضب ،
وأسرتنا روح الخصام .
ولقد زرعنا بذور الحقد ،
وأشتهينا الأذى ،
وأكلنا من شهوتنا الناقمة ،
فإلتهبت حلوقنا بمرارة النقمة ،
ولم نعد نستريح !

نعترف بأننا لا نستطيع أن نحب ،
ولا نستطيع أن نسامح ونعفو ،
وندرك أن الغفران ثمرة روحية -
لا تنبت فى أرض قلوبنا الخاطئة !
فإلمسنا لمسة تغيرنا ،
جدد قلوبنا ،
غير طبيعتنا ،
أعطنا حياة جديدة -
تعكس حبك وغفرانك .

يارب .

٤٨ - مبادئ إنسانية ..

حين نسلم قيادة حياتنا لأمزجتنا نصبح كالقش فى مهب الريح .. !

فمن أين لنا بقلب ثابت هادئ لا تلعب به الأهواء والأمزجة ؟

بينما كان أعضاء المجلس المحلى بإحدى المدن التايلاندية مجتمعاً لمناقشة بعض الأمور الهامة ، إقتحم القاعة رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان يبدو عليه الإضطراب والقلق الشديدين .

وتصور الأعضاء أنه جاء ليعرض قضية خطيرة طارئة ، لكنه لم يكن يحمل عريضة دعوى ، ولم يكن يطلب شيئاً خطيراً يبرر إقتحامه لمجلس قومى فى هيئة رسمية . بل جاء بطلب بسيط كان يمكن أن يتوجه به إلى أحد المارة ! ، فقد كان يحتاج نصف دولار أمريكى لا غير ، يريد أن يشترى به خمراً " لإصلاح مزاجه " على حد قوله ! .

وبالطبع فإن المجلس لم يحس بأى إلتزام تجاهه ولم يقم إعتباراً لهذا المزاج ، ولم يمنحه شيئاً رغم تفاهة ما طلبه . وتبادل الأعضاء إبتسامات ساخرة وأمروه بالخروج من القاعة فوراً . وأطاع الرجل الأمر ، وخرج فى صمت إلى الشارع . ولا نعلم ماذا فعل فى النصف الساعة التالية ، لكن المفاجأة المذهلة كانت حين عاد إلى القاعة مرة أخرى ومعه رشاش كلاشينكوف ، وأمطر الحاضرين بوابل من الرصاص ، فقتل أربعة وأصاب الباقين ! .

وحين سُئل الرجل عن مبرر لفعلته الشنيعة ، قال : " إنه الشتاء .. ففيه ينحرف مزاجى وتنقلب أحوالى ! " . هكذا قال الرجل ، وكانت الحقيقة شيئاً آخر ، فلست أظن أن الشتاء والصيف أو أى فصل آخر يمكن أن يكون هو الدافع الأول للحماقات التى تقترف باسم التغيرات المزاجية الموسمية . المتهم الحقيقى هو العقل الشارد ، والنفس الناقمة والفكر المنحرف والقلب التائه ، وهى الأشياء التى تصنع إنساناً هشاً تحمله الريح وتدفعه الأهواء نحو تصرفات طائشة ! .

وفى فرنسا ، كثرت البلاغات المقدمة لأجهزة الشرطة عن إشتعال الحرائق فى

مداخل كثير من البيوت ، إذ كان أصحاب البيوت يجدون أوراقاً مشبعة بالكحول أو الكيروسين ومشتعلة أمام منازلهم - دون أن يُعرف لذلك سبب . وبعد عدة شهور إكتشفت الشرطة أن وراء هذه الحرائق كلها إمرأة فى الرابعة والسبعين من العمر ! وحين سُئلت عن السبب ، قالت : " إنها الضوضاء التى تثير أعصابى ! " .

والواقع إن الضوضاء قد تثير الأعصاب حقاً " ، لكنها ليست المتهم الأول ، بل إن المتهم الحقيقى هو العقل الشارد والنفس الناقمة والفكر المنحرف والقلب التائه . وهى الأشياء التى تصنع فى النهاية إنساناً هشاً تحمله الريح وتدفعه الأهواء نحو تصرفات طائشة ! .

وفى ولاية أوتار براديش الهندية ، إكتشفت السلطات أن بعض بائعى اللبن يغشون ألبانهم بمواد كيماوية ضارة ، فأصدرت تشريعاً يحرم ذلك . فإجتمع الآف من بائعى اللبن يحملون بضاعتهم الثمينة ، ويسكبون فى النهر ٦٥ ألف لتر من اللبن ! . ومرة أخرى نقول إن هذا الإنحراف المزاجى العصبى يشير إلى عقل شارد ونفس ناقمة وفكر منحرف وقلب تائه ، وهى عوامل هدامة صنعت كياناً هشاً تحمله الريح وتدفعه الأهواء نحو تصرفات طائشة ! .

لماذا نتهم أمزجتنا !

بالرغم من أن هناك فروقاً مزاجية كبيرة بين الأفراد ، غير أن الله قد أوجد هذه الفروق لخير البشر ، فهى فى النهاية مؤهلات خاصة تمنح قدرات معيشية متميزة وتمنح صلاحيات أفضل .

غير أن هذه الأمزجة قد لا تجد بيئتها المناسبة ، فتصبح الحياة أصعب (مثال لذلك أن يوجد إنسان إجتماعى فى موقع صحراوى منعزل ، أو يوجد إنسان إنطوائى فى موقع مزدحم مثلاً) . لكن هذا لا يعنى إستحالة الحياة .

فقد خلق الله الإنسان قادراً على التكيف مع الظروف الحياتية . تماماً كما تقاوم النباتات برودة الثلج أو لهيب الشمس وتستفيد من الظروف القاسية والمخالفة فى بناء كيانها .

إذاً فلماذا ننفعل أحياناً ، ولماذا نثور أحياناً ، ولماذا تنحرف أمزجتنا فجأة ؟ ، إنها تراكمات عشوائية تهاجم الإنسان حين لا يكون أساسه راسخاً ، ولا تكون روحه

مستريحة . إننا نتهم أمزجتنا حتى نخفى حقيقة نفوسنا الناقمة وحياتنا غير المستقرة وبكلمات أخرى نحن نعلق خطايانا على شماعة أمزجتنا ! .

كيف نصلح أمزجتنا ؟

بكلمات أخرى : كيف نحيا حياة متزنة مستقرة بالرغم من التغيرات المزاجية ؟ ، وكيف يكون لنا مزاجاً معتدلاً فى الصيف والشتاء والربيع والخريف ؟ ، وكيف تستقر حياتنا رغم أجواء حياتية متقلبة وظروف غير مواتية ؟ .

فى الشهور الأخيرة من القرن العشرين إبتكر عدد من العلماء البريطانيين جهازاً صغيراً فى حجم كف اليد ، يساعد على تخفيف حدة الشعور بالقلق والخوف ، وذلك عن طريق إرسال إشارات كهربائية إلى المخ ، وإعادة تنظيم عمل الخلايا ، وقال هؤلاء العلماء إن الجهاز يساعد على تخفيف الشعور الحاد بالضغوط عند مواجهة مسائل محدده كالإمتحانات والخوف من الطيران مثلاً . وقال العلماء إن الجهاز قد نجح فى هذه الحالات ، فأحدث تحسناً يتراوح نسبته بين ٢٥ % و ٩٠ % من مستخدميه ! .

ومع ذلك فهناك علاج أفضل هو الحصول على قلب جديد يستمر هادئاً ونضراً فى كل فصول السنة . والحصول على نفس وديعة رغم قسوة الظروف ومتغيرات الحياة . فمن أين لنا بهذا القلب الثابت الهادئ ، الذى لا تلعب به الأهواء والأمزجة ؟ . إنه من عند الله .

القلب الجديد

إن ما ندعوه إنحرافاً فى المزاج ، هو فى أغلب الأحيان تسمية مقبولة للفشل أمام ظروف الحياة الصعبة . وهذا الموقف العاجز تلازمه سلوكيات سلبية كتلك القصص التى قرأنا عنها فى بداية هذا المقال - وذلك بسبب طبيعتنا الميالة للشر ونفوسنا الأمارة بالسوء . فحين نواجه ظروفاً لا ترضينا أو مواقف لا تعجبنا ، فإننا نطلق العنان لأنفسنا الغاضبة الناقمة ، فنكشف القناع عن قلوبنا الفارغة الخالية من الرضا والشكر .

ليس ما يصلح الأمزجة ويجعلها قادرة على إستيعاب الحياة سوى لمسة الله التى

تغير القلب ، وتمنح النفس سلاماً عميقاً قادراً على الفهم والقبول والشكر .

إن روح الله حين يغمر النفس الإنسانية ، فإنه يمنح الراحة والسلام والطمأنينة ، ويصلح الإنسان مع ذاته ومع ظروفه ومع إلهه .

وهذه هى المصالحة التى تمنح السلام والهدوء ، ونرى يد الله وراء كل الظروف المواتية والمعاكسة ، فلا ترتاع ولا تغضب ولا تثور ولا تنتقم - ولا تستسلم لمزاج منحرف . إنه القلب الجديد ! .

صرخة إنسانية

يا رب

كم مرة تعللت بالظروف ؟
وكم مرة تعللت بالمزاج ؟
وكم مرة تبررت تصرفاتى
الشائنة -
وإستندت إلى أسباب واهية ؟
أعترف لك أن بداخلى ميول منحرفة
وفى قلبى غضب ونقمة
أحتاج إلى تغير قلبى
أحتاج أن تلمس حياتى
أحتاج أن تصالحنى مع ذاتى ومع الحياة
أحتاج أن تكشف لى خطيئتى
أن تمنحنى روح الإعتراف والخضوع
أن تكشف لى الطريق إلى السلام الداخلى
أجعل حياتى ثابتة فيك
غير بروحك دواخلى
أمنحنى قلباً جديداً راضياً
وأجعل حياتى ربيعاً مشرقاً فى كل الفصول .

يا رب .

اللا وعى الروحى أخطر كثيراً من الشرود الذهنى ..
فمن " السرحان " ما قتل !

فى إحدى الأعمال المسرحية العربية التى قدمت على المسرح المصرى منذ عدة سنوات ، صور الكاتب شخصية أطلق عليها إسم " سرحان عبد البصير " ! .

وإعتمدت الكوميديا فى هذا العمل المسرحى على تصوير شخصية " السرحان " الذى يرى الأحداث بظاهرها فقط ، ولا يرى ما وراءها . وهو لا يحاول أن يفكر فى مدلول الأشياء - أو يستنتج منها شيئاً ، بل يكتفى بالمشاهدة العابرة . إنه بكلمات أخرى : المشاهد الذى لم يشاهد شيئاً ! ، وذلك لأن عقله منصرف إلى الواقع البسيط الذى يعيشه ، وهو لا يتبصر الأمور ، مع أنه " عبد البصير " ! .

وقد ظلت شخصية " السرحان " تمثل دائماً مصدراً للفكاهة الذكية ، فالسرحان قد يتصرف تصرفات بلهاء تثير الضحك ، مع أنه فى الواقع ليس ساذجاً ، بل قد يكون شديد الذكاء ، لكنه منصرف إلى واقعه الخاص ، أو إلى همومه ، أو إلى خياله ، أو إلى فنه وإبداعه . لذلك يكثر السرحان بين طبقات العلماء والمخترعين والفنانين والشعراء والأدباء وغيرهم من المفكرين ، كما يكثر أيضاً بين المهمومين والمطحونين بمشاكل العيش . فالهموم والإبداع هما أكثر ما يشغل الفكر ! .

وتمتلئ كتب النوادر بكثير من قصص السرحان المرتبطة بذوى العبقريات ، ولعلنا نذكر القصة الشهيرة عن عالم الفيزياء (نسيت إسمه) الذى وقف مرة فى أحد الشوارع ينتظر عربة تنقله إلى قاعة المحاضرات حيث كان مزمعاً أن يلتقى بتلاميذه ، وبالطبع فقد كان منصرفاً إلى موضوع المحاضرة ، لكن يبدو أن عقله كان قد سبقه إلى قاعة المحاضرات قبل أن ينتقل إليها بجسمه ، لذلك فما إن وقفت أمامه إحدى العربات الكبيرة السوداء التى تجرها الجياد ، حتى إستدار إليها وهو فى حالة سرحان ، وإتجه إلى ظهر العربة المسطح ، وخيل إليه أن ظهر العربة هو السبورة ، وأن الناس من حوله هم تلاميذه . فبدأ يكتب معادلاته الرياضية على ظهر العربة ! وعندما تحركت الجياد فجأة ، أصابه الذهول ، وظن أن زلزالاً قد حدث فى الجامعة .

" السرحان " نوع من الشرود الذهنى ، أو الإنصراف الشديد إلى شئ ما ، وهذا الإنصراف الشديد يجعل الإنسان غير قادر على التركيز فيما يدور حوله . إنه لا يعيش " الحاضر " لأن عقله شرد إلى منطقة زمنية أخرى فى " الماضى أو المستقبل " ، ولا يعيش " الواقع " لأن عقله شارد إلى " الخيال" ! .

وقد يكون السرحان حالة شبه دائمة عند بعض المبدعين الذين تأسرهم الأفكار ، فالسرحان سمة من سمات الأدباء والشعراء والمخترعين والعلماء . كما قد يدخل البعض إلى حالة سرحان أو شرود مؤقت عندما يفاجأ بشئ يجتذب فكره ، فينصرف إليه تماماً ، ويغيب مؤقتاً عن الواقع المحيط ! .

السرحان والتركيز

كثيراً ما نسمع البعض يقول للشخص السرحان : " من فضلك ركز شوية " ، مما يوحى بأن السرحان نقيض التركيز **والواقع أن السرحان ليس ضد التركيز ، بل إنه نوع من التركيز - وإن كان تركيزاً شارداً ، يتجه إلى غرض بعيد ! . ونحن حين نفيق من السرحان ، فإننا نحاول أن نجتذبه من عالمه إلى عالمنا ، ومن تركيزه البعيد إلى تركيزنا القريب .**

والسرحان قد يشبه السكران ولكنه يختلف عنه أيضاً ، فالسكران مغيب العقل ، يعيش فى عالم من الوهم ، بينما يعيش السرحان على بعد خطوات من الواقع . ولا يعنى هذا أن يترك السرحان فى سرحانه ، فكثيراً ما يكون ذلك خطراً عليه . بل يتحتم علينا أحياناً أن نطلق الآت التنبيه خلف السرحان حتى لا تدهسه السيارة التى تتجه نحوه دون أن يحس بها ! .

فالواقع أن الشرود قد يكون خطيراً جداً وقد يعرض صاحبه لأخطار قاتلة . ولعلنا نذكر قصة الفنان التشكيلى الذى كان يضع اللمسات الأخيرة على لوحته الجدارية فى صدر إحدى البنايات الشاهقة ، وفى نشوة إعجابه بما أبدعته يداه ، أراد أن يلقى نظرة على اللوحة كلها من بعيد ، فأرتد إلى الخلف ناسياً أنه يقف على " سقالات خشبية " معلقة فى الهواء ! . إنه التركيز القاتل - أو السرحان القاتل أياً كان ! .

إذا كان السرحان نوعاً من الشرود والإنصراف الذهنى الشديد - الذى يعرض الحياة المادية للخطر أحياناً ، فإن هناك نوعاً آخر من الشرود يعرض صاحبه إلى أخطار أعظم ! .

وهذا الشرود الأخطر هو الجنوح المادى الذى ينصرف فيه الإنسان إلى إهتمامات مادية بحتة ، تستوعب أيامه ولياليه فلا تترك مكاناً لإحتياجات روحه المتعطشة إلى الإرتواء ، ويظل كذلك حتى يهلكه الجفاف ! .

فإذا كان الشرود الذهنى قاتلاً أحياناً ، فإن الشرود الدنيوى ، والإنصراف عن عالم الروح إلى جفاف المادة - قاتل دائماً ! .

قرأت عن رجل أعمال ناجح قضى حياته كلها فى حالة تركيز شديد على متابعة مشاريعه المادية . ومع أنه عاش - حسب تصوره - حياة يقظة شديدة التنبه ، إلا أنه كان على الجانب الآخر يعيش فى حالة من اللا وعى الروحى ، وفى شرود تام عن عالم كامل من الحيوية والعمق والإرتواء والدفء ! .

وتزوج الرجل من أجمل الجميلات ، فلم تكن سوى إحدى مقتنياته ، ولم يستمتع بما فى الزواج من حب ومودة . ورزق بأبناء رائعين ، إستطاع أن يوفر لهم جميع أسباب الرفاهة ، لكنه لم يستطع أن يستمتع بما فى الأبوة من دفء وحنين ، فقد كان إنشغاله بشروده وجنوحه المادى عائقاً أمام متعته الروحية ! .

وأدرك الرجل قسوة هذا الجفاف الذى يسيطر على حياته ، وعلم أن هناك جوانباً لا ترتوى بمعطيات الحياة المادية ! .

وأن هناك متعاً روحية خاصة لا تُشترى بالمال . وعلم الرجل أيضاً أن إغراقه فى التوجه المادى هو محاولة للإرتواء من الماء المالح ، وأدرك أن ما يحتاج إليه هو أن يفيق من شروده ، ويتنبه من غفلته ، لتستيقظ روحه بين يدى الله ! .

سرحان فى إيه ؟

- هل أنت فى حالة سرحان بسبب مشاكلك ؟
- هل أنت مهموم بإحتياجات مادية ؟

- هل أنت غارق فى قصة حب تستولى على وعيك ؟

- هل أنت مأخوذ بالتخطيط لمستقبلك ؟

- هل أنت شارد وسرحان فى شئ ما ؟

- هل أنت فى شرودك غافل عن سلام الله ، مبتعد عن مصدر الحياة والوعى ؟

- لماذا إذاً لا تأتى بكل هذه الأشياء إلى الله ، ولماذا تقلب أفكارك وتعيد تقليبها فى دوائر الخيال ، ولماذا لا تضع كل متاعبك وإهتماماتك فى دائرة الوعى ، لماذا تسرح بعيداً والطريق مفتوح أمامك ؟ .

صرخة إنسانية

يا رب

هناك أشياء كثيرة تشغلنى ،
وهناك عوامل قلق تأسر نفسى ،
وكثيراً ما أقلب الأمور فى عقلى -
فتزداد حيرتى !
أريد أن أخرج من دائرة الشرود ،
فإمنحنى وعياً ويقظة .

أريد أن أحل مشاكلى بين يديك ،
أريد أن أسترد وعيى ويقظتى ،
وأريد أن يستنير ذهنى بنور
إرشادك ،
لذلك جئت إليك الآن :

فخلصنى من مادية تفكيرى ،
وخلصنى من مادية عبادتى ،
وأعطنى وعياً -
فلا أعيش فى أوهام الذات ،

وأعطنى يقظة -
فأخرج من جحور الغفلة .

أجعل صوتك واضحاً فى أذنى ،
فلا أسير بلا وعى خلف الأبواق
الصارخة .
أكشف لى بروحك عن دائرة الوعى ،
وابعثنى بروحك من موت ماديتى ،
إملأ قلبى يقيناً بحضورك وقدرتك ،
وضع فى داخلى -
أساساً جديداً لحياة جديدة .

فرغنى من رصيد الزيف ،
وطهر أجواء حياتى من رائحة الصدأ .
لون حياتى الجديدة بلون سمائى -
فلا أعود إلى وحل الأرض .
أقبلنى جسداً وفكراً وروحاً -
فإلى من سواك يلجأ المتعبون ؟

يا رب .

حياتنا مليئة بالأقنعة، ونحن نخطئ كثيراً إن قلنا إننا لا نغش !

أسوأ ألوان الغش هى خداع الإنسان لذاته
لأنه يغلق أمام نفسه أبواب الحق والتوبة !

قد نغش الناس ، وقد نغش أنفسنا ، ولكن الله لا يُخدع ! .

منذ فترة ، أثارت قصة " سيد " مشاعر الناس فى مصر . فهو شاب صغير فقير ، عاش مع أسرته قصة كفاح مريرة ، فى مواجهة عنيفة مع ظروف مادية قاسية . ولون من الفقر العنيد ! ، ومارس سيد كثيراً من الأعمال الحرفية البسيطة ليحصل على قوت يومه ، وطعام أسرته التى أصبح عائلها بعد موت أبيه . وبالرغم من هذه الظروف القاسية ، فإنه إستطاع أن يكمل دراسته الثانوية ، وأن يلتحق بالجامعة ، ويقطع فيها شوطاً كبيراً ، ولم يبق أمامه سوى عام واحد يحصل بعده على مؤهله الجامعى . الذى يوفر له حياة كريمة .

غير أن القصة لم تكتمل على هذا الوجه ، فقد تعثر سيد فى الطريق ، ولم يستطع توفير الرسوم الدراسية ، وذاب نعل الحذاء الذى ظل يستخدمه زمناً طويلاً حتى لامست أصابع قدميه أرض الشارع ، فضاقت به الحياة . ولأنه قوى الإرادة فإنه لم يفكر فى الهروب من الحياة ، ولأنه كان لا يزال يحتفظ ببعض المبادئ فلم يفكر فى سرقة جيرانه ، بل قاده شيطانه إلى " تمثيلية غش ! " ، تقليداً لأحد الأفلام التى شاهدها . فقد إقتحم أحد البنوك حاملاً حقيبة من المتفجرات ، ومُمسكاً فى يده بجهاز تفجير ، وأعلن عن عزمه تفجير البنك برواده وموظفيه ما لم يُعطى المال الذى يريده ! .

ورغم ما أحدثته المفاجأة من ذهول ، فإن الشرطة إستطاعت القبض عليه ، حيث تبين أن حقيبة الديناميت التى كان يزعم أنه يحملها لم تكن سوى حقيبته المدرسية بعد أن أبرز منها بعض لفائف التبغ (السيجار) التى تشبه أصابع الديناميت ، وأظهر مجموعة من الأسلاك الكهربائية ، لكى يوحى بأن الحقيبة تحمل

مواد متفجرة وبأنها تتصل بدائرة كهربائية يتحكم فيها بواسطة (الريموت) الذى يحمله ، والذى لم يكن هو أيضاً سوى لعبة أطفال ! .

إذاً لم يكن الموضوع كله سوى " غش فى غش " ، تورط فيه لص غير محترف ، خيل له عقله أنه يستطيع أن يحل مشكلاته المادية بواسطة عملية غش سريعة ، يعود بعدها إلى طريقه السوى .

ولكنه ـ وبعد فشل محاولته بكى كثيراً وهو يتحسس حذاءه المثقوب ، ويده الفارغة ومستقبله الضائع ..

فليس بالغش تصلح أخطاء الزمن .

الغش والغشاشون ..

الغش هو التزوير والإحتيال ، وقد يقع الغش فى الأقوال حين يقول الإنسان شيئاً مخالفاً للحقيقة ، وقد يقع فى الأعمال حين يتحايل المرء لتحقيق كسب غير مشروع عن طريق الخداع .

وميادين الغش واسعة ومتنوعة ، فهى قد تقع من طفل صغير يغش فى اللعب ليكسب تصفيق زملائه المخدوعين ، أو من طالب يغش فى الإجابات ليجتاز الإمتحان ، أو من البائع الذى يضيف الماء إلى اللبن ليكسب القروش الحرام ، أو من مقاول البناء الذى يغش فى الحديد والأسمنت فتسقط البناية ويموت العشرات أو المئات ! .

وقد يبدو الغش كأحد الحلول السهلة للتحايل على المشكلات ، لكنه بالقطع ليس هو أفضل الحلول ولا أقصرها ، فالمعروف أن الصدق هو أقصر الطرق والكذب أطولها .

والغشاشون أنواع ، فمنهم " الهاوى " الذى يمارس الغش بين آن وآخر ! ومنهم " المحترف " الذى تقوم حياته بجملتها على الغش والنصب والإحتيال والإدعاء والكذب ! .

وأغلب الظن أن الغشاش الذى مارس الغش فى طفولته فى أثناء اللعب ، والذى مارس الغش فى الإمتحانات المدرسية ، سيمارس الغش أيضاً فى حياته العملية ، وفى حياته العائلية ! .

مدرسة الغش ..

الغشاشون فى الأرض كثيرون ، ولكن أسوأهم الغشاش العاقل ! ، فهو عادة إنسان ذكى ، لكنه يستخدم عقله وذكاءه فى خداع الذين يستأمنونه من أصحاب النوايا الحسنة . وإذا إستطاب الإنسان الغش ، ولم يخجل منه ، فإن الغش يتحول فى حياته إلى أسلوب عمل ومنهج تفكير يسيطر على جميع سلوكياته ثم يتحول هو نفسه إلى مدرسة للغش ! .

شاهدت مرة رجلاً يضرب إبنه الصغير ضرباً مبرحاً ، ويوجه له الشتائم واللوم أمام جمهور كبير من تلاميذ المدارس وكان ذلك فى يوم إعلان نتائج الإمتحانات ، ولأننى كنت أرقب المشهد من بعيد . فإننى لم أستمع للحوار الدائر بينهما ، ورجحت أن يكون هذا الأب قد إستاء من رسوب إبنه أو من تدنى الدرجات التى حصل عليها فإنهال عليه ضرباً . وأشفقت على الطفل ، وسارعت إلى تخليصه من قبضة أبيه ، فلما دنوت منهما سمعت الكلمات الصاعقة التى كان الأب يرددها ، فقد كان يقول لطفله : " لماذا لم تغش فى الإمتحان مثلما فعل زملاؤك الشطار هؤلاء . فحققوا النجاح ، بينما فشلت أنت فى ذلك ؟ " ! لقد كان الرجل يلوم إبنه ويضربه لأنه لم يغش ، وأعتبر ذلك فشلاً ، بينما أعتبر غش الآخرين نجاحاً ! . وتألمت كثيراً وأشفقت على هذا الصغير الذى يدفع به أبوه إلى تعلم الغش ! . وقلت لنفسى : هكذا يبدأ النصابون والمحتالون من مدرسة الآباء أحياناً . فهذا الأب يحول إبنه إلى لص . فإذا لم يكمل تعليمه المدرسي فسيحترف السرقة أو النشل . وإذا أكمل تعليمه فسيكون فى المستقبل موظفاً مرتشياً أو مديراً أو حتى وزيراً غشاشاً ، وقد يتحول أيضاً إلى تاجر غشاش أو رجل أعمال نصاب ! .

أسوأ ألوان الغش ..

غير أن أسوأ ألوان الغش هى خداع الإنسان لذاته ! ، وهو أمر شائع ، فقد يكذب الإنسان ثم يصدق نفسه ! .

أعرف رجلاً غشاشاً كون ثروة هائلة من أعمال غير مشروعة . ثم أراد أن " يغسل " هذه الأموال ويستثمرها فى مشروع تجارى . ولما كانت حياته محوطة بالشبهات . أراد أن " يلمع " ظاهرة ، فالتجارة تحتاج إلى إسم نظيف وإلى سمعة

طيبة ، فكيف يصنع هذا الإسم وهذه السمعة ؟ لقد قرر أن يصنعهما بالغش أيضاً ، فهذه هى الوسيلة التى يعرفها . فساهم فى بعض المشروعات الخيرية ذات الطابع الدعائى ، وجمع حوله بعض الأعوان الذين أشاعوا عنه أنه رجل البر والتقوى ، ورجل المروءة والإحسان ، ولفقوا الحكايات الوهمية عن صلاحه وإحساناته وتقواه وزهده فى الدنيا .. إلخ ! . بينما كان يمارس سراً كل دناياه وشهواته ولصوصيته . والغريب أن الناس خارج دائرة العارفين صدقوه ، وتمسحوا فى بركاته . ولكن الأغرب والأعجب حقاً أنه هو أيضاً صدق أكاذيبه ، وتصور أنه فعلاً من الأتقياء الصالحين ! ، ونسى أن الله فى سمائه عليم بما فى الصدور ، وأنه سبحانه يرى ، ويسمع ، ويفحص القلوب والضمائر ، ويكشف الأسرار ، والخفايا ! .

إن خداع الذات هو أشر ألوان الغش ، لأنه يغلق أبواب التوبة . ومن يخدع ذاته كمن يخدع طبيبه ، فيعوق شفاءه ، ويهلك ذاته ! .

غشاش .. ولكن !

فى قصة مذهلة من قصص النضج النفسى والوعى الروحى ، وقف أحد الأبناء أمام أبيه ليقول له : " أنا الآن مدير أعمالك الذى منحتنى ثقتك وأستأمنتنى على مالك وتجارتك ، ولكن هل تذكر الأموال التى ضاعت من خزانتك منذ سنوات بعيدة ، ولم تعرف السارق ؟ ، لقد كنت أنا سارق خزانتك ! ، وقد جئت لأقول لك إننى لست أهلاً لثقتك أو البقاء فى بيتك " ! .

هذه قصة ليست نادرة الحدوث ، وصاحبها كان سارقاً وغشاشاً ، ولكنه عرف الطريق الصحيح لقطع روابط الخداع من حياته . إنه لم يستند إلى إختفاء الحقيقة وراء الزمن ، ولم ينخدع بالثقة التى منحت له ، ولم يعبأ بالعار الذى سيلحق به من وراء إعترافه ، بل رأى أن خداع النفس يقود إلى الضياع ، فأنقذ نفسه بالمواجهة الجريئة وفتح لها باب العزة والحق ! .

ونحن نخطئ كثيراً إذا قلنا إننا لا نمارس الغش أبداً ، فالواقع هو أننا كثيراً ما نلبس الأقنعة الملونة ، التى نظهر بها أمام الناس على غير حقيقتنا ! ، وكثيراً ما يقوم الممثل الذى فينا بتقديمنا فى أدوار بطولية لامعة نفتقر إليها فى واقعنا الخفى ! .

ونجاحنا فى إخفاء نقائصنا يغرينا بالإحتفاظ بصورتنا المغشوشة أمام الناس ،

بل وقد يغرينا بتصديقها ، فنظل طول العمر محبوسين داخل صورتنا المزيفة ، والأشنع من ذلك أنه قد يغلق أمامنا باب الإعتراف والتوبة ! .

قد نغش الناس ، وقد نغش أنفسنا ، ولكننا لا نقدر أن نغش الله ! .

صرخة إنسانية

يا رب

أعترف لك بأننى غشاش مخادع ،
فبرغم صورتى اللامعة فى عيون
الناس -
فإن حقيقتى صدئة !
فكم من الشهوات تعيش فى قلبى ؟
وكم من الرغبات المكتومة تعربد
فى داخلى ؟
وكم من الأفكار المخجلة أخفيها فى
جوفى ؟
وكم من الأحقاد تسكن فى صدرى ؟

حتى عبادتى -
أسترضى بها الناس ،
وأظهر بها وجهاً مقبولاً للآخرين ،
لكنها لا تشبع روحى ،
ولا تغسل نفسى ،
ولا تطهر قلبى ،
ولا تقربنى إليك !
فأنت الحق والصدق -
أما عبادتى فهى الكذب والخداع
والغش !

لذلك فإننى أجئ إلى بابك المفتوح ،
أطرح أقنعتى عند قدميك ،
أطلب نوراً جديداً يكشف عمق
زيفى -
ويبدد كل ظلامى وجهلى .
أكشف لى طريقاً جديداً -
أغتسل فيه من كل زيف الماضى ،
ومن كل خداع الحاضر .
أغسل بيدك وجهى من ألوان الغش ،
أخرجنى من مستنقعات الكذب -
ومن خداع الذات -
أجعلنى إنساناً جديداً -
أحيا معك حياة جديدة -
أتواصل معك ،
تملأ بحضورك حياتى ،
تملأنى من الحق .

يا رب .

شهواتنا الشريرة - وليدة طبيعتنا الخائطة

لا سبيل إلى قهر شهواتنا - إلا بلمسة إلهية تغيّر قلوبنا !

تمتلئ الأساطير الإغريقية بكثير من الغرائب المدهشة والعلاقات العجيبة بين الآلهة اليونانية التى كانت تعيش فوق جبال الأولمب . فقد كان آلهة اليونان يحملون كل أحاسيس البشر وشهواتهم وضعفاتهم وميولهم الدنيوية ! ، لذلك جاءت أساطيرهم مليئة بالإغراب الشديد ، إلا أنها تعكس كثيراً من المعانى الرمزية التى تفسر غوامض وأسرار النفس البشرية وتوجه الأنظار إلى ما جُبل عليه العالم كله من ضعف وغواية ! .

ومن القصص الرمزية الطريفة قصة البطل الأسطورى هيراقليس - المعروف شعبياً باسم " هرقل " - والذى نعرف صورته من التمثال الشهير الذى يمثله وهو يحمل على كتفه الكرة الأرضية . وتقول أسطورة هرقل أنه إبن زيوس - كبير الآلهة - وأن أمه كانت ملكة مصرية من طيبا (الأقصر) تدعى " ألكامينا " . وقد تعثرت فى ولادته كثيراً لضخامة حجمه وثقل وزنه . وظهرت قوته بصورة مذهلة ، ففور ولادته أرسلت " هيرا " الحاقدة زوجة زيوس ثعبانين كبيرين لقتله ، ولكنه إستطاع أن يقتلهما بيديه . ثم تصدى لأسد نيميا المخيف ، وأطبق على عنقه بكفيه حتى مات ، وقتل الهيدرا ذات الروس التسعة ، وغير ذلك من الأساطير المثيرة التى تحمل إسقاطات رمزية . أما أجمل قصص هرقل وأقربها إلى موضوعنا ، فهى قصة لقائه بالرذيلة ! ، فقد كان هرقل مسافراً إلى بلاد اليونان ، فضلّ الطريق ، وأحتاج إلى دليل يرشده . وبينما هو فى مفترق الطرق ، ظهرت له إمرأتان : كانت إحداهما سيدة وقورة تسمى الفضيلة ، والأخرى إمرأة جميلة تسمى الرذيلة ، وعرضت عليه كل منهما أن ترشداه إلى الطريق الذى يسلكه ، وإستخدمت الرذيلة كل مفاتنها وإغراءاتها لإقناعه بالسير معها ، حتى كاد يسلم لها نفسه ، غير أنه فى اللحظة الأخيرة أختار الفضيلة ، فأصبح إختياره هذا معروفاً فى كل الدنيا بـ " إختيار هرقل " ، والذى ساعده على الإحتفاظ بقوته ، وإستخدامها للخير ،

فأيدته الآلهة بأسلحة كثيرة ليحيا حياة منتصرة ! .

وهذه الأسطورة القديمة ، تقدم لكل العصور ثلاثة دروس رمزية :

أولها : إن الشر يظهر دائماً جذاباً ومغرياً .

وثانيها : إن الشر والخير إختياران ، والشر لا يقتحم حياتنا بالإكراه ، لكنه يتودد إلينا ويغرينا من بعيد ، ونحن الذين نستجيب له ونفتح له الباب بإرادتنا ، ويمكننا إن شئنا أن نرفضه ! .

وثالث الدروس هو : إن إختيار الفضيلة يمنحنا حياة منتصرة مؤيدة من الله .

من أين تأتى الشهوات ؟

فى القديم - قال بعض الفلاسفة (ومنهم الرواقيون والبيلاجسيون) إن الإنسان يولد بلا ميول ، وبلا رغبات ، فإذا فعل الشر تكونت فى داخله الرغبات والشهوات الشريرة ، وإذا فعل الخير تكونت فى داخله طبيعة الخير ! . ومعنى هذا الكلام أن أعمالنا هى التى تشكل طبيعتنا ، وهذا غير صحيح ، والصحيح هو أن طبيعتنا هى التى توجه أعمالنا . فالأسد مثلاً - لا يصير متوحشاً بعد أن يفترس ضحيته ، بل إنه يفترس ضحاياه لأنه متوحش أصلاً ، فطبيعته المتوحشة هى التى دفعته للإفتراس وليس العكس ! ، واللص لا يصير لصاً بعد أن يسرق ، بل إنه يسرق لأنه لص ، واللصوصية وشهوة الإستيلاء على أملاك الغير موجودة فى داخله من قبل أن يسرق شيئاً ! .

وقال فلاسفة آخرون (ومنهم سقراط ، وأفلاطون ، وجان جاك روسو) إن الإنسان يولد طاهراً ، ولكنه إذا عاش فى بيئة فاسدة تأثر بها ، وتسربت إليه الشهوات والخطايا . وهذا غير صحيح ، لأن أغلب أعمال الإنسان محكومة بعواطفه وشهواته وميوله ، وهو يسعى إليها بفكره وقدميه ، وينتقل برغبته من البيئة الصالحة إلى البيئة الفاسدة ، وهو يعلم بعواقب أعماله ! .

إن الإنسان - غالباً - لا يقع فى الشر بسبب جهله بهذا الشر ، بل يقع فيه بسبب فساد طبيعته ، وجموح شهوته ، فيفضل الشر على الخير وهو عالم بكليهما . فالطبيعة الخاطئة التى فينا هى التى تنشئ فينا الشهوات . ولدينا دليل بسيط يعرفه الجميع ، وهو إقبال الناس - ومنهم أطباء - على التدخين ، وهم يعلمون أنه ضار جداً

بالصحة ، ومع ذلك فهم يدخنون آسفين ، لإشتعال الرغبة فى داخلهم بصورة تطمس العقل والوعى ! .

ودعونا الآن نناقش الدروس الثلاثة المستقاة من قصة هرقل التى دأنا بها هذا المقال :

الرذائل تظهر جميلة !

وما دمنا قد بدأنا الحديث بقصة من الأساطير اليونانية ، فدعونا نتذكر قصة أخرى من تلك الأساطير ، هى قصة رحلات عولس ، وهى تحكى عن جزيرة السيرينس التى كانت تصدر منها ألحاناً عذبة ، لا يستطيع البحارة مقاومتها ، فيندفعون بسفنهم نحوها ، رغم أنهم يعلمون أنها جزيرة الموت ، وهناك يلقون حتفهم ! ، وهذه الحيلة هى دائماً الوسيلة التى تتجمل بها الرذائل القاتلة ! .

إن الرذيلة تتجمل لكى تخدع ثم تقتل ، مثل ذلك النوع من العناكب التى تشع نوراً ، فتنجذب إليها الحشرات ، فما أن تقترب إليها حتى تثب عليها وتلتهمها ! .

إن علينا أن نحترس ، فالخطيئة تتنكر وتتجمل وتثير شهواتنا ، وليس كل ما نشتهيه خير لنا .

لكن الشر لا يقتحمنا !

يزعم البعض أن الشهوات تأتى إليه بسبب المغريات التى يقدمها العالم المحيط ، فيقول : " ماذا نفعل إذا كانت الحياة العصرية ووسائل الإعلام تقدم لنا المغريات ، وأفلام الإثارة ؟ ،

إن البيئة الفاسدة التى نعيش فيها هى التى تشعل شهواتنا ! " . والحقيقة هى أن هذا زعم باطل ، وحجة نبرر بها رغباتنا ، وندافع بها عن ضعفنا .

فالشر لا يقتحمنا ، لكنه يتودد إلينا . ونحن الذين نستجيب له ، بينما نستطيع دائماً أن نرفضه . إن ثمرة الشجرة المحرّمة لم تقفز إلى يد أمنا حواء ، بل هى التى مدت لها يدها ، وأستجابت لدعوتها ! .

يعتمد الكثيرون فى مقاومتهم للشهوات على عزيمتهم ، وقوة إرادتهم . وبالطبع فإننا لا نستطيع أن نتجاهل دور الإرادة ، لكن الشهوة تبدأ بالخيال ، وفى كل حرب تنشب بين المخيلة والإرادة ، تنتصر المخيلة دائماً . وذلك لأن رحلة السقوط تكون قد بدأت قبل لحظة المواجهة بوقت طويل . لذلك فإن الإنتصار على شهوات النفس يحتاج إلى تنقية الفكر وتطهير القلب أولاً .

فكيف يتطهر الفكر ؟ ،

إنه يتطهر بالإعتراف بالعجز أمام شهوات النفس القاتلة .

ويتطهر بوضع إرادتنا الضعيفة فى يد إله قوى .

ويتطهر بالثقة بأن الله قادر ان يغير طبائعنا الشهوانية ، وأن يمنحنا طبيعة روحية جديدة تجد متعتها فى الحياة السامية والمنتصرة ، التى يقودها روح الله .

إننا نحتاج اللمسة الإلهية المغيرة ، وبدونها سنظل عبيداً لشهواتنا ! ، ولعل كل واحد منا له فى تجربته الخاصة ألف دليل ودليل على ذلك ! .

صرخة إنسانية

يا رب

إن تجربتى الخاصة علمتنى الكثير ؛
فكثيراً ما حاولت أن أقاوم شهوتى ،
وكثيراً ما عزمت الإقلاع عن خطاياى
الخفية ،
وكنت فى كل مرة أعود وأضعف ،
وفى كل مرة يتكرر سقوطى ،
وفى كل مرة يزداد إحباطى وفشلى !
إننى أعترف أمامك بالعجز ؛
فالرغبة ساكنة فى قلبى ،
والشهوة عائشة فى فكرى .

وأنا محتاج أن تلمس أعماقى ،
وأن تغير دواخلى .
أنا محتاج أن تملأنى بقوة روحية -
تأتى من خارج ذاتى ،
محتاج أن تملأنى بفكر جديد -
يوجه أنظارى إليك ،
ويرفعنى فوق ضعفى وضياعى .
أحتاج إلى روحك القدوس :
يطهر داخلي ..
ينظف قلبى ..
يغسلنى ..
يصنعنى إنساناً جديداً
إنساناً سمائياً -
يجد فيك شبعاً وإكتفاءً ،
فلا تغريه شهوات الأرض ،
فتحدث الآن إلى قلبى ،
أصنع فى داخلى معجزة التغيير ،
المعجزة التى لم يحدثنى أحد عنها ،
لكننى أنتظرها منك وحدك .

يا رب .

٥٢ - مبادئ إنسانية ..

نحن أرواح ننتمى إلى الله ونتطلع إلى الخلود ،
فلماذا نطغى علينا أجسادنا ؟ !
نحتاج أن يغير الله طبائعنا البشرية .. فننتمى إليه حقاً .. !

فى حكاية من حكايات الحكمة الصينية القديمة ، يتناول الكاتب فكرة الإنتماء من خلال قصة رمزية طريفة ، فيقول :

كان الأرنب البرى الأبيض يلهو فوق العشب ، حين وقف إلى جواره طائر العقعق .

وتبادل العقعق الحديث مع الأرنب ، وسأل كل منهما الآخر عن حياته وعن بيته ، فقال الأرنب أنه يعيش فى جحر صغير ضيق يمتد تحت الشجرة . فتألم العقعق على حال رفيقه وقال إنه يعيش فى بيت جميل بنته أمه فوق الشجرة . وقال العقعق أيضاً أن بيته صحى ، وإنه يستمتع فيه بدفء الشمس ، ونسيم الهواء ، وطراوة الندى . ويشرف منه على المزارع الخضراء والجبال الشماء والبساتين الفيحاء . وينظر منه على الأنهار الجارية والجداول الصافية والطبيعة الذاهية .. إلى غير ذلك ! ، وأكثر العقعق فى كلامه وأطال ، حتى أحس الأرنب المسكين بالعار والوبال ، وقلة الشأن وسوء الحال . وتمنى لو أنه يستطيع أن يحيا فوق شجرة الحور مثل هذا العقعق الفخور ! .

وعند المساء عاد الأرنب البرى حزيناً إلى أمه البيضاء ، فأخبرها بما دار بينه وبين العقعق من حوار ، وأخبرها أيضاً بعزمه على الصعود إلى أعلى الشجرة ليستمتع بحياة جديدة هانئة ! .

وخافت الأم وإرتبكت ، لكنها لم تقدر أن تمنع ولدها من القيام بتلك المغامرة المثيرة ! .

وعلى مدى أيام كثيرة صعد الأرنب أشباراً وسقط أمتاراً ، لكنه إستطاع فى النهاية أن يصل إلى قمة الشجرة - عليلاً منهكاً ! .

وفرح الأرنب فى عش العقعق ، وشكره على ضيافته ، وتطلع من نافذة العش فرأى المناظر الطبيعية الساحرة ، فندم على الأيام التى قضاها فى ظلام الجحر ! .

ثم غابت الشمس ، وجاءت الطيور إلى أعشاشها ، وإستسلمت للنوم ، فنام الأرنب أيضاً . لكن الأمطار هبطت تلك الليلة بغزارة ، فإنزلقت قطرات المطر فوق ريش العقعق وغيره من الطيور فلم تبتل أجسادها لأن ريشها تغطيه طبقة شمعية طاردة للماء . أما الأرنب المسكين فتشرّب فراؤه الكثيف بماء المطر فأرتعش من شدة البرد ، ولفحه الهواء حتى كاد يتجمد . وأراد النزول فلم يقدر ! .

وإستيقظت الطيور فى الصباح وطارت لتستقبل الشمس ، بينما إنكمش الأرنب المسكين فى ركن العش ، جائعاً خائفاً مضطرباً لا يعلم من أمره شيئاً .

وعندما صار الأرنب وحيداً صعدت إليه قطة برية شرسة أدخلت فى قلبه الرعب والفزع ، فإرتبك وإضطرب وألقى بنفسه من فوق الشجرة ، فتعلق بأحد أغصانها . فلا هو نزل أرضه ليأكل ويختبئ ويستريح ، ولا هو إستقر فى الجو يستمتع بحياة الطيور ، بل تعلق بين الأرض والسماء ، وظل معلقاً إلى أن أدركه الهلاك ! .

إلى من ننتمى ؟

كما ينتمى الطير إلى عالم الطيور ، وتنتمى الأسماك إلى المياه والبحور ، هكذا ننتمى نحن البشر إلى عالمنا - الأرض والتراب ! .

إننا بطبيعتنا البشرية أجساد مادية تنتمى إلى عالم المادة والجسد . فالجسدانية هى الصفة العامة التى تشكلنا وتوجهنا ، ولذلك تمتلئ حياتنا برغبات الجسد من الشهوات ، والتطلعات ، وحب الذات ، والأنانية . وتميل قلوبنا إلى الخطيئة ، وتنحرف عواطفنا فيتملكنا الغضب والحقد والحسد والإنتقام وسوء الظن والضجر والخوف . وتملأ رؤوسنا الأفكار الشريرة والمنحرفة والفاسدة التى نتستر عليها ولا نظهرها خجلاً منها ومن أنفسنا ! .

وقد يكون بعضنا أفضل من غيره فى شئ ما ، لكنه قد يكون أسوأ منه فى شئ آخر . وقد يظن أحدنا أنه أفضل من سواه ! ، أو قد يشتهر أحد الناس بأنه رجل صالح لأنه يقوم بأعمال الخير أو يتفقه فى شئون الدين أو لأنه زاهد فى الدنيا .. إلى غير ذلك . لكن كل هذه لا تجعل الإنسان شيئاً آخر ، فالإنسان جسد مادى . ينتمى إلى

الجسدانية سواء ظهرت واضحة فى تصرفه أو إختفت ولم تظهر ! .

غير أن فى حياة الإنسان إنتماء آخر خفى ، ففى داخل البشر روح تشتاق إلى الله وتتطلع إليه ، وهو شوق لا تشبعه الدنيا وما فيها ! .

فنحن بأجسادنا ننتمى إلى الأرض ، ونحب أرضنا ونحب عالمنا . ولكننا بأرواحنا ننتمى إلى مملكة السماء التى نشتاق ونتطلع إليها ، فهى وطن الخلود ! .

فهل هذا يكفى ؟

هل أشواقنا الداخلية إلى الله تمنحنا الخلود ،

وهل تتغير طبائعنا لمجرد أن فى داخلنا شوق إلى الله ؟ .

الإنتماء إلى الله .. الشوق والوهم !

يتوهم البعض أنهم يعيشون فى عالم الله ، وأنهم ينتمون إليه . ودليلهم إلى ذلك هو إحساسهم بالشوق إلى الله والرغبة فى التقرب إليه ! .

وليس من شك فى أن الشوق شئ ، وتحقيقه شئ آخر . والتطلع إلى الله شئ والتواجد فى الله شئ آخر .

إن عواطف الشوق الروحى هى البذرة التى غرسها الله فى قلوبنا لنسعى إليه . فليس لنا فضل فيها ـ فالشوق إلى الله هو الخطوة الأولى ، ويلزمنا بعدها أن نكمل الطريق إليه . ولكننا غالباً ما نخطئ الطريق ! .

فالشوق الروحى لابد أن تتبعه خطوات روحية ، لكن ما نعمله دائماً هو إتباع الشوق الروحى بخطوات جسدية ، ومحاولات بشرية عاجزة ، وعبادات شكلية ، وإلتزامات صعبة نفرضها على أنفسنا ! ، وكل هذه المحاولات تشبه محاولات الأرنب لتسلق جزع الشجرة ! ، إنها محاولات يائسة وضارة تنتهى بالهلاك .

إن كل محاولة لتحقيق تقدم روحى ينبغى ألا تعتمد على المحاولات الجسدية والمجهودات الشخصية ، فمجهوداتنا ، وأعمالنا الصالحة ، وممارساتنا الدينية الشكلية تشبه قفزات قصيرة فوق الأرض ، نقفزها لنسقط بعدها حالاً كما تفعل البراغيث ! .

المحاولات الجسدية لا تمنح الإنطلاق الروحى ، فهى ليست أجنحة حقيقية تحملنا إلى عالم الله ! .

نحن أرضيون مهما تسلقنا

لعل إيماننا بهذه الحقيقة هو الخطوة الأولى نحو تحقيق علاقة صحيحة بالله . فإعترافنا بالعجز هو أول الطريق نحو إدراك مراحم الله .

والإعتراف بالعجز ليس سهلاً على البشر ، فنحن نميل إلى تأكيد ذواتنا ، ونسعى أن نلفت الأنظار إلى قدراتنا ، وهى أشياء قد تحقق بعض النفع فى شئون الحياة الدنيوية ، لكنها تغلق كل أبواب الرحمة الإلهية ! .

كثيراً ما تتملكنا الكبرياء ، فنحسب أننا قادرون أن نرتفع إلى السماء بوسائلنا البشرية ، فنسعى إلى ذلك " متسلقين " بالعبادة والصلاة والطقوس والصيامات والفروض وأعمال البر والإحسان ، ونبذل فى ذلك جهداً شاقاً وصعباً ، مثل ذلك الجهد الذى بذله الأرنب فى تسلق الشجرة ، فنرتفع ونسقط وإذا بنا فى النهاية معلقون بين الأرض والسماء ، إذ أننا فى النهاية جسديون لا نملك أجنحة ترفعنا ، وكل ما نعمله هو تسلق عاجز ، لا يمنح تغييراً حقيقياً للقلب والطبيعة ! .

كيف ننتمى إلى الله ؟

إذا أردنا أن نرتفع فوق طبيعتنا الجسدية الجامحة والمسيطرة علينا . فينبغى أن نستعين بما هو أقوى من طبائعنا . إنه " روح الله " الذى يعمل فينا وينصرنا على أنفسنا ! .

- **الإنتماء إلى الله لا يتحقق بمجرد الرغبة المتطلعة والأشواق العاجزة ! .**
- **والإنتماء إلى الله لا يتحقق بالسعى البشرى أو بأعمال البر والخير ! .**
- **الإنتماء إلى الله لا يتحقق بعباداتنا المتكررة وأصوامنا وإبتهالاتنا والتمسك بأشكال الدين الظاهرة ! .**

إن إنتمائنا لله يتحقق - فقط - بلمسة الله لقلوبنا ، لتطهيرها وتنظيفها وتغييرها .

- **إنتماؤنا لله يتحقق بقوة التغيير الذى يحدثه الله فى داخلنا ! .**

• إنتماؤنا لله يتحقق بنوال طبيعة جديدة يهبها لنا روح الله ، فيرفعنا بأجنحة الروح فوق أرضيتنا وجسدانيتنا ! .

إذا كانت لنا أشواق روحية صادقة ، وإذا كنا نريد أن ننتمى إلى قوة روحية ترفعنا كالأجنحة إلى آفاق الحياة الجديدة ، فلنترك قدراتنا وعاداتنا العاجزة ، ولنستقبل قوة روح الله كى نتغير ، وننضم إلى وطن روحى تعيش فيه أرواحنا ، ويشكل إنتماءنا الحقيقى للسماء والخلود والحياة الأبدية ! .

صرخة إنسانية

يارب

أحمدك لأنك جعلت فى داخلى -
شوقاً شديداً إليك !
وأنا أسمعك تناديني ،
وأحس برغبة صادقة أن آتى إليك !
لكن حياتى الساقطة -
تقف حائلاً بينى وبينك ،
فعبادتى جافة ،
وأعمالى زائفة ،
ومحاولاتى يائسة .. لم تصلح
قلبى !

منعتنى كبريائى كثيراً
من الإعتراف بعجزى .
وأردت أن أشبع أشواقى الروحية -
بأعمال جسدية !
فإكتشفت أننى إنسان أرضى :
ليس لى أجنحة ترفعنى -
فوق شهوتى .
وليس لى قوة تحمينى

من رغبات نفسى المدمرة !

إننى أجئ إليك الآن بعجزى ،
فليعمل روحك فى داخلى ،
غيّر قلبى ،
أنهض إرادتى ،
وجه روحى إليك ،
ولتكن أنت وطنى ووجهتى
وخلودى ،
وليكن لك وحدك -
كل إنتمائى وغايتى ووجودى .

يارب .

٥٣ - مبادئ إنسانية ..

كما تحتاج أجسادنا إلى الرياضة البدنية ، كذلك تحتاج طبائعنا الجسدية إلى الترويض الروحي !

يعتبر " مايك تايسون " بطل العالم الأسبق فى الملاكمة ، واحد من ألمع النجوم فى عالم الرياضة . وهو كغيره من النجوم تحيط به جماهير المعجبين ، وتتهافت عليه شركات الإعلانات ، ومحررى الصحف .

ويعيش أغلب النجوم حياة مترفة ، حيث يتولى مديرو أعمالهم عقد الصفقات ، وترتيب اللقاءات ، وإقامة الحفلات ... إلخ . وقد كان تايسون يتمتع بكل هذا البريق .

ولكن النجم الأسمر الشهير - هوى إلى الحضيض ، حين تورط فى جريمة أخلاقية مشينة ، وحكمت عليه إحدى المحاكم بالسجن لمدة ست سنوات ، بعد أن أجمعت كلمة المحلفين على أنه مذنب .

والأمر الذى يستحق التأمل فى هذه القصة ، ليس سقوط إنسان مشهور فى عمل شائن ، فهذا يحدث فى كل لحظة فى حياة البشر ، لكن وجه الغرابة هى أن لا يكون البطل الرياضى قادراً على الصمود أمام شهواته ، وضبط نفسه ، بالرغم من طبيعة عمله - الذى يحتاج إلى مران مستمر ، وتدريب دائم ، وتحكم شديد فى كل شئ ! فكيف لا يقدر بعد كل هذا أن يكبح جماح رغباته الرديئة ؟ ! .

وفى الدورة الأوليمبية الأخيرة ، سحبت إحدى الجوائز من بطل رياضى شهير ، بعد إكتشاف تناوله لعقاقير منشطة يمنعها القانون ! ، ومعنى ذلك أن التصفيق الحاد بالأمس - تحول فى اليوم التالى إلى فضيحة مخزية ! ، فكيف يهبط البطل إلى مستوى اللص ، وهو الذى أفنى عمره فى التدريب على ضبط كل شئ فى حياته ، والإلتزام بنظام صارم يحدد ساعات النوم ، وأوقات التدريب ، وأنواع الطعام ، ونوع الأصدقاء ... إلخ .

وهناك أمثلة كثيرة فى حياة أبطال الرياضة البدنية ، تظهر أن التدريبات البدنية وحدها ، بكل ما تستلزمه من تطويع ، وتكييف للجسم ، وبكل ما تتطلبه من إرادة وحزم شديدين ، فإنها قد تفشل فى التحكم فى الرغبات النفسية الدفينة ! .

فهناك من الأبطال من يقهرون الصعاب ، لكنهم ينهزمون أمام النزوات ! ، وبينما هم يحققون النصر فى ميدان الرياضة ، نراهم يخسرون فى ميدان المبادئ ، ومثلما يحطمون الأرقام القياسية ، فإنهم يحطمون صورتهم أيضاً ! .

إن الرياضة البدنية تقوى أجسادنا وتصونها ، لكنها لا تكفى لإصلاح طبائعنا الجسدية .

إحتياجات الجسم وإحتياج الروح

لكل من الجسم والروح إحتياجات خاصة ، ولكل منهما غذاؤه الخاص الذى يشبعه .

وكذلك فإن للجسم تدريباته التى ترفع من قدراته ، وللروح تدريباتها التى ترفع قدراتها ! .

وكما أن التربية الرياضية هى التى تنمى قدرات الجسم ، وتمنحه أقصى درجات التوافق مع وظائفه البدنية ، ليكون على علاقة صحيحة بذاته وبالعالم المادى ، كذلك فإن التربية الروحية هى التى تنمى القدرات الروحية ، وتمنح الإنسان أقصى درجات التوافق مع تطلعاته الروحية ليكون على علاقة صحيحة مع ذاته والعالم الروحى ! .

ومن هنا يجئ القول إنه كما تحتاج أجسادنا إلى الرياضة البدنية ، كذلك تحتاج طبائعنا الجسدية إلى الترويض الروحى .

الترويض الروحى ..

من الواضح أن الإنسان لا يصبح رياضياً بقراءة كتاب فى الرياضة البدنية ، ولا تتقوى عضلاته لمجرد إيمانه بأهمية التدريب ! ، بل لابد له أن يمارس التدريبات الرياضية فعلاً وعملاً ، ولابد أن ينتظم فيها ، وأن يتحمل الجهد والعرق ، فيحقق بذلك المكاسب البدنية التى تمنحها الطبيعة لمن يطلبها .

وكذلك التربية الروحية ؛ إنها ليست قراءة كتاب من كتب الدين ، وليست مجرد التعلق بفكر دينى ، أو معلم دينى ، لكنها نوع من الإلتزام الشخصى الصادق المخلص ، والجهاد مع النفس ، والخضوع الكامل لله ، لتحقيق المكاسب الروحية ، التى يهبها الله لمن يطلبها .

التربية البدنية هى نوع من ترويض البدن ، وإخضاع ملكاته لسيطرة الإنسان ، والتربية الروحية هى نوع من ترويض النفس ، وإخضاع ملكاتها لسيطرة روح الله .

من يروض نفوسنا ؟

جاء أحد الشبان إلى المدينة ، تاركا مجتمع القرية الضيق بقوانينه الصارمة ، وتاه فى مجتمع العاصمة المفتوح دون رقيب . وفى المدينة إستيقظت شهواته الكامنة ، فقاومها بقدر ما إستطاع ، ثم غلبته رغباته ، فأدمن الشر وغرق فيه إلى أذنيه .

ومع أن نشأته المحافظة جعلته يتستر على أعماله ، ولا يجاهر بسقطاته المتوالية . ولكنه سأم حياة الخداع .

وفى يوم من الأيام قرر أن يقلع عن إطعام شهواته – وأن يأخذ نفسه بالشدة ، فصنع قيداً حديدياً ، وربط ساقه بسريره فى أول الليل ، حتى لا يغادر فراشه إلى سهراته المشبوهة ! ، ولكنه لم ينم . بل ألحت عليه رغباته بشراسة أكثر من كل الماضى ، وفى خنوع وذلة ، فك رباط ساقه .. وإستجاب لمبدأ الشر الساكن في قلبه الإنسانى ككل البشر ! .

إن القيد الحديدى - لم يروض النفس الجامحة ! .

- فى كثير من البلاد - تأخذ بعض الرياضات البدنية طابعاً روحياً ، إذ يدَّعى أصحابها أنه من الممكن إصلاح أرواح الناس من خلال تدريبات جسدية عنيفة ، تتدخل فيها قوة الإرادة ، وإخضاع الجسد ، وكسر قوانينه الطبيعية ، وإختراق عالم المألوف ، إلى عالم العجائب .. إلخ .

ومهما كان أمر هذه الرياضات البدنية ، أو رياضات التأمل ؛ **فإن الحقيقة الواضحة هى أن أرواحنا لابد أن تتصل بقوة من معدنها الروحى - هى قوة روح الله خالقها .**

فمحاولات الإنسان لإخضاع ميوله وشهواته ، وتلميحات نفسه الأمارة بالسوء ، قد تنجح أحياناً ، لكنها لا يمكن أن تنجح دائماً ! . وقد يستطيع الإنسان أن يتظاهر بالسمو الروحى أمام الناس ، لكنه متى إنفرد بذاته استغرق فى أفكاره الجسدانية . وقد ينتصر الإنسان فى الظاهر ، لكنه يكون مهزوماً فى الأعماق .

إن طبائعنا البشرية ، الغارقة فى الأنانية ، وفساد الشهوة والخطيئة - هى قوة هدامة فى داخلنا ، تهاجمنا كوحش جائع ، تغتال أحلامنا الروحية البريئة ! ، ونحن لا نستطيع بالتدريبات البدنية ، أو المجهودات الروحية الشخصية أن نتغلب عليها ! ، ولا نستطيع أن نقاومها بالممارسات الدينية والعبادات التقليدية . لكننا نحتاج إلى قوة إلهية من خارج ذواتنا ، تحررنا من سلطان ميولنا الجسدية وتطلقنا من قيود جسدانيتنا . هذه القوة هى قوة روح الله ! ، القوة التى تروض نفوسنا . وتنتصر فينا على طبائعنا الجسدية .

إن روح الله القدوس هو الذى يدرب النفوس من منهج القداسة ، فهو يضع النفس أمام نوع طهارة الله ، فتتكشف للنفس الإنسانية مقدار نجاستها ، وشرورها ، وخطاياها الخفية ، وأفكارها القبيحة ، وشهواتها الدنينة ! ، حينئذ تذوب النفوس خجلاً ، وتتخلى عن كبريائها ، فيكشف الله لها طريق الخلاص الأبدى .

صرخة إنسانية

يارب

فى داخلى رغبات جامحة ،

وفى قلبى ميول منحرفة ،

وفى أعماقى توجهات قاهرة ،

وفى عينى تختبئ وحوش

شهواتى !

وأنا عاجز عن إسكات رغبتى ،

عاجز عن تقويم إنحرافاتى ،

عاجز عن قهر ميولى ،

عاجز عن ترويض الذئاب

الخبيئة - وراء عيون برائتى !

حاولت كثيراً :

أن أدرب نفسى على طاعتك ،

حاولت كثيراً :

أن أروض ذاتى ،
- حاولت أن أقيد ميولى -
أقودها إلى مبادئ النقاء ،
- حاولت أن أطهر جحور شهوتى ،
حاولت أن أغسل ضميرى من
أعباء التصنع .
والآن أدرك أن رغبات النفس -
وحوش كاسرة - لا يروضها البشر !
الآن أدرك أن سراديب شهوتى -
لا تطهرها ينابيعى الملوثة !

- أحتاج إلى شمس قداستك ،
تحرق خداعى ،
تطهر عمق أعماقى .

- أحتاج إلى قوة روحك ،
تقيد ذئاب شهوتى ،
تروض ذاتى .

- أحتاج إلى نوع اعلانات حبك
تنير بصيرتى ،
توجهنى ،
تكشف لى طريقاً لخلاص نفسى ،
تدربنى فى سبيل رضاك

يارب .

الشخصية الإنسانية أصول وتاريخ

الله لا يغير ملامح شخصياتنا ، لكنه يغير طبائعنا
التغيير معجزة إلهية تحدث فى كل يوم

حكاية " شمشون بن منوح الصرعى " المعروف شعبياً بإسم شمشون الجبار مليئة بالكثير من الروايات التى جاء قليلها فى التوراة ، وجاء كثيرها على ألسنة الرواة وأقلام الكتاب والمبدعين من الروائيين والباحثين والمنقبين فى التراث وجامعى الأثر وغيرهم .

ومن القصص الطريفة على هامش حياة شمشون الجبار ، قصة ترجع إلى أيام صباه ، وتقول إنه كان يسير فى يوم من الأيام وسط الكروم ، ففاجأه أسد هائج زأر فى وجهه إستعداداً للإنقضاض عليه ، وقبل أن يتمكن الأسد من ذلك هجم عليه شمشون ، وأمسك به من فكيه ، وشقه نصفين ، ثم ألقى بجثته على جانب الطريق ومضى إلى حال سبيله .

وتقول القصة إن شمشون عاد من رحلته بعد بضعة أيام ، وسار على ذات الطريق ، وإتجه إلى الموقع الذى ألقى فيه جثة الوحش الصريع ، فوجد فى جوف الأسد خلية نحل برى مليئة بالعسل ، فملأ كفه منها ، وعاد يردد كلمات قليلة صارت فيما بعد مثلاً مشهوراً . فقد قال شمشون ما معناه :

" من الوحش المفترس الذى يأكل الناس ، خرج عسل حلو يأكله الناس ! " .

هذا المضمون الجميل ، مضمون خروج العسل الحلو من الواقع المر ، يلقى ضوءً باهراً على معجزة إلهية رائعة تحدث يومياً فى حياة كثير من البشر فى كل بلاد الدنيا وفى كل العصور .

فما هى هذه المعجزة الإلهية ؟ ..

هذا ما نراه فى بقية هذا المقال .

الإنسان .. هذا الطيب

يحرص كثيرون من بنى البشر على ممارسة ما ندعوه " التعاملات الإنسانية " وهى التعاملات التى تحكمها المبادئ الإنسانية المتحضرة ، ولذلك فإننا نصادف أحياناً بعض المبادرات الطيبة فى مواقف الحياة العامة ، ونرى بعض أوجه التكافل والتراحم بين البشر . كما تتميز التعاملات الإنسانية الراقية بالتعاطف مع المحتاج والمظلوم والمتألم ، وتتشكل الجمعيات التى تسعى لعمل الخير والتى نطلق عليها إسم " الجمعيات الخيرية " .

وهذه التعاملات الحانية التى نسميها " الإنسانية " تعكس حقيقة هامة هى أن **الإنسان لا زال يحمل فى داخله شيئاً من الحنين لإنسانيته البريئة الأولى فى فجر تاريخه البشرى ، حين كان يعيش فى جنة الله ، وقبل أن يدخله الشر ، وتسيطر عليه الأنانية** . وقد نرى من المواقف الإنسانية ما يبهرنا حقاً ، حين نلمس أحياناً فى حياة بعض الناس حباً صادقاً للآخرين ، أو تضحية من أجل قريب أو حبيب أو جار أو غريب وقد يبهرنا أن نرى فقيراً مثلاً يتنازل عن طعامه لمن هو أحوج منه ، أو نرى من يتبرع بدمه لإنقاذ جريح .. إلى غير ذلك من المظاهر الإنسانية الجميلة والطيبة . **فماذا نقول عن الشخصية الإنسانية بصفة عامة - هل نقول أن الإنسان طيب أحياناً ؟ ، أم نقول إنه لا يخلو من الطيبة ؟** . الحقيقة أن أشر الناس وأقساهم وأظلمهم قد يدهشنا حين يظهر فى بعض مواقف حياته لمحة خاطفة من التصرف الطيب تجعلنا نقول : " حقاً الناس طيبون " ! .

الإنسان .. هذا الشرير

لكن هذا الجنس البشرى نفسه قد يدهشنا بقدرته الهائلة على إرتكاب الفظائع ، وإثارة القلاقل ، وإراقة الدماء ، وتفجير الحروب ، وخلق المآسى ! ، فهذا الجنس الذى خلق مؤهلاً للحب والبناء الغرس والتواصل ، لا يستحى أن يحطم ويخرب ويقتل ويؤذى ويظلم ويسرق وينهب ويبطش ويغتصب .. إلخ .

فهل الإنسان ملئ بالشر ، هل هو شرير أم هو شيطان ؟ ، أين موقع الإنسان بين عالم الملائكة وعالم الوحوش ؟ ، ولماذا نراه أحياناً ملاكاً حانياً ، ونراه أحياناً أخرى وحشاً جانياً مفترساً قاسياً بلا قلب ؟ .

إن أسهل ما نفسر به لغز الشخصية الإنسانية هو أن نقول إن العالم خليط من الناس الخيرين والناس الأشرار . وهذا بالطبع تفسير سهل ، لكنه فى الواقع تسطيح لحقائق عميقة ! . فليس البشر مقسومين إلى قسمين أحدهما خير كله وهو الذى يفعل الخير دائماً والآخر شر كله وهو الذى يفعل الشر دائماً . فنحن نرى الجميع يفعلون الخير ويفعلون الشر بدرجات متفاوتة ، مما يبين أن الشخصية الإنسانية نسيج واحد من الأضواء والظلال . فذلك الإنسان الذى قد يبدو خيراً من كل وجه وفى كل مواقف وتصرف ، هذا الإنسان قد يحمل فى قلبه بعض النوايا المغرقة فى الشر أو الشهوة أو الأنانية أو الحقد أو الحسد .. إلى غير ذلك مما يحرص على كتمانه . وعلى الجانب الآخر فإن ذلك الإنسان الذى قد نصفه بأنه شرير بحث ، قد يحمل فى قلبه شهامة أو صراحة أو أمانة لا تظهرها أعماله التى تتسم بالشر بصفة عامة ! .

فما هى حقيقة البشر ؟

كيف نصف الشخصية البشرية ؟

ماذا فى عمق هذا الكيان الإنسانى ؟

لعل أبسط تحليل للشخصية الإنسانية هو التحليل المرتبط بأصول الإنسان وتاريخ الإنسان :

فمن حيث الأصول :

فإن الإنسان مخلوق روحى ، إرتبط منذ لحظة خلقه بالله خالقه ، حيث منحه الله تمييزاً وتعقلا ليدرك الحقائق الروحية ، ويتجاوب مع محبة الله ووصاياه وإعلاناته الإلهية ، كما خلقه الله حر الإرادة يطيع أو يعصى .

أما من حيث التاريخ :

فإننا نعلم أن هذا الإنسان رغم تميزه وعقله وإدراكه ، فإنه منذ خلقه وإلى يومنا هذا قد عصى ربه وما زال يمارس عصيانه فى كل أو بعض جوانب حياته . فلقد سقط جنسنا البشرى فى منزلق الخطيئة ، ثم وجد فيها لذة خاصة وشهوة جاذبة ، ففقد براءته الأولى وفقد صفاء قلبه وفكره وضميره ، وإنجذب نحو ميوله الذاتية ،

وتحولت طبيعته الروحية الصافية إلى طبيعة ساقطة مختلطة ، تقاوم الشر ثم تسقط فيه ، وتشتاق إلى الخير وتتعثر فى فعله ! .

الشخصية الإنسانية إذن ليست شخصية وحشية خالصة الشر ، وليست شخصية ملائكية خالصة الخير ، لكن الإنسان يحمل فى قلبه أشواقاً روحية ، وتطلعاً نحو الله ، ورغبة فى عبادته وطاعته ، وأملاً فى العودة إلى جنته . ولكنه يحمل أيضاً ميولاً ساقطة ودنايا شهوانية قبيحة ، قد تصل بصاحبها إلى ما هو أشر من طبائع الوحوش .

وهذه الصفات المختلطة فى طبيعة الشخصية البشرية ، تطفو فوق امواج الحياة ومواقفها ، فتبدو فى بعض المواقف صافية طيبة ، وتبدو فى غيرها شريرة قاسية ظالمة ، وهى أحياناً تنتصر على شرها وأحياناً تستسلم له .

شخصياتنا .. ومحاولات التجمل

بعيداً عن خداع الذات ، فإن كل واحد فينا يعرف أنه يتستر على كثير من النوايا غير الحسنة التى تعمل فى داخله ، فنحن لا نظهر من شرنا غير القليل الذى يتعذر علينا إخفاؤه ، بينما نخفى كل ما يسيطر علينا من النوايا الخبيثة والأفكار السرية .

وبعيداً عن خداع الذات ، فإن كل واحد فينا يعرف فى قرارة نفسه إلى أى مستنقع من الشهوة والحقد والغيرة تذهب به أفكاره ، وإلى أى كهف مظلم من الأنانية والكراهية تأخذه مشاعره الداخلية ! .

وبعيداً عن خداع الذات ، ألا يجد كل منا فارقاً كبيراً بين صورته التى يحرص على تلميعها فى عيون الناس ، وصورته الحقيقية التى يعيشها فى الخفاء ، أو بين ما يقوله وما يفكر فيه ؟ ! .

معجزة التغيير

هذا الصراع الذى نعيشه نحن البشر بين رغبتنا فى الحياة مع الله ، وبين محاولاتنا الفاشلة لتحقيق ذلك ، وهذا العناء الدائم فى تلميع صورتنا أمام الناس ، وهذه المواجهة مع النفس كلما أعتملت فى داخلنا مشاعر الهدم والعجز . هذه كلها توقظنا بين حين وآخر ، وتدفعنا إلى محاولات الإصلاح وتهذيب النفس . وقد تدفعنا

إلى إقرار العهود والإلتزامات بحياة جديدة خالية من العيوب والخطايا . لكننا فى كل مرة نتجرع هزيمة قاسية ، لأن ما نحتاجه ليس إصلاح الذات الذى نجريه على أنفسنا ، بل معجزة التغيير التى يجريها الله فينا .

إن ما نحاوله نحن هو تغيير ملامح شخصياتنا ، لكن ما يعمله الله هو تغيير طبيعتنا ! .

إن الله وحده يجرى معجزة التغيير فى القلب وليس على سطح الحياة ، إنه يتعامل مع طبيعة الوحش الذى فينا ، ليخرج من الوحش عسلاً ومن المر حلاوة ! .

إذا أردت أن يغير الله قلبك فأترك محاولاتك الفاشلة ، وإتجه إليه بقلب صادق ليكشف لك الطريق ويصنع فى داخلك معجزة التغيير ! .

صرخة إنسانية

يا رب

أنا سعيد بشخصيتى ،
سعيد بملامحى ،
لكنى خجلان من طبيعتى .. من
دواخلى !
فقد أصلحت صورتى ؛
فجعلتها مضيئة فى عيون الناس .
مارست أنماط العبادة ،
ومارست مبادئ الأخلاق ،
ومارست التجمل والتأدب .
لكنى غارقاً فى بحور الشهوة
والشر ،
تأخذنى أفكارى إلى مستنقعات العار ،
عارى أمامك هو قضيتى وإهتمامى ،
وفشلى أمامك هو عارى وظلامى .

والآن ..
أجئ إليك لتغيرنى ،
أكشف لى طريقاً أستنير به وأتغير ،
أصنع فى داخلى معجزة التغيير الإلهى
أمنحنى طبيعة جديدة منك ،
أخرج من سقوطى إنتصاراً ،
أخرج من خداعى حقيقة ،
أخرج من مرارتى حلواً ،

يا رب .

فهرس الكتاب

مبادئ إنسانية عن

طبائعنا البشرية .. وأشكالها

١ - مبادئ إنسانية ....

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

٢- مبادئ إنسانية ....

مالك نفسه خير مَن يملك مدينة .

٣- مبادئ إنسانية ....

الذى يسلك فى طريقين يسقط فى إحداهما .

٤ - مبادئ إنسانية ....

لا يتسلّط عليك شئ .

٥- مبادئ إنسانية ....

الرخاوة لا تمسك صيداً ، أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الإجتهاد .

٦- مبادئ إنسانية ....

محبة المال أصل لكل الشرور .

٧- مبادئ إنسانية ....

الشرير كالبحر المضطرب لأنه لا يستطيع أن يهدأ .

٨- مبادئ إنسانية ....

لا تكن بين شريبى الخمر والمتلفين أجسادهم .

٩- مبادئ إنسانية ....

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه .

" الإنسان تاج الخليقة " .

١٠- مبادئ إنسانية ....

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه .

" الإنسان الذى سقط " .

١١- مبادئ إنسانية ....

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه .

" الإنسان : عين فى السماء " .

١٢- مبادئ إنسانية ....

الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء محدود فى طبيعته غير محدود فى رغائبه .

" الإنسان الجديد " .

١٣- مبادئ إنسانية ....

إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .

" مجرمون خارج قفص الإتهام " .

١٤- مبادئ إنسانية ....

إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .

" خطايانا المستترة " .

١٥- مبادئ إنسانية ....

إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .

" هل نحن حَيات سامة ؟ " .

١٦- مبادئ إنسانية ....

إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة .

" جواهر ثمينة ولكن " .

١٧- مبادئ إنسانية ....

حياة النفس تبدأ بعد فناء الجسد لأن الإنسان فى هذه الحياة كله نقص .

" لماذا نخشى الموت ؟ " .

١٨- مبادئ إنسانية ....

حياة النفس تبدأ بعد فناء الجسد لأن الإنسان فى هذه الحياة كله نقص .

" بعد فناء الجسد " .

١٩- مبادئ إنسانية ....

ما طار طير وإرتفع ، إلا كما طار وقع . **" كيف يسقط الجبابرة ؟ "** .

٢٠- مبادئ إنسانية ....

ما طار طير وإرتفع ، إلا كما طار وقع . **" سماء بلا سقوط "** .

٢١- مبادئ إنسانية ....

ما طار طير وإرتفع ، إلا كما طار وقع . **" آفاق الحياة المنتصرة "** .

٢٢- مبادئ إنسانية ....

الإيمان بالخرافات تحقير لعقولنا ، والإيمان بالله إعلاء وتكريم لها .
" فقراء إلى الإيمان " .

٢٣- مبادئ إنسانية ....

الإيمان بالخرافات تحقير لعقولنا ، والإيمان بالله إعلاء وتكريم لها .
" لماذا نخضع للخرافات ؟ " .

٢٤- مبادئ إنسانية ....

من الخرافات ما يضيع الوقت والمال والعقل والعمر
لكن أخطرها جميعاً ما يضيع فرص التوبة والخلاص ! .

٢٥- مبادئ إنسانية ....

الجبن سيد الأخلاق .. الشجاعة سيدة الأخلاق .

٢٦- مبادئ إنسانية ....

إقتلع الكراهية من صدر أخيك بإنتزاعها من قلبك أولا .
" لماذا نكره ؟ .. وكيف نحب ؟ " .

٢٧- مبادئ إنسانية ....

لا تدينوا .. لئلا تدانوا .

٢٨- مبادئ إنسانية ....

نكران الجميل يلوّن علاقاتنا بالله . ماذا نرد الله من أجل إحساناته لنا ؟ .

٢٩- مبادئ إنسانية ....

إحذر .. إنك لا تقدر أن تكذب على الله !

٣٠- مبادئ إنسانية ....

يا من لا تخدعك المظاهر والثياب - أسترنى برداء من عندك ! .

٣١- مبادئ إنسانية ....

وتظل كلماتنا حريقاً فى شفاهنا ، حتى ننطق بضراعات التوبة ! .

" النار بين الشفاة " .

٣٢- مبادئ إنسانية ....

قد تختبئ " الكبرياء القاتلة " وراء ستار " الكرامة الشخصية " حتى تحطم صاحبها !! .

٣٣- مبادئ إنسانية ....

الضمير هو الآلة التى يستخدمها روح الله لتوجيه الإنسان ، لكنها كثيراً ما تكون معطلة !! .

" ضمائرنا آلة الله فى داخلنا " .

٣٤- مبادئ إنسانية ....

فى صفحة الحياة كتابات واضحة .. قد يقرأها الأميون ، ويعجز عن قراءتها المتعلمون .

٣٥- مبادئ إنسانية ....

صديقك من يقول لك الصدق ، وعدوك يخفى عنك الحق .

٣٦- مبادئ إنسانية ....

عالمنا البشرى .. بيئة روحية ملوثة تحتاج إلى تطهير !! .

٣٧- مبادئ إنسانية ....

حين تكذب على الناس تخسر ثقة الناس ، حين تكذب على نفسك تخسر نفسك ذاتها ! .

٣٨- مبادئ إنسانية ....

ما أقل الأشياء التى يشتريها المال ، وما أكثر الأشياء التى يضيعها ! .

٣٩- مبادئ إنسانية ....

كل نار لابد أن تنطفئ ، وتظل نار الشر تحرق القلوب ! .

٤٠- مبادئ إنسانية ....

إذا كنا لا نغفر إساءات الناس القليلة لنا ، فكيف يغفر الله لنا ذنوبنا الكبيرة ؟ ! .

٤١- مبادئ إنسانية ....

" ... وبعد أن يبدد الإنسان طاقاته الهائلة فيما لا يفيد ... تدركه قوة الله المجددة " ! .

٤٢- مبادئ إنسانية ....

أقسى ألوان العبودية ، تفرضها علينا خطايانا ! .

٤٣- مبادئ إنسانية ....

قد لا يكون الإنسان ملحداً ، لكن الإيمان لا يعنى مجرد الإعتراف بوجود الله .

٤٤- مبادئ إنسانية ....

لم يكن " أصل الإنسان " وضيعاً وإرتفع ، لكنه خلق رفيعاً ... ثم إنحدر .

٤٥- مبادئ إنسانية ....

قد لا نكون أشرار ، لكن مفاهيمنا الخاطئة عن الله ، تجعلنا نضل الطريق ! .

٤٦- مبادئ إنسانية ....

أخطر الأعداء فى حياتنا هو العدو الذى يعيش فى داخلنا .

٤٧- مبادئ إنسانية ....

الإنتقام طعام من نار ، إذا إشتهيته - إلتهب حلقك .

٤٨- مبادئ إنسانية ....

حين نسلم قيادة حياتنا لأمزجتنا نصبح كالقش فى مهب الريح .. !

فمن أين لنا بقلب ثابت هادئ لا تلعب به الأهواء والأمزجة ؟ .

٤٩- مبادئ إنسانية ....

اللاوعى الروحى أخطر كثيراً من الشرود الذهنى ..

فمن " السرحان " ما قتل ! .

٥٠- مبادئ إنسانية ....

حياتنا مليئة بالأقنعة ، ونحن نخطئ كثيراً إن قلنا إننا لا نغش ! .

أسوأ ألوان الغش هى خداع الإنسان لذاته لأنه يغلق أمام نفسه أبواب الحق والتوبة ! .

٥١- مبادئ إنسانية ....

شهواتنا الشريرة - وليدة طبيعتنا الخاطئة .

لا سبيل إلى قهر شهواتنا - إلا بلمسة إلهية تغيرّ قلوبنا ! .

٥٢- مبادئ إنسانية ....

نحن أرواح تنتمى إلى الله وتتطلع إلى الخلود ، فلماذا تطغى علينا أجسادنا ؟ ! .

نحتاج أن يغير الله طبائعنا البشرية .. فننتمى إليه حقاً .. ! .

٥٣- مبادئ إنسانية ....

كما تحتاج أجسادنا إلى الرياضة البدنية ،
كذلك تحتاج طبائعنا الجسدية إلى الترويض الروحى ! .

٥٤- مبادئ إنسانية ....

الشخصية الإنسانية أصول وتاريخ الله لا يغير ملامح شخصياتنا ،
لكنه يغير طبائعنا التغيير معجزة إلهية تحدث فى كل يوم .

المجموعة الكاملة لمقالات

" مبادئ إنسانية "

للكاتب الكبير والشاعر والأديب المعاصر " نعيم عاطف " .

والتى نشرت بمجلة " هو وهى " - تم صدورها فى خمسة أجزاء :

١. الحب .. والزواج .. والأبناء .. والأسرة ..

(والجمال .. والنجاح .. والسعادة .. والسلام .. والأمل ..)

٢. طبائعنا البشرية .. وأشكالها .

٣. الله : الحب والخير والدواء .

٤. أجمل الصور الإيجابية .. وأقبح الصور السلبية فى حياتنا .

٥. خريف الحياة .. وربيعها .

****

تحت الطبع

" للكاتب الكبير نعيم عاطف "

فى كتاب واحد

- فصول مجهولة من تاريخ البشر .
- محاورات " هو وهى " :

- بسم الله نبدأ ، وعن الله يحلو الحديث ..
- وعن آمالنا وآلامنا نتحدث ..
- وبالحب نختتم الحوار ..

إصدارات

سمير سوانى

١. كيف تهزم ذاتك .. وتصير متواضعا .

٢. كيف تهزم .. ؟ ذوقا صالحا علمنى .

٣. ٣٥ كتاب × كتاب .

٤. عظات لا تقرأ ! . (جزء ١) .

٥. خلاصات وخبرات فى الحياة . (جزء ١) .

٦. من جعبة هؤلاء . (جزء ١) .

٧. ألغاز وأحجية كتابية . (جزء ١) .

٨. ألغاز وأحجية كتابية . (جزء ٢) .

٩. قصاقيص ورق . (جزء ١) .

١٠. قطرات الندى . (جزء ١) .

١١. يا رب .. (جزء ١) .

****

قريبا ..

- قالوا عن .. الله .
- شخصيات لا تنسى .
- الموسوعة العلمية للمعلومات العامة .
- أهلاً بك فى .. سياحة حول العالـــم .

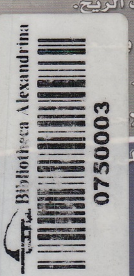
مبادئ انسانية عن

طبائعنا البشرية ... وأشكالها

عزيزى القارىء .. ستقرأ عن طبائعنا البشرية والجسدية والنفسية والإنسانية، وأشكالها وصورها وعلاج أمراضها وتقديم الحلول للنفس البشرية المعذبة والمجروحة والمحتاجة، وموضوعات أخرى، فى هذا الكتاب الذى بين يديك.

كُتبت بقلم الكاتب والشاعر والأديب 'نعيم عاطف'. والتى نُشرت بمجلة 'هو وهى' .. منها:

- الإنسان كإله ساقط يتذكر السماء، محدود فى طبيعته.. غير محدود فى رغائبه.
- إن الحية لا تكون أقل سماً حين تضع على رأسها جوهرة ثمينة.
- الإيمان بالخرافات تحقير لعقولنا، والإيمان بالله إعلاء وتكريم لها..
- الضمير هو الآلة التى يستخدمها روح الله لتوجيه الإنسان لكنها كثيراً ما تكون معطلة.. ضمائرنا آلة الله فى داخلنا.
- لم يكن 'أصل الإنسان' وضيعاً وارتفع، لكنه خُلق رفيعاً .. ثم إنحدر.
- نحن أرواح تنتمى إلى الله، وتتطلع إلى الخلود، فلماذا تطغى علينا أجسادنا ؟نحتاج أن يغير الله طبائعنا البشرية فننتمى إليه حقاً؟
- حين نسلم قيادة حياتنا لأمزجتنا نصبح كالقش فى مهب الريح.
- ما أقل الأشياء التى يشتريها المال، وما أكثر الأشياء التى
- إقتلع الكراهية من صدر أخيك، بإنتزاعها من قلبك أولاً.
- الرخاوة لا تمسك صيداً أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الإ
- حين تكذب على الناس تخسر ثقة الناس، حين تكذب عل تخسر نفسك ذاتها.
- لا سبيل لقهر شهواتنا، إلا بلمسة إلهية تغير قلوبنا.


Bibliotheca Alexandrina
07500003